الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة منتوري- قسنطينة

كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية
قسم التاريخ

الرقم التسلسلي: .....

رقم التسجيل: .....

دور أعلام منطقة أم البواقي في الحركة الإصلاحية والثورة التحريرية

محمد مساس الإبراهيمي وأبو القاسم الزغداني – نموذجا –

1900-1962م

دراسة تاريخية وفكرية مقارنة

رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في تاريخ المجتمع المغاربي الحديث والمعاصر

إعداد الطالب :
محمد مسعي

إشراف الدكتور:
شايب قدادرة

أعضاء لجنة المناقشة :

الأستاذ المناقش	الرتبة	الجامعة	الصفة
عبد الكريم بوصفصاف	أستاذ التعليم العالي	الجامعة الإفريقية أحمد دراية - أدرار	رئيسا
شايب قدادرة	أستاذ محاضر	جامعة 08 ماي 1945 - قالمة	مشرفا ومقررا
عبد الرحيم سكفالي	أستاذ التعليم العالي	جامعة منتوري – قسنطينة	عضوا
أحمد صاري	أستاذ التعليم العالي	جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة	عضوا
الجمعي تمري	أستاذ التعليم العالي	جامعة الحاج لخضر – باتنة	عضوا

السنة الجامعية: 1430 - 1431هـ // 2009 - 2010م

﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ سورة المجادلة، الآية 11 .

صدق الله العظيم

الإهـــــــداء

إلى والدي الكريمين – رحمهما الله تعالى – اللذين ربياني فأحسنا تربيتي، وأنفقا زهرة شبابهما في سبيل تعليمي لأصل إلى ما كانا يصبوان إليه.

وإلى أم بنتي ميمونة وشيماء، التي قاسمتني هموم البحث، وتحملت مطالبي الكثيرة أثناء مرحلة الإعداد والتحرير .

وإلى أبنائي الأعزاء: أسامة، عبد السلام، عبد العزيز، عبد الودود، ميمونة وشيماء، وأخص بالذكر منهم ثالثهم عبد العزيز، الذي أسهم بدور فاعل في طباعة هذا الإنجاز العلمي.

إلى هؤلاء جميعا أهدي ثمرة هذا البحث.

شكر وتقدير

أتوجه – بادئ ذي بدء – بأسمى آيات الشكر والعرفان والتقدير للأستاذ الدكتور عبد الكريم بوصفصاف، المشرف الأول على هذا العمل العلمي، والذي لم يبخل عني بوقته الثمين، وتوجيهه السديد، وتقويمه المفيد.

وإلى الدكتور شايب قدادرة الذي كان خير خلف لخير سلف، فواصل المشوار في التوجيه والتأطير إلى أن اكتمل البحث وبلغ ذروته.

أما الهيئات والأشخاص الذين يستحقون الشكر والثناء على مساعداتهم لي وتشجيعاتهم الصادقة المخلصة فهم:

أولا: مديريتا الشؤون الدينية والأوقاف، و المجاهدين لولاية أم البواقي، ومصلحة الأرشيف لولاية قسنطينة، التي دعمتني بكل ما له صلة بموضوع البحث.

ثانيا: الأساتذة المؤطرون لدفعة مخبر الدراسات التاريخية والفلسفية (2006/2005م) .

ثالثا: أقارب المصلحين – موضوع الدراسة – وأخص منهم بالذكر: الصادق ومحمد علي نجلي الشيخ محمد مساس الإبراهيمي، والسيدة النعيمي فريدة وعبد الحميد نجلي الشيخ أبي القاسم الزغداني، هؤلاء الذين شرحوا لي قلوبهم، وفتحوا لي منازلهم لإفادتي بما توفر لديهم من معلومات ووثائق.

رابعا: الصديقان المبجلان: نور الدين بولحية، وخليفة سمار، اللذان كان لهما الفضل في المعالجة النصية واستخراج مراجع النصوص القرآنية والنبوية.

مقدمة البحث وخطته

درجت الأمم والشعوب على الاحتفاء برجالاتها وعظمائها من حيث النبوغ العلمي والثقافي أو من حيث الإسهام الفعال في الحياة السياسية والوطنية، والجزائر إحدى البلدان التي تمتلك من التراث التاريخي والفكري ما يبوئها منزلة مرموقة بين الأمم، الأمر الذي يفرض عليها البحث والتنقيب عن ذاكرتها الجماعية بكل الوسائل المتاحة. ويأتي هذا البحث في ذات السياق نفسه بهدف الكشف عن آثار شخصيات من منطقة أم البواقي، غفلت أقلام الباحثين عنها منذ استرجاع الاستقلال الوطني إلى يومنا هذا، على الرغم من أنها شخصيات لها إسهاماتها الواضحة في الحركة الوطنية عامة، والحركة الإصلاحية خاصة.

والحق أن الحركة الإصلاحية في الجزائر قد مرت بمرحلتين أساسيتين المرحلة الأولى وتبدأ من نهاية القرن التاسع عشر، وتنتهي غداة الحرب الكونية الأولى، وتبدأ الثانية من سنة 1919م إلى قيام الثورة التحريرية الجزائرية سنة 1954م. وبينما ركز المصلحون في المرحلة الأولى على تنبيه الناس إلى خطر الأمية والجهل والبدعة والخرافة والعصبية القبلية والتفرقة العنصرية بين الناس، و لم يلجوا إلى عمق المسألة التي كانت تتطلب عملا جديا في الميدان بسبب قلة المتعلمين والمثقفين عموما، والهيمنة الاستعمارية التامة على كل مقدرات البلاد ومصائر العباد، بل و لم يتمكن المصلحون الأوائل من نقل أساليب عملهم من الحواضر الكبرى إلى باقي مناطق الوطن الأخرى إلا عرضا مثل مناطق الجنوب البعيدة والمناطق الشرقية القريبة من الحدود الجزائرية التونسية، ومنها منطقة أم البواقي التي هي موضوع هذه الدراسة.

ولما انطلقت الحركة الإصلاحية الكبرى التي قادها رجال كان لهم من العلم والعمل والإخلاص والشجاعة الأدبية والسياسية ما لم يكن لغيرهم، وازنوا بين القول والعمل وأصبح التفكير في التعليم حقيقة واقعة، والأمل في إنشاء الصحافة الوطنية الحرة فكرة مجسدة، وبناء المدارس والمساجد والنوادي عملا ميدانيا أكيدا. فامتد تفكير ونشاط الرواد الكبار إلى مختلف أنحاء القطر الجزائري وأصبحت كل منطقة تتوق إلى الاستفادة من هذه الحركة الميدانية الجديدة التي طالما انتظرها الشعب الجزائري بشغف كبير، لعله يروي وطابه، ويشفي غليله من تلك المعارف والعلوم الجديدة التي أصبح إشعاعها يلوح من قسنطينة وسطيف والجزائر وتلمسان والأغواط ووادي ميزاب إلى كافة ربوع الوطن. وفي هذا الخضم الثقافي والفكري والديني، الذي حرك الهمم وزعزع

الجمود وفتق العقول، وألهب المشاعر بحب العلم والدين النقي من البدع والخرافات والشعوذة والدجل، نشأ وترعرع كل من المصلحين محمد مساس الإبراهيمي وأبي القاسم الزغداني في منطقتي رأس الواد، وأم البواقي أولا، ثم معا في هذه الأخيرة ثانيا، وصار كل منهما يتوق إلى طلب العلم والاستزادة من المعارف الدينية والدنيوية، التي كان ينشرها العلماء الكبار في قسنطينة والزيتونة والجامعات الإسلامية الأخرى كالأزهر الشريف بالقاهرة والقرويين بفاس.

والواقع أن هذين العالمين قد أسهما في البناء الوطني والفكري والثقافي والسياسي مستلهمين رؤاهما وتصوراتهما من المنبع الأصيل للحركة الوطنية الرائدة منذ مطالع القرن العشرين، غير أن المصادر والمراجع التي كتبت عن هذه الشخصيات شحيحة جدا، وذلك ما ألزمني مضاعفة الجهد أكثر للحصول على أكبر قدر ممكن من المادة الخبرية لأتمكن من الإلمام بمختلف جوانب حياة هؤلاء الأعلام.

وهذا البحث هو دراسة تاريخية وفكرية مقارنة بين أعمال شخصيتين من رجال الجيل الثاني للنهضة العربية الإسلامية الجزائرية الحديثة التي امتد نشاطها الفعلي منذ نهاية الحرب الكونية الأولى إلى الاستقلال الوطني وهما:

محمد مساس الإبراهيمي (1895 – 1977م) في عين مليلة، وأبو القاسم الزغداني (1901 - 1979م) في أم البواقي، فكان لهذين المصلحين إسهام محمود وعمل مشهود في تمتين النسيج الاجتماعي في منطقة أم البواقي، وتوعية السكان وتجنيدهم للدفاع عن الوطن ضد الاستعمار، ورفع حجاب الجهل والأمية عن عقولهم، ودفعهم إلى المشاركة في بناء وتشييد صرح الجزائر الجديدة.

أسباب اختيار الموضوع:

لقد اخترت هذا الموضوع بالذات لإعداد رسالة ماجستير في التاريخ المعاصر لعدة دوافع أهمها:

أولا. دافع الانتماء إلى منطقة أم البواقي، ومعرفتي الشخصية ببعض أعلامها المصلحين.

ثانيا. الرغبة الملحة في استجلاء الأعمال البارزة لشخصيات المنطقة ونفض الغبار عن آثارها ومآثرها، والتي غذت الفكر والروح وكانت مصدرا فياضا للإلهام الفكري والوطني.

ثالثا. غياب الدراسات التاريخية والتراثية المختصة عن هذه المنطقة سواء من أبنائها أو من الباحثين الأكاديميين المختصين، نظرا لما كانت عليه من عزلة وبعد عن الحواضر الثقافية الكبرى.

إشكالية البحث:

تهدف إشكالية هذه الرسالة إلى البحث عن العناصر الجوهرية في حقيقة النضال الوطني والثقافي وفي النهضة الوطنية عموما بمنطقة أم البواقي والتي ظلت إلى عهد قريب تعيش على البداوة والرعي، وتفتقر إلى كثير من ضروريات الحياة الفكرية والثقافية بسبب العزلة التي فرضها الاستعمار على أقاليم المنطقة عموما. ولإلقاء الضوء أكثر على هذه الإشكالية يمكن طرح جملة من التساؤلات التي تتطلب البحث المعمق والدراسة المتأنية ومنها:

أولا. هل يعد مسار هذين المصلحين امتدادا للحركة الوطنية والإصلاحية؟

ثانيا. هل كان هذان العالمان مصلحين دينيين فحسب، أم تعدت اهتماماتهما مجال الإصلاح الديني إلى النضال السياسي والوطني؟

ثالثا. ما هي القواسم المشتركة بين هذين المصلحين؟

رابعا. ما مدى وفاء هذين العالمين للمرجعية الدينية والوطنية في دروسهما وكتاباتهما المنشورة؟ وإلى أي مدى وفقا في مكافحة الأمية، ونشر التربية والتعليم والإصلاح في المنطقة؟

حدود البحث:

تعالج هذه الرسالة دور شخصيتين بارزتين في الحركة الإصلاحية والثورة التحريرية على امتداد مساحة زمنية تزيد عن ستة عقود (1900-1962م) اعتبارا من الإرهاصات الأولى للحركة الإصلاحية وانتهاء بالاستقلال الوطني. وهي مرحلة حافلة ولا شك بالأحداث التاريخية والتحولات الاجتماعية والثقافية والسياسية تجعل الباحث ملزما بتتبع تطوراتها ومحطاتها المختلفة تتبعا كرونولوجيا لكي يستطيع ملامسة التأثيرات المختلفة على هاتين الشخصيتين—موضوع الدراسة- وتأثيرهما على محيطهما الثقافي والاجتماعي والسياسي في تلك المرحلة العصيبة من التاريخ الوطني، وما خلفاه من بصمات واضحة في هذه المجالات.

مناهج البحث:

لقد اعتمدت في المقاربة بين أعمال هذين العالمين على مستوى كل الفصول والمباحث ثلاثة مناهج علمية معروفة:

أولا. المنهج التاريخي الوصفي: وقد استخدمته في وصف واستعراض الأحداث التاريخية والظواهر

الاجتماعية، الثقافية والسياسية، متدرجا حسب التسلسل الزمني.

ثانيا. المنهج التحليلي: وقد سلكته في دراسة الوقائع ومناقشتها وربطها ببعضها البعض، واستنباط الأحكام منها جزئية كانت أو كلية، نسبية كانت أو نهائية.

ثالثا. المنهج المقارن: وقد وظفته في المقاربة بين أعمال المصلحين وأفكارهما ومواقفهما؛ وتأثير كل ذلك في الحياة الاجتماعية والثقافية والسياسية.

صعوبات البحث:

بما أن موضوع البحث موضوع جديد لم يطرق من قبل الباحثين والدارسين على اختلاف تخصصاتهم، فإن المادة العلمية كانت شحيحة مما فرض علي البحث والتنقيب في كل شبهة معرفية، أو في كل ظل يتوقع أن يكون تحته قبس من الحقيقة العلمية، مما سجله أولئك الرواد الوطنيون بالمنطقة في مجال الفكر والثقافة والوطنية ولا شك أن الملاذ الوحيد للباحث في مثل هذه الظروف هو دور الأرشيف الوطني خاصة وأن الظاهرة المألوفة في بلادنا هي أن الجزائريين لا يدونون أعمالهم إلا قليلا، ثم لأنهم يعتمدون الذاكرة الشفوية أكثر من الذاكرة المكتوبة بسبب ملاحقة الاستعمار.

أهم مصادر البحث ومراجعه:

أولا. المصادر:

لعل أهم مصادر هذه الرسالة هي آثار المصلحين – محل الدراسة - المخطوطة منها والمنشورة وهي عماد البحث ومادته العلمية الأولى، ويمكن تصنيفها على النحو الآتي:

أ ــ نصوص الشيخ محمد مساس الإبراهيمي:

وهي عبارة عن مخطوطات محفوظة عند نجله الصادق مساس بعين مليلة ولاية أم البواقي وهي:

1- المواعظ الدينية.

2- الخطب الاجتماعية والسياسية.

3- البحوث الفقهية والفتاوى الشرعية.

4- الترحيب والإشادة برجال جمعية العلماء.

5- تأبين شخصيات محلية ووطنية.

6- وثائق خاصة كشجرة النسب ورحلة الحج.

7- وهناك نوع آخر من المصادر المخطوطة أيضا، والخاصة بهذا المصلح، وتتمثل في المراسلات التي كان يتلقاها ردا على رسائله لشخصيات إصلاحية وطنية معروفة كابن باديس والإبراهيمي وغيرهما. وقد استفدت من هذه الأعمال كلها، ووظفتها في الفصل الثاني في مجال التربية والتعليم، وفي النشاط السياسي والوطني، وفي موضوع الصفات والمناقب.

أما النوع الثاني من مصادر هذه الشخصية فهي المقالات الإصلاحية والفقهية التي نشرت في صحيفة الشهاب سنتي 1926 و1927 م وهي:

- **(تبيين ما عليه المعاهد العلمية):** وفي هذه المقالة انتقد محمد مساس السلوكات المشينة للقائمين على الزوايا، خلافا للمولود الحافظي الذي نوه بها واعتبرها معاهد علمية.

- **(جواب عن سؤال الشحوم):** وهو عبارة عن جواب عن سؤال فقهي يستفتي فيه صاحبه عن حكم اللحوم التي ترد من فرنسا.

- **(حول مسألة الشحوم):** وفيها يرد على من علق على فتواه السابقة بحلية اللحوم المستوردة من أهل الكتاب.

وقد وظفت هذه المقالات في الجوانب الاجتماعية والدينية والشرعية.

ب- نصوص الشيخ أبي القاسم الزغداني:

بعد عملية البحث والتحري عن تراث أبي القاسم الزغداني، لم أتمكن من العثور إلا على مخطوطة واحدة وهي إجازة التحصيل التي استلمها من شيوخه بجامع الزيتونة سنة 1930 م. ورغم نشاطه المسجدي الملحوظ في مناطق مختلفة من الوطن على مدى سنوات طويلة، فإنني لم أعثر له على درس واحد أو خطبة بخط يده لا عند أهله وأصدقائه، ولا عند تلامذته ومحبيه، على الرغم من أن أهله قد أكدوا لي أنه كان كثير الكتابة والتحضير لدروسه وخطبه المسجدية، ويحتمل أن تكون مخطوطاته قد ضاعت إبان الثورة التحريرية بسبب ملاحقة الاستعمار لاسيما وأنه غادر الجزائر سنة 1956 م إلى تونس، ولم يعد إلى ارض الوطن إلا بعد

استرجاع الاستقلال الوطني. أما الصنف الثاني من المصادر والتي تمكنت من العثور عليها فهي المقالات المنشورة في صحف جمعية العلماء وهي الشهاب والبصائر والشريعة في فترة الحركة الإصلاحية وهي:

- **(كتاب خاص في معنى عام)**، الشهاب، وهي في الأصل مراسلة وردته من صديقه مصطفى بن حلوش، فاستحسن ما ورد فيها، وتعميما للفائدة طلب من الشهاب نشرها بعد الاستئذان من صاحبها.

- **(الغربلة قوام الحياة)** وقد صدرت في حلقتين، وهي في الأصل محاضرة ألقاها في نادي الترقي بالعاصمة سنة 1932 م وقد غربل فيها جمعية العلماء التي ضمت مشايخ الطرق مع العلماء المصلحين. ونظرا لأهميتها فقد طلب منه تلخيصها فاستجاب ونشرها في العددين 4 و5 من جريدة الشريعة.

- **(الدين والعلم والمال)**، البصائر، وفيها يبين الزغداني الأسس الثلاثة التي يسعد بها الشباب والمجتمع.

- **(من أسباب نكبتنا ضعف تفكيرنا)**، البصائر، وفيها يوضح أسباب ضعف المسلمين وتخلفهم ويرجعه بالأساس إلى "جهل العدو المدمر للبيوت والمخرب لكيان الشعوب".

- **(الأهلية والإخلاص)**، البصائر، وهاتان الصفتان هما شرط نجاح أي مشروع أو مؤسسة.

وصدرت له مقالة - خارج صحف الجمعية - في مجلة الميدان بعنوان:

- **(فأر التربية والتعليم بقسنطينة)**، يبرر فيها استقالته من مدرسة التربية والتعليم بقسنطينة.

وبعد الاستقلال صدرت له عدة مقالات، وهي على النحو الآتي:

- **(هذا هو الشيخ عبد الحميد بن باديس)** جريدة النصر، وهي عبارة عن حديث صحفي أجري مع الشيخ الزغداني بمناسبة الذكرى الثانية والعشرين لوفاة رائد النهضة الإصلاحية بالجزائر.

- **(التربية الحائرة)**، جريدة الشعب، وقد صدرت في حلقتين، وهي عبارة عن حديث صحفي أيضا يتناول شؤون التربية ودورها في حياة الفرد والجماعة.

وهناك نوع آخر من المصادر التي كتبت عن الشيخ الزغداني بعد وفاته، وهو كتاب: **(من أعلام الإصلاح في الجزائر)**، الجزء الثاني، لمؤلفه الأستاذ محمد الحسن فضلاء، سنة 2000 م، وقد عاصر محمد الحسن فضلاء الزغداني سنتي 1933 – 1935 م في فترة دراسته على يد الشيخ عبد الحميد بن باديس، فكان ملازما له وصديقا.

جـــ - تقارير متصرفي البلديات والشرطة الاستعمارية:

لقد شكلت تقارير متصرفي بلديتي أم البواقي المختلطة، وعين البيضاء ذات الصلاحيات الكاملة، والشرطة الاستعمارية، مصدرا هاما للمعلومات التي استقيتها منها، وخاصة ما تعلق منها بالبلديات، وهي عبارة عن معطيات تاريخية وسياسية واجتماعية واقتصادية وثقافية، وتعود إلى فترة الأربعينيات من القرن العشرين. وقد أسهمت هذه المعلومات في تغطية جزء هام من الفصل الأول الخاص ببيئة المصلحين.

د - المقابلات الشخصية:

وقد أجريت العديد من المقابلات الشخصية مع بعض أقارب المصلحين محمد مساس والزغداني، ومع أقرانهما في الحركة الإصلاحية، وبعض تلامذتهما، ومن عايشهما من المجاهدين والمناضلين. وقد أسهمت تلك المحادثات في إنارة جوانب خفية من حياة الشيخين وخصوصا ما اتصل منها بالصفات والمناقب، والدور السياسي والوطني الذي أدياه في الثورة التحريرية الكبرى 1954-1962م.

وتم توظيف هذه المصادر جميعها في الفصلين الثاني والثالث في مجال التربية والتعليم والنشاط السياسي والوطني، وفي المقارنة بين الشخصيتين - موضوع الدراسة - .

ثانيا. المراجع:

تكاد المراجع تكون منعدمة، وهي أقل من التي اعتمدتها في هذه الرسالة لأن هاتين الشخصيتين - موضوع الدراسة - لم يكتب عنهما إلا النزر القليل، ولذلك فقد تم الاعتماد بالأساس على نصوص الرجلين المخطوطة منها والمنشورة. ويمكن أن أشير إلى مخطوطتين حديثتين كتبتا عن الرجلين سنة 1993م من بعض علماء المنطقة وأئمتها الذين كانوا على دراية وإلمام بمسيرتهما الثقافية والاجتماعية والسياسية وهما: **(دراسة واقعية لحياة الإمام الشيخ محمد مساس الإبراهيمي)** لصاحبها الأستاذ حسن رمضان فحلة، و**(رجال في صفحات التاريخ: دراسة حياة الشيخ أبي القاسم الزغداني)** لصاحبها الإمام عمار خليفي. وقد تتبعت هاتان المخطوطتان حياة المصلحين، ورصدت جل نشاطهما عموما. ولعل المرجع الأخير في دراسة حركتي هذين العالمين معاجم الأعلام الوطنية التي أرخت لمسيرة الشخصيات الفاعلة في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر، والتي استلهمت منها بعض المعالجات المنهجية لآثار المصلحين.

ومن الأهمية بما كان أن أشير إلى تاريخ الجزائر الثقافي لمؤلفه الدكتور أبي القاسم سعد الله، والذي يعد موسوعة غنية بالتراجم والمعارف التاريخية والأدبية والفكرية، والذي استفدت كثيرا من مادته المعرفية التي لا غنى عنها لأي باحث في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر.

وصفوة القول أن هذه المصادر والمراجع على الرغم من قلتها إذا ما قورنت بمصادر ومراجع شخصيات علمية معاصرة لهما من جمعية العلماء، فإنها تعطي صورة واضحة عن مسار الرجلين وأعمالهما في الميادين الإصلاحية التربوية منها والاجتماعية والثقافية وحتى السياسية أيضا، وكلها تصب في اتجاه واحد يخدم الدين واللغة والوطن.

مختصرات:

أفردت حيزا خاصا لرصد مصطلحات البحث ومختصراته على النحو الآتي:

أولا. لقد اعتمدت التاريخ الهجري والميلادي، واقتصرت على الثاني عند عدم ورود الأول في المصادر والمراجع.

ثانيا. لقد استعملت في المصادر والمراجع الأجنبية عبارة (Op. cit) بمعنى المرجع السابق، وعبارة(Ibid) بمعنى المرجع نفسه، وعبارة (Loc. cit) بمعنى المكان نفسه (أي المرجع والصفحة)، وعبارة (s. d) بمعنى دون تاريخ، وعبارة (s. n) بمعنى دون ترقيم.

ثالثا. في حالة الاعتماد على أكثر من كتاب لمؤلف واحد، أعيد دائما كتابة اسم المؤلف وعنوان الكتاب.

رابعا. اختصرت عبارة دون تاريخ بـــ (د. ت).

خامسا. لقد أسميت مصدرا كل ما كتب من قبل المصلحين أو ما كتب في عصريهما، أو ما كتب من قبل ذويهما، أو أقرانهما في الحركة الإصلاحية بعد الاستقلال الوطني.

خطة البحث:

يتكون هذا البحث من مقدمة وثلاثة فصول وخاتمة وبيبليوغرافيا وملاحق تتصل بالموضوع اتصالا وثيقا، وفهارس الأعلام والأماكن والأحزاب والجمعيات والصور والآيات القرآنية والأحاديث النبوية.

يتناول الفصل الأول بيئتي المصلحين السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية، وتشكل المباحث في

مجموعها المناخ العام الذي نشأ وترعرع فيه الرجلان محمد مساس الإبراهيمي وأبو القاسم الزغداني. وقد فتح المصلحان أعينهما في ظل تحكم الإدارة الاستعمارية في مقاليد الأمور ومقدرات البلاد فانتشر الجهل والأمية، وتحول الدين إلى مجموعة من الطقوس والأوهام يروج لها المخرفون والدجالون، وتم التضييق على المثقفين والعلماء، وأصبح الشعب يعاني الفقر والجوع والمرض.

أما الفصل الثاني، فقد تطرقت فيه إلى حياة المصلحين وآثارهما، متتبعا نشأة الرجلين وتدرجهما في طلب العلم والمعرفة بدءا بمسقط الرأس ومرورا بالزوايا والاغتراف من حكمة الإمام الشيخ عبد الحميد بن باديس بالجامع الأخضر والمساجد المجاورة في قسنطينة لسنوات طويلة، ثم الانتقال إلى الجامع المعمور بالزيتونة لتتويج المسيرة العلمية بالإجازات المؤهلة للتوجيه والوعظ والإرشاد والإفتاء، ثم تطرقت إلى جهودهما في ميدان التربية والتعليم بعد أن أنهيا المسيرة العلمية، فانطلق المصلحان في العمل المسجدي يقدمان الدروس التوجيهية العامة، ويعقدان حلقات الدرس للشباب والكهول، ويجلسان لإفتاء الناس في أقضيتهم، ويجيبان عن انشغالاتهم الشرعية والاجتماعية والثقافية. وكان لهما دور متميز في متابعة عمل الجمعيات الدينية لبناء المساجد، وتوجيه الناس إلى بناء المدارس، وتأسيس النوادي الثقافية والرياضية، واتخاذها منابر لاستقطاب فئات أخرى من الناس ليست من رواد المساجد بالضرورة، وتنشيط عمل فرق الكشافة الإسلامية وغرس الروح الدينية والوطنية في نفوسهم، كما تتبعت نشاط الشيخين في المجال السياسي والوطني مبينا إسهامهما في توعية الناس وتحسيسهم بوجوب وحدة الصف والكلمة لمواجهة الاستعمار الجاثم على أرض الوطن، وضم الجهود لمؤازرة الوطنيين الذين لبوا نداء الوطن ورفعوا راية تحريره من ربقة الاحتلال.

وأوضحت اندماج الرجلين في العمل الثوري، كل حسب ظروفه وطاقته، كما استعرضت في الأخير آثارهما من مقالات مطبوعة ومخطوطات محفوظة، مع لفت النظر في كل مباحث هذا الفصل إلى أوجه التشابه والاختلاف بينهما.

أما الفصل الثالث فقد خصصته للمقارنة بين المصلحين في مبحثين اثنين تضمن أولهما المقاربة الفكرية والعلمية والتربوية، وثانيهما أفردته للمقارنة بينهما في المجال السياسي والوطني. وقد عالجت في المبحث الأول المضامين الفكرية لكليهما من خلال تشخيص الواقع والرعاية التي أولياها للنشء والجيل الصاعد الذي تعلق

عليه الآمال، وأساليب مقاومة البدع والخرافات، ورؤية كلا الرجلين للدور الفاعل المنتظر تأديته من قبل الشرائح الاجتماعية المختلفة من مثقفين وعلماء وأغنياء وأحزاب سياسية ووطنية، وكيف يرى المصلحان العلاقة بين الأصالة والمعاصرة في الأخذ بأسباب الرقي والتقدم، والمحافظة على الشخصية الوطنية للمجتمع، وفي المبحث الثاني فقد رصدت فيه منهج الرجلين في نظرهما وممارستهما للسياسة وأساليب التغيير والإصلاح، ثم كيفية تفاعل المصلحين مع الكفاءة والأهلية في إسناد الوظائف والمهام لإنجاح المشاريع الوطنية، وتفانيهما وتضحيتهما في خدمة الوطن وإسعاد المواطنين، فقد عالجت كل تلك المباحث بالمقارنة والموازنة بين الرجلين مبديا نقاط التشابه والاختلاف والقوة والضعف.

ولقد ختمت هذا البحث باستعراض النتائج التي توصلت إليها من خلال هذه الدارسة المقارنة بين أعمال المصلحين.

الطالب: محمد مسعي

تلاغمة في: 07 جمادى الثانية 1430هـ

02 مايـــــــــو 2009م

الفصل الأول: بيئتا المصلحين

المبحث الأول: الموقع الجغرافي وتضاريس المنطقة

المبحث الثاني: الحياة السياسيـــــــــة

المبحث الثالث: التطور الاجتماعي

المبحث الرابع: التطور الاقتصادي

المبحث الخامس: التطور الثقافـــــــي

مقدمة:

يتناول هذا الفصل بيئتي المصلحين أبي القاسم الزغداني ومحمد مساس الإبراهيمي، السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية، اللتين نشآ فيهما وترعرعا، فالأول ولد في بلدة عين الزيتون بضواحي أم البواقي، وأما الثاني فقد ولد في بلدة أولاد ابراهم بضواحي رأس الواد ولاية برج بوعريريج. وهو من أسرة يكثر فيها حفظة القرآن الكريم ورجال العلم أمثال أبيه سي علي الإبراهيمي، وقد كان معلما للقرآن ومدرسا بمنطقة الحضنة ولاية المسيلة حاليا، والشيخ محمد المكي الإبراهيمي، والشيخ البشير الإبراهيمي، وغيرهم من فطاحل العلم واللغة العربية. وإذا فموطن محمد مساس ضارب في القدم، إذ يقع في السلاسل الغربية المتفرعة عن جبال الأوراس في الجزء الجنوبي الغربي بمدينة قسنطينة [1]، وقد تلقى تعليمه الأولي في حضن العائلة، ثم انتقل إلى زاوية شلاطة بأقبو لاستكمال تحصيله هناك، وبعدها انتقل إلى قسنطينة ليواصل دراسته بالجامع الأخضر عند الشيخ عبد الحميد بن باديس. وفي سنة 1925م التحق بعين مليلة إماما ومدرسا، وقضى بها ما يربو عن نصف قرن، فكثرت تجاربه، واكتسب الحنكة اللازمة، واكتملت معالم شخصيته في هذه البيئة المحلية الجديدة.

وعليه، فإن البيئة التي سأدرسها في هذا الفصل هي بيئة أم البواقي، وهي بيئة الرجلين المصلحين معا، بحكم أنّ (المرء ابن بلدته لا ابن جلدته)، كما تنص عليه الحكمة الاجتماعية، فإن المرء إذا نشأ في قوم لا يجمعهم به عرق نسب، ينشأ كواحد منهم، ولو باعـــدت بينهم وبينه الخصائص الجنسية والدموية [2]، علاوة على أن محمد مساس قد قضى جل حياته في هاته المنطقة خدمة للدين والعلم والوطن.

المبحث الأول: الموقع الجغرافي وتضاريس المنطقة

لقد قسمت السلطة الاستعمارية البلاد إلى ثلاث عمالات في الشمال ومنطقة عسكرية في الجنوب، أما العمالات فهي: الجزائر، قسنطينة، وهران. وقسمت كل عمالة إلى دوائر، وكل دائرة إلى بلديات والبلدية ثلاثة أنواع وهي: البلديات ذات الصلاحيات الكاملة Communes des plein- exercices والتي

(1) تركي رابح عمامرة: جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التاريخية (1931-1956 م)، ط1، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر: 2004 م، ص. 170.

(2) محمد البشير الإبراهيمي: الآثار، جمع وتقديم أحمد طالب الإبراهيمي، ج4، ط1، دار الغـــرب الإســـلامي، بيروت-لبنان: 1997م، ص. 389.

نشأت مع بداية الإدارة الفرنسية في الجزائر، أما النوعان الآخران فهما البلديات المختلطة Communes mixtes، والبلديات الأهلية أو المحدودة، فقد ظهرت بعد عام 1868م، أما الأرياف فقد كانت تحكم بواسطة المكاتب العربية منذ 1848م.

أ- البلديات ذات الصلاحيات الكاملة: بلغ عددها 183 بلدية عند قيام الثورة سنة 1954م. وهي مؤسسة إدارية راقية تشبه البلديات في الوطن الأم فرنسا إلى -حد كبير- وتوجد في المناطق الحيوية التي يكون فيها عدد المستوطنين مرتفعا [1].

ب- البلديات المختلطة: وهي مؤسسة إدارية فريدة من نوعها ليس لها مثيل لا في فرنسا ولا في مستعمراتها، وكان عددها 78 بلدية، وتوجد بالمناطق التي يقل فيها العنصر الأروبي.

جـــ- أما البلديات الأهلية فقد بلغ عددها 63 بلدية عشية الثورة التحريرية. وقد طبق هذا النوع في الجنوب الجزائري (المنطقة العسكرية). ويرأسها الضباط العسكريون بمساعدة القائد والباشاغا، واستحدثت فيها رتب جديدة مثل (شيخ العرب) أو (الخليفة). ويدعم سلطة الحاكم فيها مجلس أهلي يسمى (مجلس الجماعة) يعينه الحاكم العام. وقد حافظ هذا المجلس على نظامه وشكله طيلة الفترة الاستعمارية [2].

هذا، وقد خضعت أم البواقي بيئة المصلحين المعنيين بالدراسة إلى نظام البلديات المختلطة، وقد كانت تابعة إقليميا وإداريا لدائرة قسنطينة –عمالة قسنطينة، وفيما يأتي نبذة عن البلدية.

يعود تاريخ تأسيسها إلى سنة 1880م، حيث شكلت من عشرة أقاليم (دواوير) وكلها من الحراكتة، وإقليمين من عرش سلاوة (بضواحي تاملوكة) وتقع في الهضاب العليا الواقعة بين جبال قالمة شمالا والأوراس جنوبا على ارتفاع متوسط يقدر بـــألف متر. وتحدها جنوبا أحواض سبخية على مساحة ثلاثين ألف هكتار. ويمتد الوعاء العقاري للبلدية على مسافة خمسة وسبعين كلم من الشمال إلى الجنوب، وخمسة وأربعين كلم من الشرق إلى الغرب. وتعد كانروبير مركز البلدية وتبعد بـــ خمسة وثمانين كلم عن قسنطينة. وتتبع قضائيا قالمة

(1) عبد الكريم بو صفصاف: الفكر العربي الحديث والمعاصر، محمد عبده وعبد الحميد بن باديس نموذجا، ج1، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة–الجزائر: 2005م، ص. ص. 57 – 58.

(2) مرجع نفسه، ص. ص. 59-61.

التي تبعد عنها بـــ مئة كلم [1].

تحدها شمالا بلدية عين عبيد، واد الزناتي، واد الشارف، ومن الجنوب بلديتا خنشلة وعين القصر، ومن الغرب والجنوب الغربي بلدية عين مليلة وتبلغ مساحتها 241100 هكتار أي حوالي 4000 كلم^2.

يتميز مناخها القاري بالبرودة شتاء، والحرارة صيفا، ويتراوح المدى الحراري السنوي من 03 إلى 30 درجة مئوية، وتقل بها الأمطار كلما اتجهنا جنوبا.

ويتراوح ارتفاع سهولها ما بين 800 إلى 1000م، ومن أهم جبالها: جبل سيدي ارغيس 836م، والفجوج 1261م، وسلاوة 1186م، والطارف 136م وقليف 1150م، وحميمات 1037م.

أما الأودية فهي قليلة بهذه البلدية، ولا يزيد عددها عن أربع فقط وهي: واد دحمان، واد الواسعة، واد ملوك، واد مبدوعة وكلها دائمة الجريان. وتنبع من واد الشارف الذي يصب بدوره في واد سيبوس. هذا، علاوة على وجود العديد من الآبار التي بلغ عددها 53 بئرا لتزويد السكان والمواشي بالماء الشروب. ومع ذلك فإن حاجة السكان إلى هذه المادة الحيوية ظلت تتزايد باستمرار مما جعل السلطات المحلية تحاول سد حاجاتهم عن طريق نقل المياه من مناطق أخرى بواسطة الصهاريج.

أما عدد سكان هذه البلدية فقد بلغ سنة 1941م 36341 نسمة، منهم 594 من أصول فرنسية، و31 أجنبيا و35716 أهليا [2].

هذا، عن بلدية أم البواقي المختلطة في العهد الاستعماري، وأما عن وضعها الحالي أي بعد الاستقلال الوطني، فهي تختلف تمام الاختلاف من الناحية الإدارية والسكانية عما كانت عليه من قبل.

وظلت أم البواقي بلدية كسائر بلديات القطر الجزائري منذ سنة 1962م حتى التقسيم الإداري الجديد سنة 1974م، حيث رقيت إلى ولاية تشتمل على اثنتي عشرة دائرة، وتسع وعشرين بلدية. ويتراوح ارتفاعها

---

(1) L'administrateur de la commune mixte d'Oum El Bouaghi: "monographie administrative", archives historiques de la wilaya de Constantine, Canrobert: 5 Septembre 1941, p. 1.

(2) Ibid, p. p. 2-6.

على مستوى سطح البحر بـــ 800م وتتربع على مساحة إجمالية تقدر بـــ: 6187. 56 كم مربع، يحدها من الجنوب ولاية خنشلة ومن الجنوب الشرقي ولاية تبسة وولاية باتنة من الجنوب الغربي، فيما يحدها من الشمال الغربي ولاية ميلة وقسنطينة شمالا ومن الشمال الشرقي ولايتا قالمة وسوق أهراس، وهذا الموقع الجغرافي الهام أعطى الولاية خصائص جيولوجية ومناخية مميزة تمثل فيها السهول والتلال نسبة 63,80 % من المساحة الكلية، وتمثل الجبال نسبة 17,30 % أما المساحة المتبقية فتقدر بـــ: 18. 90 %. وهي عبارة عن أراض صالحة للزراعة. ويقدر عدد سكان الولاية بـــ: 602. 904 نسمة [1].

(1) ولاية أم البواقي: نشرية، مطبعة ولاية أم البواقي: 2007 م.

المبحث الثاني: الحياة السياسية

يعود تاريخ الإنسان الأول لمنطقة أم البواقي حسب البقايا الأثرية القديمة في العديد من مدن ولاية أم البواقي منها: سيقوس، قصر الصبيحي عين الزيتون، سوق نعمان والضلعة إلى حقبة ما قبل التاريخ. وما وجود العديد من الرماديات – الحلزونيات – إلا دليل على عمق تاريخ المنطقة وسكانها. وقد أثبتت الدراسات والشواهد المادية أنهم كانوا يعيشون على الصيد وبعض المنتجات الزراعية، وقد أكدت ذلك أيضا دراسات الأستاذ VALLOIS سنة 1971م، على الحفريات المكتشفة سنة 1954م من طرف GLAPLACE بمنطقة فايت سوار(كانروبير- CANROBERT) والمتمثلة في جمجمة إنسان يفترض أنها لجنس مؤنث يتراوح عمرها مابين 18 و25 سنة يعود تاريخها إلى 7000 سنة، وهذا دليل إضافي على وجود الحياة البشرية بالمنطقة آنذاك. وتدل الحفريات - المتواجدة بأم البواقي - على أنها كانت قاعدة خلفية لفرسان الملك ماسينيسا المتمركز بالعاصمة سيرتا [1].

لقد شهدت منطقة أم البواقي تغيرات مختلفة بعد احتلال تيفست – تبسة – من قبل القوات البونيقية، وحتى ولو لم يمتد نفوذ قرطاجة إلى المنطقة فقد عرفت الغزو الروماني الذي ترك أثرا جليا في نوميديا، وأصبحت هذه الناحية بمثابة خزان هام للقمح المصدر إلى أوربا. كما عرفت المنطقة الاحتلال الوندالي (430 - 593)م. وقد حارب البربر الوندال واستعادوا منهم تمقاد، بغاي، عين البرج وسيقوس، وعاد السكان الذين حوصروا بالأوراس من جديد إلى المراكز الهامة مثل سيقوس وماكومداس وبغاي وعوضت ماسكولة (خنشلة) وتيفست بقسنطينة إثر قدوم البيزنطيين (533 – 710)م، وعند مجيء الفتح الإسلامي للمنطقة جوبه المسلمون بمقاومة عنيفة من قبل البربر بقيادة الكاهنة حوالي ثلث القرن من الزمن [2]. وبدخول سكان هذه المنطقة الإسلام، انتهت المقاومة في الشرق الجزائري، وانتشر الإسلام في كل ربوع الوطن.

وفي نهاية القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي أدت سياسة الهلاليين في المنطقة إلى انتشار المجاعة والأوبئة والأمراض المختلفة طيلة القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي. وقد تحققت وحدة المغرب العربي في

(1) ولاية أم البواقي: نشرية، مطبعة ولاية أم البواقي: 2006 م.
(2) مرجع نفسه.

القرن الثاني عشر سنة 1160م على يد الموحدين، ومع أن المغرب الإسلامي قد تم توحيده على يد الموحدين في القرن 6هـــ/12م، فإنهم لم يتمكنوا من إصلاح ما خربه الهلاليون مثل تيجدة، بغاي ومسكيانة، نتيجة لشدة المقاومة وطول مدتها الزمنية.

وبعد سقوط دولة الموحدين ومجيء العثمانيين في القرن السادس عشر، عرفت المنطقة ركودا عاما كبقية المناطق الداخلية في البلاد. وعاش سكان منطقة أم البواقي في ظل حكم القبائل والأعراش في غياب سلطة مركزية مباشرة حتى مجيء الاحتلال الفرنسي في مطالع الربع الثاني من القرن التاسع عشر، حيث سميت أم البواقي بـــ: كانروبير (CANROBERT) سنة 1904م نسبة إلى الماريشال فرنسوا مرسلان كنروبير[1].

وقد عرفت المنطقة العديد من الهجرات في الفترة الاستعمارية منذ نهاية القرن التاسع عشر ومطالع القرن العشرين لعدة أسباب أهمها:

1- الفرار من القمع والاضطهاد اللذين مورسا على السكان من قبل سلطات الاحتلال.

2- الفرار بالدين واللغة من وجه الرومي.

3- التضييق على الأهالي اقتصاديا، ثقافيا واجتماعيا.

وقد تمت هذه الهجرة تزامنا مع الهجرات الأخرى التي عرفتها بعض مناطق الوطن الأخرى مثل سطيف، قسنطينة وتلمسان وغيرها [2]. ولمواجهة الاستعمار الذي طال أمده، اعتمدت المنطقة على غرار بـــاقي التراب الوطني النضال السياسي بمختلف أساليبه وأشكاله، ومن جملتها تحرير مقالات سياسية في جرائد ومجلات جمعية العلماء المسلمين، والانخراط في الأحزاب السياسية الوطنية، وإنشاء المدارس والنـــوادي، والمشاركة في الحركة الإصلاحية التي قادتها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بحكم أن كثيرا من طلبـــة المنطقة كانوا من روادها ومناصريها. وعموما فقد اندمجت المنطقة في المســـار الوطـــــني المقـــــاوم

(1) ولاية أم البواقي: "نشرية"، مرجع سابق: 2006م.

(2) أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج5، ط1، دار الغرب الإسلامي، بـــيروت-لبنـــان: 1998 م، ص. 477.

والرافض للاستعمار الفرنسي طوال الحركة الوطنية إلى غاية إعلان ثورة الفاتح من نوفمبر 1954م، حـــين عرفت المنطقة نشاطا مكثفا بحكم انتمائها للأوراس (الولاية الأولى)، وباعتبارها منطقة عبور باتجاه الحدود الشرقية: تبسة، سوق أهراس لجلب الأسلحة. ولقد شهدت منطقة أم البواقي معارك عديدة طاحنة بين جنود جيش التحرير الوطني وقوات الاحتـــلال الفرنسي أهمها: معركة الجحفة(*) ومـــــــعركة عـــــــــرار (**) ومعارك الطارف (***) الأربع، ومعركة مزوزية (****) ومعركة الشبكة (*****) ومعركة قريون(******)، وغيرها من المعارك البطولية المشرفة للوطن عامة والمنطقة خاصة، وقد بلغ عدد شهدائها أكثر من 1700 شهيد.

(*) وقعت بين حدود قالمة وأم البواقي في 1955/09/01م، بقيادة شعبان لغرور (أخ عباس لغرور)، ودامـــت يوما واحدا، وشارك في هذه المعركة 150 جنديا من جيش التحرير، واستشهد فيها عدد كبير منهم. **يُنظر، مصلحة التراث، مديرية المجاهدين لولاية أم البواقي.**

(**) وقعت في مشتة الشراشر، بلدية عين الزيتون في 1956/06/24م، بقيادة الأبطال الثلاثة: محمد بن الدراجي وصالح الأوراسي وعلي فاضلي، ودامت يوما واحدا، وشارك فيها 300 جندي من جيش التحرير، جلهم من منطقة الأوراس واستشهد فيها 80 مجاهدا، أحرقت جثثهم بالمطار العسكري بـــ عين الزيتون. **يُنظر، مصلحة التـــراث، مديرية المجاهدين لولاية أم البواقي.**

(***) أهمها: عين الصرابة، في 1958/01/24م، ومنطقة العيون في فيفري 1958م ودامت 5 ساعات، وقد شارك فيها 120 مجاهدا، وكان من نتائجها استشهاد 18 جنديا. **يُنظر، مصلحة التراث، مديرية المجاهدين لولاية أم البواقي.**

(****) وقعت في سلسلة جبلية بين تبسة ومسكيانة، في يومي 26 و27 فيفري 1958م، بقيادة الرائد عمـــار الراجعي (من مسكيانة) قائد المنطقة الرابعة وعضو مجلس الولاية الأولى، وعضو المجلس الوطني للثورة، شارك فيهـــا 118 جنديا واستشهد فيها 45 من أعضاء جيش التحرير، أما القائد عمار راجعي فقد استشـــهد في 1960م في الحدود التونسية. **يُنظر، مصلحة التراث، مديرية المجاهدين لولاية أم البواقي.**

(*****) وقعت في 1958/03/27م بقيادة القائد البطل محمد فنطازي المدعو حقاس (من مواليد 1926م بـــ سيدي معاش - قصر الصبيحي)، دامت يوما واحدا، وقد شارك فيها 70 مجاهدا واستشهد منـــهم 13. **يُنظـــر، مصلحة التراث، مديرية المجاهدين لولاية أم البواقي.**

(******) وقعت في منطقة عين كرشة سنة 1958م بقيادة ثلاثة أبطال وهم لخميسي بوقرن الســـعيد بـــروال وعلاوة بوقادي، ودامت يومين، وقد شارك فيها 164 مجاهدا، استشهد منهم5. **يُنظر، مصلحة التراث، مديريـــة المجاهدين لولاية أم البواقي.**

وقد أنجبت المنطقة العديد من القادة التاريخيين أمثال الشهيد البطل العربي بن مهيدي (*) ومحمد فنطازي المدعو حقاس، والحاج علي حامدي، والحركاتي بن زاوي، وشعبان لغرور، والرائد عمار راجعي، ومحمد بن الدراجي، وصالح الأوراسي وعلي فاضلي وغيرهم من أبطال الثورة التحريرية المظفرة.

(*) ولد عام 1923م في عين مليلة ولاية أم البواقي، من عائلة فلاحية متوسطة، ناضل في صفوف حزب الشعب، وأصبح من كوادر تنظيمه المسلح. واعتقل بعد مجازر 8 ماي 1945م، واتهم في قضية المنظمة الخاصة سنة 1950م، وحكم عليه -غيابيا- بعشر سنوات وهو عضو مؤسس للجنة الثورية للوحدة والعمل، وقائد منطقة وهران. تخلى عن هذه القيادة لـــ عبد الحفيظ بوصوف بعد مؤتمر الصومام سنة 20 أوت 1956م، وعين في هذا المؤتمر عضوا في لجنة التنسيق والتنفيذ. واعتقل من طرف قوات "الكولونيل بيجار" يوم 23 فيفري 1957م، واستشهد بن مهيدي تحت التعذيب دون أن يدلي بأي اعتراف، ونال بذلك إعجاب العدو قبل الصديق. **ينظر حميد عبد القادر، فرحات عباس، دار المعرفة، باب الوادي – الجزائر: 2007 م، ص. ص. 301 – 302.**

المبحث الثالث: التطور الاجتماعي

عاش المجتمع الجزائري قبل الاحتلال الفرنسي في وئام وانسجام، تسود طبقاته المختلفة، الطمأنينة والهدوء والقناعة، رائده الإيمان والتمسك بالشخصية الدينية والوطنية. وقد أشاد بهذا الانسجام كثير من المؤرخين الأجانب أمثال وليام سبنسر في كتابه: (الجزائر في عهد رياس البحر).

وبعد الاحتلال الفرنسي للجزائر، اختل النظام الاجتماعي، وظهرت إلى الوجود مجموعتان جديدتان:

أ- المجموعة الفرنسية: وتتشكل من مجموع الجنسيات الأوربية يجمع بينها اللغة الواحدة والمصالح المشتركة وقد دعمت بكل الإمكانات المادية والقانونية.

ب – المجموعة الجزائرية الإسلامية: والتي تحطمت مؤسساتها وهياكلها وتدهورت بنيتها الاجتماعية والاقتصادية [1].

فتفاقمت أزمة ندرة المواد الغذائية عند أوسع الجماهير الشعبية، يضاف إليها انتشار الأوبئة الفتاكة التي كانت تغزو الناس من حين لآخر، دون أن يجد السكان دعما ماديا أو معنويا أو صحيا من قبل إدارة الاحتلال، على الرغم من التزامهم بدفع الضرائب المجحفة [2].

والواقع أن منطقة أم البواقي في ظل الاحتلال الفرنسي كان سكانها يتكونون من قبائل الحراكتة الشاوية وهي الأغلبية، ومن قبائل سلاوة التي تنحدر من أصول قبائلية (ببلاد القبائل) والذين هجَروا على إثر مقاومة المقراني [*] سنة 1871م، ومن مجموعة أروبية يقدر عدد أفرادها بـــ: 594 فرنسيا و31 أروبيا.

---

(1) عبد الكريم بو صفصاف: "الفكر العربي الحديث والمعاصر"، مرجع سابق، ص. ص. 100-105.

(2) أحمد بن بلة: المذكرات، ترجمة العفيف الأخضر، ط3، دار الأدب، بيروت – لبنان: 1981م، ص. 42.

(*) ولد بمنطقة مجانة ولاية برج بوعريريج، ولا يعرف تاريخ ميلاده. وبعد وفاة والده الخليفة أحمد المقراني ســـنة 1853م، عينته السلطات الاستعمارية خلفا لأبيه برتبة "الباشاغا". وقد برزت شخصيته بين السكان لما أبداه مـــن نشاط وحيوية في عمله، وبعد تعاظم نفوذه توجست منه سلطات الاحتلال خيفة فسحبت منه بعض الدواوير الـــتي كان يشرف عليها، وتسرب الفشل إليه بسبب المضايقات وإضعاف مركزه وامتيازاته، فقرر تقديم استقالته عند حلول عام 1871م. ثم دعا أقرباءه إلى اجتماع عام وتدارس معهم الوضع وأعلن الثورة ضد سلطات الاحـــتلال بأربعـــة آلاف محارب ونجح في استمالة شيخ زاوية صدوق الرحمانية الحداد وأتباعه إلى صفه، وحاصر المقراني مدينـــة البويرة

وتعيش قبائل البلدية على الزراعة وتربية المواشي كالأغنام والماعز والأبقار [1]. ويرى توفيق المدني[2] في مؤلفه (كتاب الجزائر) أن العرب والبربر ينحدرون من سلالة واحدة، وقد هاجم المؤرخين الأروبيين الذين يعملون على ترسيخ فكرة مفادها تحويل البربر عن أصلهم الآسيوي إلى الأصل الأروبي.

وقد كان العلماء المصلحون في حركتهم التعليمية، وفي دفاعهم عن الوحدة العربية للجزائر، لا يفرقون بين السكان، ويرون أن العربي هو كل من يتكلم اللغة العربية، استنادا إلى قوله ﷺ: **(والعربية لسان ومن تكلم العربية فهو عربي)**[*] [3].

هذا، وإذا انتقلنا إلى البلدية المجاورة لأم البواقي، وهي بلدية عين البيضاء، والتي تعد جزءا هاما من أجزاء هذه المنطقة عامة ماضيا وحاضرا، فإننا نجدها تتربع على مساحة 18. 573 هكتارا خلال العهد الاستعماري. وقد بلغ عدد سكانها حسب إحصاء عام 1948 م 16. 444 نسمة منهم 980 فرنسيا و53 أروبيا؛ وتقدر الكثافة السكانية بـــ: 88 نسمة في الكلم^2.

بقواته ففرض عليها الحصار ولكنه أخفق في اقتحامها. وعندما خفت المواجهات بين المعسكرين، اغتنم الفرصة ليؤدي صلاة الظهر مع رفاقه، وبينما هو كذلك، رماه جنود زواوة بأربع رصاصات أصابته في جبهته فسقط شـــهيدا في 5 ماي 1871م، ودفن في مسقط رأسه في قلعة "بني عباس". وهكذا اختفى المقراني من الميدان بسرعة بعـــد واحـــد وخمسين يوما فقط من بداية ثورته. **ينظر، د. عبد الكريم بو صفصاف وآخرون: "معجم أعلام الجزائر في القرنين 19 و20"، ج2، دار الهدى، عين مليلة-الجزائر: ربيع الأول 1425هـــ/مـــاي 2004م، ص. ص. 337-338.**

(1) L'administrateur de la commune mixte d'Oum El Bouaghi; "monographie administrative", archives historiques de la wilaya de Constantine, Canrobert: s. d, s. n.

(2) أحمد توفيق المدني: كتاب الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر: 1984م، ص. 300.

(*) رواه ابن عساكر عن أبي سلمة بن عبد الرحمن مرسلا (كما في: كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال لمؤلفه: علي بن حسام الدين المتقي الهندي: ج12 ص47)، ونص الحديث كاملا: (يا أيها الناس ! إن الرب رب واحد وإن الأب أب واحد وإن الدين دين واحد، وليست العربية بأحدكم من أب ولا أم فإنما هي اللسان، فمن تكلم العربيـــة فهو عربي)

(3) عبد الكريم بو صفصاف: جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وعلاقاتها بالحركات الجزائرية الأخرى 1931-1945م، المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والإشهار، الرويبة-الجزائر: 1996م، ص. 134.

يعد مركز عين البيضاء، 16444 نسمة، منهم 933 فرنسيا.

بالإضافة إلى عنصر اليهود الذين كانوا يمثلون نسبة هامة من سكان البلدية. أما السكان المسلمون فإن أغلبيتهم من الحراكتة (الشاوية) وهم الوافدون من الجنوب منذ أقدم العصور، وأما لغة التخاطب فهي الشاوية والعربية. أما النسيج العمراني الذي تتكون منه هذه البلدية فقد كانت المساكن مبنية بالحجارة ومغطاة بالقرميد بمركز المدينة. وأما في أرياف البلدية فقد كان الأهالي يعيشون في أكواخ مبنية بالطين والحجارة ومغطاة بالديس وتشكل النسبة العالية.

ويلاحظ أن سكان الأرياف غير متعلمين، يغلب عليهم طابع الغلظة والقسوة في التعامل؛ أما مسلمو مركز البلدية فهم أكثر تحضرا وتعليما، كان يحاول العديد منهم الاقتداء بالتقاليد الأوربية، لكن على مستوى المظهر والشكل؛ وهو نوع من الاندماج السطحي ولا ينفذ إلى الأعماق [1].

أما الهجرة من البلدية وإليها، فقد تميزت على المستوى الداخلي بالضآلة وغالبا ما كان المهاجرون إليها من الميزابيين والتونسيين بقصد ممارسة التجارة كالبقالة وتجارة الأقمشة ونحو ذلك. أما على المستوى الخارجي فإن الهجرة كانت نحو الجزائر العاصمة وفرنسا بحثا عن العمل لكسب القوت، ولكنها كانت هجرة ضئيلة هي الأخرى [2].

و أما مستوى المعيشة في البلديتين معا – عين البيضاء وأم البواقي – فقد كان متدنيا للغاية وخصوصا في فترة الجفاف. وتدعي إدارة الاحتلال أنها كانت تضطر في مثل هذه الحالات إلى تقديم يد المساعدة للسكان المسلمين من المعوزين، غير أن الحقيقة والواقع عكس ذلك تماما، بحيث مافتئ الاستعمار يقدم الوعود المعسولة للجزائريين، المرحلة بعد المرحلة والحكومة بعد الحكومة، ومشروع الإصلاحات يتبع بمشاريع أخرى إلى غاية الثورة التحريرية، ولم يعمد - قط - إلى تحسين الأوضاع المعيشية للسكان، ولا وضعيتهم التعليمية أو الوظيفية، بل هو المتسبب في التخلف الحضاري الذي آل إليه وضع الجزائريين بصفة عامة، إذ كان المستوى

(1) L'administrateur de la commune de plein –exercice d'Ain Beida: "monographie administrative", archives historiques de la wilaya de Constantine, Ain Beida: 6 septembre 1954, p. p. 1-2.

(2) Ibid, p. p. 3-4.

الثقافي والحضاري أحسن بكثير قبل الاحتلال بشهادة الباحثين والمؤرخين الأروبيين أنفسهم، وفي ذلك يقول الجنرال (فيالار Fialar) [1] سنة 1836م: (إن العرب يتقنون كلهم القراءة والكتابة وفي كل قرية كانت توجد مدرستان، وكان عدد المدارس يناهز ألفي مدرسة).

وقد شهدت الجبهة الاجتماعية غليانا وتوترا ازداد حدة عقب احتفال فرنسا بالذكرى المئوية للاحتلال (1830 – 1930م). وأصبح الجزائريون منذئذٍ يجاهرون بمشاعرهم الوطنية المناهضة للاحتلال، وقد تمثل ذلك في مقاطعة البضائع الفرنسية اقتداء بمذهب غاندي السلمي - في الهند – في مقاومة الاستعمار البريطاني، وفي الوقت ذاته لجأ أعيان قسنطينة إلى مقاطعة (العيد الوطني) الفرنسي خلال 14 جويلية 1933م وأعادوا بطاقات الدعوة إلى إدارة الاحتلال، كما انسحب الجزائريون من الجمعيات الرياضية الفرنسية، وشكلوا جمعيات أهلية نافسوا بها الفرنسيين، واتخذت السلطات الاستعمارية مواقف عدائية تجاه الوطنيين، ومنها غلق مدرسة سيدي بلعباس الحرة وطرد معلمها [2]، وتعطيل مدرسة دار الحديث بتلمسان يوم 01 جانفي 1938م، وزعم القرار أن التعطيل خاص بالتعليم الابتدائي، ولا يشمل دروس الشيخ الإبراهيمي وفي ذلك يقول [3]: (في أول جانفي وهو يوم التهادي والتواصل واجتماع القلوب على السرور بين الغربيين خرج قرار تعطيل دار الحديث، فجاء بدعة التحف في هدايا الموسم).

وتعزو بعض التقارير الفرنسية عدم الاستقرار إلى الصعوبات الاقتصادية المتمثلة في الانخفاض في أسعار المواد الفلاحية، وانهيار سوق الحبوب بالإضافة إلى ارتفاع نسبة البطالة، وتعطل المشاريع العامة التي ابتدئ فيها منذ سنة 1921م .

وبعد الفشل الذي مني به المؤتمر الإسلامي الجزائري العام لسنة 1936م، دعت النخبة سنة 1937م جميع الجزائريين العاملين في المجالس المحلية إلى الاستقالة الجماعية، فاستجاب لذلك كثير منهم في الشرق الجزائري خاصة. وأمام هذا الوضع دعا الحاكم العام (كارد) النواب إلى التراجع عن الاستقالة، ووعد

(1) عبد الكريم بو صفصاف: "الفكر العربي الحديث والمعاصر"، مرجع سابق، ص. 128.

(2) أبو القاسم سعد الله: "الحركة الوطنية الجزائرية"، ج3، ط4، دار الغرب الإسلامي، بيروت-لبنان: 1992م، ص. ص. 37-38.

(3) محمد البشير الإبراهيمي: "الآثار"، ج1، مصدر سابق، ص. 313.

بإصلاحات منها: تحسين الوضع الاجتماعي، إعادة النظر في قانون الغابات وتوزيع الإعانات على الفلاحين، وإعادة فتح المساجد في وجه العلماء المصلحين. ولكن مماطلة الحكومة الفرنسية، وعدم قدرتها على تطبيق الإصلاحات الجزائرية، جعلت العلماء يغيرون مسارهم، ويرفضون تحمل مسؤولية المؤتمر الإسلامي [1].

وهكذا، لم تتحقق الوعود التي وعدت بها الجبهة الشعبية، وأودع زعماء الجزائر السجون، وفشلت بذلك كل الحكومات المتعاقبة، و لم تستطع النفاذ إلى صميم القضية الجزائرية، لأن النظرة الاستعمارية والمعاملة ظلت واحدة موحدة، وبالتالي لم يتغير شيء [2].

وإذا كنت قد عرجت على بعض الأحداث الوطنية الهامة، فإن ذلك كان بهدف ربط منطقة أم البواقي بالمسيرة الوطنية الشاملة، لأننا لا نستطيع أن نفصل الحركة الوطنية في منطقة الدراسة كلية عن المسار العام للتطور الوطني في البلاد، فإذا تحدثنا عن المؤتمر الإسلامي وجمعية العلماء أو الحزب الوطني – نجم شمال إفريقيا وحزب الشعب الجزائري والنخبة- فإن تلك الحركات كانت شاملة في كل أنحاء القطر، وليست خاصة بمنطقة معينة. ومن هنا فإن التأريخ لإقليم معين بعيدا عن باقي الأقاليم الوطنية الكبرى يصعب تمييزه بشكل واضح عن الأحداث الكلية التي تقع في مختلف أنحاء الوطن.

(1) أبو القاسم سعد الله: "الحركة الوطنية الجزائرية"، ج3، مرجع سابق، ص. 39.

(2) مرجع نفسه، ص. ص. 54-56.

المبحث الرابع: التطور الاقتصادي

لقد تعرضت الجزائر عقب الاحتلال إلى هزات سياسية واجتماعية واقتصادية مع ما صاحب ذلك من قسوة واضطهاد مارسهما المستعمر كسياسة متبعة لقمع الجزائريين وإجهاض كل محاولة للتمرد والثورة، وتوالت النكبات والكوارث الطبيعية على البلاد، مما حول الجزائريين إلى طبقة محرومة وبائسة، ومنطقة أم البواقي شأنها في ذلك شأن باقي مناطق الوطن، حيث عانت هي الأخرى من ويلات الاستعمار، وما نتج عن ذلك من فقر وجهل ومرض؛ وقد صور مترجمنا أبو القاسم الزغداني في مقال هذه الوضعية بقوله: (وعلاوة على هذه المفنيات الثلاثة (الجهل، الفقر والمرض)، (وجد الشعب نفسه) محاطا بسياج من حديد من الإهانات والاحتقار، والاستغلال والقهر والذل من طرف مسؤولي الاستعمار؛ فكان الشعب وسط هذه الوضعية – محتما عليه – أن يجمد ويخمل ويزهد في العلم، وفي كل شيء، حتى في الحياة) [1].

لقد نتج عن العمليات العسكرية التي شنها الجيش الفرنسي عام 1857م في بلاد القبائل، تهديم البنيات الاجتماعية والاقتصادية للسكان، ومنها: الاغتصاب الجماعي للملكية الفلاحية، والاستيلاء على الموارد الاقتصادية، ومصادرة الأوقاف، وأملاك البايلك، وتهجير الفلاحين من الأراضي الخصبة، حيث بلغ عدد الأسر التي أبعدت عن أملاكها 5232 أسرة من بين ما مجموعه 8822 أسرة أي ما يقرب من الثلثين. وبصورة عامة فإن المصادرة، سواء كانت جماعية أو فردية (لسبب أو لآخر)، إجراء إداري يمنح الأرض للكولون [2].

بالإضافة إلى ذلك، تم تحطيم الصناعة المحلية، فلم يبق إلا بعض المدن القديمة مثل تلمسان وقسنطينة اللتين ظلّتا تمارسان بعض الصناعات التقليدية [3]، وتقويض دور الأسواق في تنشيط التجارة، وهلاك الحيوانات، فازدادت النكبات، واضطربت أحوال الناس من سيء إلى أسوأ. ففي عام 1864م، غزت أسراب الجراد البلاد، وازدادت حدتها في مطلع عام 1866م حتى عرف (بعام الجراد) والتهم كل ما وجده في طريقه من

---

(1) أبو القاسم الزغداني: "هذا هو الشيخ عبد الحميد بن باديس"، جريدة النصر، قسنطينة: 1972/04/15 م، ص. 5.

(2) الجيلالي صاري، محفوظ قداش: المقاومة السياسية 1900-1954 م، ترجمة: عبد القادر بن حراث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر: 1987 م، ص. ص. 124-127.

(3) عبد الكريم بو صفصاف: "الفكر العربي الحديث والمعاصر"، مرجع سابق، ص. 86.

خضر وثمار، و لم يتضرر الأروبيون من ذلك لامتلاكهم وسائل الوقاية [1].

وبالموازاة مع مقاومة الجراد، ظهرت الأمراض والأوبئة الفتاكة مثل الكوليرا بشكل محدود في بادئ الأمر سنة 1866م، ثم اشتد خطره عام 1867م، كما ظهر أيضا مرض التيفوس. ونتج عن ذلك موت الجزائريين بالجملة، مما اضطرت السلطات الاستعمارية السكان إلى حفر خنادق عميقة لدفن الموتى، وقدر عدد الضحايا آنئذ بحوالي 150 ألف شخص.

وعم الجفاف والقحط، وقلت المحاصيل الزراعية والغذائية، وفنيت المواشي وخاصة في الهضاب العليا، وتفشت إثر ذلك المجاعة في البلاد، بحيث أصبح الناس يِؤرخون ذلك بـــ (عام الشر)، فأكلوا جذور الحشائش وأوراق الأشجار والكلاب والحيّات. وأقدم بعض الأهالي على ارتكاب جرائم القتل والسرقة لضمان لقمة العيش اليومي داخل السجون والمعتقلات. وأعطيت الأوامر لإنشاء محتشدات لهؤلاء المرضى المحاويج في مليانة والأصنام وغيليزان، بلغ عددهم 540 ألف شخص و لم يجمع هؤلاء – في الحقيقة – لإسعافهم، وإنما لتوفير الأمن والوقاية للأروبيين. ففي عمالة قسنطينة مات 160 ألف شخص، بينما تجاوز عدد الموتى في عمالة وهران 100 ألف شخص. ومن مظاهر هذه المجاعة أن الفلاحين الجزائريين عجزوا عن توفير البذور لفلاحة أراضيهم، واكتفت السلطات الاستعمارية –حيال ذلك – بتوجيه نداء للعائلات الغنية لمساعدة صغار الفلاحين ومنهم المقراني [2].

ومن الأعيان الذين قدموا المساعدات المالية للسكان في قسنطينة أثناء المجاعة (1862 - 1869م) مكي ابن باديس جد الشيخ عبد الحميد بن باديس، الذي كان قاضيا بقسنطينة وعضوا في المجلس البلدي، وكان محل إعجاب وتقدير السكان بسبب موقفه الإنساني المشرف والتعاطف الذي أبداه غداة الفاقة التي ألمت بهم [3].

وقد استغل اليهود المجاعة عامي 1868 و1869م لتنمية ثرواتهم وأرباحهم عن طريق القروض الربوية

---

(1) يحي بوعزيز: كفاح الجزائر من خلال الوثائق، المؤسسة الوطنيـــة للكتـــاب، الجزائـــر: 1986م، ص. ص. 162- 163.

(2) مرجع نفسه، ص. ص. 164-167.

(3) Marthe Edmond Gouvien: Kiteb ayem el Maghariba, livre des notables maghrébins, Alger: 1920, p. p. 55-64.

التي كانوا يقدمونها للمنكوبين؛ مما جعل الكثير من الجزائريين يفقدون في نهاية الأمر أملاكهم ويتحولون إلى عمال بـــ "الخماسة" في الأرض التي كانوا يملكونها [1]. وكان المعمر الواحد يملك ما يزيد عن 96 هكتارا من أخصب الأراضي وأجودها، بينما لا يملك الجزائري إلا أربعة هكتارات أغلبها جرداء، لا تصلح حتى لرعي الماشية [2].

وقد سنّت فرنسا قوانين تعسفية ظالمة، لتقويض ملكية الجزائريين مثل قانون 1851م، الذي خول السلطة الاستعمارية حق الرقابة على الملكية الجماعية للأراضي، وقانون (فارنيي) 1873م، المعروف بـــ (قانون المعمرين)، الذي يهدف هو أيضا إلى محاربة الملكية الزراعية الأهلية، وتطوير القطاع الخاص بالمعمرين، وتفتيت ملكية (أراضي العرش)، وإحداث فتنة بين الجزائريين من العرش الواحد بل من العائلة الواحدة، وتسهيل تمليكها للأروبيين سواء بالبيع عند الضرورة الملحة، أو تحت أي ظرف قد يتسبب فيه المعمرون[3]. وقد لقيت أنواع جديدة من المزروعات اهتماما متزايدا لدى المعمرين، ودعما من طرف السلطة الاستعمارية، مثل: زراعة الكروم والتبغ، باعتبارها محاصيل مربحة، توجه أساسا للتصدير نحو السوق الفرنسية بنسبة 80% من الإنتاج.

وكانت هذه الزراعات على حساب الحبوب، التي تعدّ الغذاء الأساس للجزائريين. ونتيجة لذلك تقلصت المساحات الأهلية المخصصة للحبوب تقلصا شديدا وخاصة ما بين سنوات 1906-1921م. ورافق ذلك تدهور محسوس في إنتاج القمح الصلب، الذي انخفض إلى أقل من أربعة قناطير في الهكتار الواحد [4]. ولا شك أن هذا التدهور العام الذي أصاب المجتمع الجزائري قاطبة، قد نالت منه منطقة أم البواقي نصيبها من الفقر والحرمان والجهل والإقصاء والتهميش لا سيما إذا عرفنا أن الأراضي الخصبة في هذا الإقليم كانت بين أيدي الجالية الأروبية من المعمرين الذين استغلوا الأرض وسخروا اليد العاملة الأهلية الزهيدة لتنمية ثرواتهم من مختلف

(1) يحي بوعزيز: "كفاح الجزائر من خلال الوثائق"، مرجع سابق، ص. ص. 167-168.

(2) صالح فركوس: تاريخ الجزائر من ما قبل التاريخ إلى غاية الاستقلال، دار العلوم للنشر والتوزيـــع، عنابـــة – الجزائر: 2005م، ص. 422.

(3) مصطفى الأشرف: الجزائر: الأمة والمجتمع، ترجمة: حنفي بن عيسى، المؤسسة الوطنية للكتـــاب، الجزائـــر: 1983م، ص. 16.

(4) Charles Robert Ageron: histoire de l'Algérie contemporaine 1830-1973, série: que sais-je, p. u. f: 1974, p. 59.

الغلال التي تنتجها المنطقة، والتي تتربع على مساحة 1000 هكتار موزعة على 27 مزرعة على مستوى دوار مدفون والحاسي، وتنتج الحبوب بأنواعها المختلفة، وخاصة في منطقة عين ببوش التي تمتاز بزراعة القمح وهي ذات مردود مقبول. أما باقي الأقاليم: فكيرينة، عين الزيتون، مدفون، سيدي ارغيس وتوزلين فهي مناطق فقيرة يمارس فيها السكان تربية المواشي وبعض الزراعات المعيشية [1].

و أما الغطاء النباتي، فهو ضعيف، لا يلبي حاجات السكان الاقتصادية ويتكون من أشجار البلوط والصنوبر الحلبي، وأشجار الزيتون البري بالفجوج. و لم تعمد السلطة الاستعمارية إلى مدى قرن وثلث قرن إلا لغرس حوالي 20 ألف شجرة الصنوبر الحلبي، و03 آلاف شجرة زيتون، و800 شجرة لوز. وأقامت مشتلة بعين لجلج لـــ 4000 صنوبر، 700 زيتون و500 مشمش [2]. وهي نسبة ضئيلة جدا إذا ما قورنت بالمدة الزمنية الطويلة للسيطرة الاستعمارية. ومن أهم الثروات الأخرى التي تتوفر عليها منطقة أم البواقي المعادن ومنها: النحاس والرصاص، والأنتيموان (كحل الطباعة) والتي تم استغلالها في العهد الاستعماري، وهناك العديد من المناجم قابلة للاستغلال عند توفر الشروط اللازمة.

هذا، وقد تعرض الأهالي بمنطقة أم البواقي كباقي الجزائريين إلى مصادرة أراضيهم، وتمليكها للمعمرين الذين استحدثوا بموجب ذلك ضيعات واسعة، وبساتين نضرة للخضر والفواكه كما سلف الذكر، وسخروا لها الأهالي لفلاحتها ورعايتها، فتحولوا إلى خمّاسين، أو إلى عمال موسميين في مزارع المستوطنين، وأصبحوا إزاء تطور المكننة الحديثة عرضة للطرد أو البطالة، إذ تعوض آلة الحصاد مثلا مئة فلاح [3].

وهنا تجدر الملاحظة إلى أن المعمرين استغلوا الوضع البائس للأهالي أسوأ استغلال، وهذا الاختلال الاجتماعي والاقتصادي، فكانوا يشغلون العمالة بأجور زهيدة لا تكاد تسد رمق العيش. وإنْ توفر العمل فبشقّ النفس وبمنافسة شديدة قد تصل إلى حد الخصومة بين أفراد الأسرة الواحدة.

---

(1) L'administrateur de la commune mixte d'Oum El Bouaghi: monographie administrative , Opcit, p. p. 4-5.

(2) Loc. cit.

(3) عبد الكريم بو صفصاف: "الفكر العربي الحديث والمعاصر"، مرجع سابق، ص. 86.

وتلك سياسة استعمارية مبرمجة وهادفة إلى تمزيق النسيج الاجتماعي للعائلة الجزائرية، بواسطة سياسة (فرق تسد)، والمثل العربي المحكم في مبناه ومعناه: (جوّع كلبك يتَّبِعْك).

وجملة القول، إن منطقة أم البواقي في مرحلة الدراسة 1900م-1962م، عانت كغيرها من مناطق الوطن الأخرى شتى أنواع البؤس والشقاء والحرمان والجهل والمرض والإبعاد عن المناطق الحيوية التي اغتصبها الأروبيون الوافدون من مختلف بلدان حوض البحر المتوسط، فانحسرت الثروة في أيدي طغمة مسيطرة على القرار السياسي والاقتصادي في البلاد، وعاش الناس حياة قاسية، لا يفكرون إلا في قوت يومهم عمالا خماسين أو عمال أجراء موسميين لدى المعمرين حيث ظل الوضع كذلك حتى قيام الثورة التحريرية.

المبحث الخامس: التطور الثقافي

كان من نتائج ضم الجزائر إلى فرنسا بقرار تعسفي ظالم سنة 1834م، المحو التام للكيان الجزائري بمقوماته الأساسية من لغة وتاريخ وسلطة وطنية. ولذلك فقد عانت الثقافة الجزائرية معاناة جمة نتيجة للهيمنة الفرنسية على مقدرات البلاد، حيث حولت المساجد إلى كنائس ومستشفيات ومتاحف، وفقد المثقفون –تدريجيا - الاتصال بماضيهم العريق وثقافتهم الوطنية نتيجة لفقدانهم الكتب والمدارس باللغة العربية. وسخر الاستعمار زوايا عميلة تنشط تحت رعايته ودعمه ونصب عليها شيوخا جهالا لا صلة لهم بالعلم ولا بالأخلاق، إذ أنهم ادعوا التصوف، وبثوا الخرافة والشعوذة، وقيدوا عقول العامة بأوهام وشركيات ما أنزل الله بها من سلطان، مشوهين بذلك نقاء العقيدة الإسلامية وصفاءها من كل غبش أو شرك.

ولقد صور الشيخ البشير الإبراهيمي هذا الدور الخطير بقوله [1]: (إن البلاء المنصب على هذا الشعب المسكين آت من جهتين متعاونتين عليه، وبعبارة أوضح: من استعمارين مشتركين يمتصان دمه، ويفسدان عليه دينه ودنياه، استعمار مادي هو الاستعمار الفرنسي، يعتمد على الحديد والنار).

وإذا فالاستعمار المادي جلي للعيان، فقد اغتصب الأرض وانتهك العرض، وفرض سياسة الأمر الواقع على الشعب الجزائري بالقوة الجبرية، مع ما صاحب ذلك من سن قوانين جائرة، ألحقت البلاد بالمستعمر، واعتبرته جزءا لا يتجزأ من فرنسا. ثم يستعرض الشيخ البشير الجهة الثانية بقوله [2]: (واستعمار روحاني يمثله مشايخ الطرق المؤثرة في الشعب، والمتغلغلون في جميع أوساطه، المتاجرون باسم الدين، المتعاونون مع الاستعمار عن رضا وطواعية).

وأما الاستعمار الثاني فهو ذلك النوع الخفي الذي يسري بين أفراد الأمة بلبوس ديني، يمهد للاستعمار، ويبسط له الفرش ليجلسه على كرسي الحكم آمنا مطمئنا، فيعمد شيوخ الزوايا إلى وسائل التنويم والتخدير، يشغلون الأهالي بمسائل دينية فرعية، لا تؤثر في حياة الناس ولا في محيطهم الاجتماعي والثقافي والسياسي، بل وتلهيهم عن قضاياهم الوطنية الكبرى. وأما تواطؤ الاستعمار مع العملاء فإنه يَحُول دون تعليم الناس

(1) محمد الأمين بلغيث: تاريخ الجزائر المعاصر، ط1، دار البلاغ للنشر والتوزيع، الجزائر: 2001م، ص. 112.
(2) المكان نفسه.

وتوعيتهم، ويسد الباب في طريق اجتماعهم ووحدتهم.

ويتساوق ذلك الموقف أيضا مع قول شكيب أرسلان [1]: (إنه من الأسباب الموضوعية التي كانت من وراء دوام الاستعمار الغربي الصليبي في ديار المسلمين، يعود إلى الخيانات الروحية، حيث كانت الطرق الصوفية العين الساهرة على حماية مصالح الاستعمار بما يلقاه شيوخ الطرق الصوفية من تبجيل، وهذا بعد شراء ذممهم بدراهم بخسة).

وفعلا فقد دعم الاستعمار أولئك الشيوخ الذين باعوا ذممهم وقضايا أمتهم بامتيازات أغدقتها عليهم إدارة الاحتلال، كإعفائهم من الضرائب، وإقطاعهم الأراضي، وفسح المجال أمامهم للوظائف ومواقع النفوذ. وهؤلاء هم الذين أمدوا في عمر الاستعمار، وأقعدوا الشعب عن مناهضته ومواجهته بكل الوسائل المتاحة حتى يزحزح عن الوجود. وقد تظاهر الجزائريون سنة 1934م بكثافة ضد قرار منع العلماء المصلحين من الوعظ والإرشاد في المساجد الرسمية، ومنها تلك المظاهرات التي نظمت في شوارع الجزائر العاصمة، وكان لها صدًى كبير[2].

ولم يكن بمنطقة أم البواقي في العهد الاستعماري زوايا ذات شهرة علمية أو تاريخية على غرار الزوايا المنتشرة عبر الوطن، باستثناء الكتاتيب التي كانت تفتح بترخيص مسبق من قبل إدارة الاحتلال، وكانت هي الأخرى محدودة العدد.

وأما الزاوية الوحيدة التي كانت نشطة في تحفيظ القرآن وتعليم بعض المعارف والعلوم الدينية واللغوية والأدبية فهي زاوية الشيخ لخضر بوكفة [*] بـــ عين البيضاء، وقد انتصب للتدريس في زاويتي أحمد التيجاني

---

(1) محمد الأمين بلغيث، مرجع سابق، ص.112.

(2) André Noushi: la naissance de certains chiffres d'études Magrébines , presses universitaires de France, Paris: 1964, p. 205.

(*) من مواليد 1891م بدوار ألمان بضواحي مدينة عين البيضاء، ولاية أم البواقي، حفظ القرآن وتعلم مبـــادئ القراءة والكتابة في مسقط رأسه، ثم انتقل إلى مدينة عين البيضاء ليتتلمذ على الشيخ حسن بولحبال لمدة ثلاث سنوات حيث أخذ عنه الفقه والفرائض، التوحيد، النحو والصرف والبلاغة. ولتعميق معلوماته وتوسيع مداركه، رحـــل إلى نفطة بالجنوب التونسي، حيث درس على الشيخ أحمد النفطي المعروف. ثم رجع إلى عين البيضاء ســـنة 1935 م، وانتصب للتدريس في زاويتي: الشيخ أحمد التيجاني والشيخ أحمد بن عروس، وقصده الطلاب من كل نواحي المنطقة، وقسمهم إلى فئات حسب مستوياتهم وقدراتهم، وخصص لكل مستوى مراجع وبرامج محددة ترتقي مـــن الأدنى إلى

وأحمد بن عروس ابتداء من سنة 1935م عقب عودته من نفطة التونسية. وأما المساجد فقد كانت محدودة الأثر والعدد أيضا، فبكل بلدة من بلدات المنطقة مسجد على الأكثر، وأما أبرزها في الحركة الثقافية فهو مسجد عين البيضاء، الذي كان يشع نشاطا وحيوية، وإلى ذلك أشار الدكتور أبو القاسم سعد الله [1] في تاريخ الجزائر الثقافي أن عين البيضاء كانت مركزًا نشيطًا للتدريس في سنة 1900م، ولكن في مجال التطوع، ووجد بها العديد من المثقفين والشيوخ أمثال القاضي عبود لونيسي أخ حمدان لونيسي أستاذ الشيخ عبد الحميد ابن باديس، والشيخ السعيد الزموشي [*]، والأديب الشاعر حسن بوالحبال [**]، والإمام الزواوي بن معطي، وغيرهم وهذا يعني أن الإدارة الفرنسية لم تعد المنشط الوحيد لعملية التدريس في المساجد. وقد كانت

الأعلى، وأسهم بذلك إسهاما محمودا وفاعلا في العملية التربوية والتعليمية، وحافظ على الشخصية العربية الإسلامية من الذوبان والمسخ والاندثار. وفي الثورة التحريرية عين قاضيا ومفتيا للمنطقة الرابعة – الولاية الأولى – وكان يعقد مجالس للصلح بين الناس. وواصل رسالته التربوية والثقافية بعد الاستقلال وأسهم في تخريج أجيال من المتعلمين والمثقفين، وكان مرجعا في الفقه والإفتاء على المذهب المالكي إلى أن توفي – رحمه الله – يوم 22 مارس 1980 م عن عمر يناهز تسعين سنة. **ينظر، الطيب بن نادر، حياة الشيخ لخضر بوكفة، مخطوط محفوظ بنظارة الشؤون الدينية، أم البواقي: 8 ديسمبر 1993م، ص. ص. 1-4.**

(1) أبو القاسم سعد الله: "تاريخ الجزائر الثقافي"، ج3، مرجع سابق، ص. ص. 156-157.

(*) من مواليد عين البيضاء (أم البواقي) في 1904/03/04م. انتقل إلى جامع الزيتونة بعد نهاية الحرب العالمية الأولى، وعاد إلى الجزائر عام 1923م حائزا على شهادة التطويع، لينضم إلى الحركة الإصلاحية بقسنطينة. وبعد تأسيس جمعية العلماء عين سنة 1932م في مدينة معسكر ليقود بها نشاطا إصلاحيا مكثفا، مما اضطر سلطات الاحتلال إلى إيقافه ونفيه إلى الحراش تحت الإقامة الجبرية. ثم انخرط في صفوف الثورة واعتقل سنة 1956م وسلط عليه العذاب في أماكن مجهولة، وبعد الإفراج عنه، هربه جيش التحرير إلى القاعدة الغربية بوجدة حيث واصل نشاطه التعليمي إلى أن توفي في 1960/12/19م. **ينظر، خير الدين شترة: الطلبة الجزائريون بجامع الزيتونة 1900-1956م، دكتوراه العلوم (رسالة غير منشورة) في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر، قسم التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، الجزائر: (2007-2008)م، ج3، ص. 1092.**

(**) ولد في خنشلة سنة 1897 م، وأصله من نواحي جيجل، وكان أبوه قاضيا، درس في الزيتونة، ورجع منها معلما في خنشلة، باتنة وعين البيضاء، وتولى عدة وظائف قضائية ودينية. وهو الأديب الذي ورد ذكره في كتاب "شعراء الجزائر" للسنوسي.

السلطات الاستعمارية حذرة متحفظة من المهام والأدوار التي كانت تضطلع بها المساجد التي تشيد بأموال الشعب تحت إشراف جمعية العلماء المسلمين، وتنبأت بأن المساجد ستصبح في المستقبل مراكز قوية للدعوة وسوف تقف في وجه المرابطين والطرقيين وتجبرهم على التقهقر والانحسار [1].

هذا، وقد نشطت أقلام في منطقة أم البواقي في مطلع الحركة الإصلاحية في العقد الثالث من القرن العشرين. ومن الأمثلة على ذلك صدور مقال لأحد المراسلين بـــعين البيضاء في جريدة المنتقد عام 1925م، يدعو فيه صاحبه إلى الاهتمام بدراسة التاريخ وتدريسه، حيث يقول [2]: (أيها العلماء إن أول واجب تعلمون فيه أمتكم من الفنون، فن التاريخ كي تفرق بين حالتها الآن وحالتها بالأمس). وهذا النص يعبر عن مدى وعي الكاتب بأهمية التاريخ في استنهاض الأمة من سباتها، لأن من لا ماضي له لا حاضر له، ومن لا حاضر له لا مستقبل له، لأن الحاضر غرس الماضي، والمستقبل جني الحاضر، والتاريخ سجل الزمن لحياة الشعوب والأفراد والأمم.

ومن المثقفين الكتاب الذين نشطوا أيضا في فترة العشرينيات والثلاثينيات في المنطقة، ونشرت لهم مقالات في جرائد جمعية العلماء المسلمين وغيرها: محمد السعيد الزموشي وأبو القاسم زيناي البيضاوي نسجل من عين البيضاء، وأبو القاسم الزغداني من أم البواقي، ومحمد مساس الإبراهيمي من عين مليلة، وغيرهم. ومن الأهمية بمكان أن نسجل هنا صدور أول جريدة في أم البواقي سنة 1935م، بعنوان (صدى الحراكتة)، وهي تعنى بمصالح سكان المنطقة، لكنها سرعان ما توقفت حيث لم يصدر منها سوى عددين اثنين.

وقد أورد ذلك مالك بن نبي[3] في مذكراته بقوله: (إن رمضان حساني المشرف على الجريدة، كان رجل

(1) L'Algérie du demi-siècle vue par les autorités locales: janvier1954, p.1.

(2) مكاتب بـــ عين البيضاء: "الترقي ونحن"، جريدة المنتقد، دار الهدى، عين مليلة-الجزائر، الســـنة: 1925 م، ص. 246.

(3) أبو القاسم سعد الله: "تاريخ الجزائر الثقافي"، ج5، مرجع سابق، ص. 263.

بر وإحسان، وقد استعان بمثقف نخبوي طائش، وكان ذلك ربما هو سبب فشل مشروع الجريدة) [*].

هذا، وقد لفت ابن باديس نظر السكان -في إحدى جولاته للمنطقة سنة 1929م– إلى ضرورة بناء المساجد وإنشاء المدارس وفتح الكتاتيب القرآنية، لتحفيظ القرآن ونشر العلم والثقافة، والمحافظة على الشخصية العربية الإسلامية، والتمسك بعقيدة التوحيد كما ورثناها عن السلف الصالح. وأثمرت مساعيه تلك مؤسسات دينية وثقافية واجتماعية، يتصدرها أئمة وعلماء أوكلت إليهم مهام الإرشاد والتوجيه والتوعية، فقاموا (بالتعبئة الدينية والقومية الشاملة واستطاعت أن تكَون جيلا صالحا ينهض نهضة إسلامية بحيث يأخذ من عظمة الماضي ومن يقظة الحاضر ما يعصمه من الزلل والانحراف، ويسير في طريق المستقبل المشرف)[1].

وهذه المنشآت التي أشار إليها ابن باديس في خطبه بالمنطقة هي:

مدرسة التهذيب ونادي التهذيب بأم البواقي، ومدرسة الرشاد ونادي الرشاد بـــ عين البيضاء، ومدرسة العرفان بـــ عين مليلة، كما تأسست الجمعيات الدينية والخيرية لإسناد تلك المنشآت الثقافية والاجتماعية.

أما بعد الاستقلال فقد عرفت المنطقة ألوانا ثقافية وتراثية متنوعة، أسهمت بشكل فاعل في إثراء المشهد الثقافي والفني بصفة عامة، حيث يضفي هذا الرصيد على المنطقة عمقا تاريخيا وفنيا يزيد من أهمية الولاية والمستوى الثقافي لسكانها من خلال تنظيم قطاع الثقافة للعديد من التظاهرات والمهرجانات الفنية، تبرز أهمية التراث المحلي في الحفاظ على الذاكرة الجماعية. ولعل من تلك المشاهد الثقافية الهامة مهرجان عيسى الجرموني للثقافة والتراث المحلي، والفرقة الفنية المشهورة تيقيار التي تهتم بالتراث الفني الأمازيغي، والندوات الفكرية التي كانت تنظمها مديريتا الثقافة والشؤون الدينية للتعريف بتاريخ المنطقة وأعلامها.

وبعد إقرار التعددية فقد بادرت النخبة في هذه المنطقة إلى إنشاء الجمعيات والأحزاب السياسية من أهمها جمعية الإصلاح والإرشاد، وجمعية الفرقان لتعليم القرآن ومبادئ الدين الإسلامي، وجمعية البصائر للثقافة

(*) الصحيح أنها صدرت سنة 1931م باللغة الفرنسية، أما محررها فهو حمزة بوشوشة، وليس بوكوشة العضو في جمعية العلماء، وإنّما هو شخص آخر من النخبة الاندماجية. يُراجع الشهاب، م7، السنة الســـابعة: 1931م، ص. 305.

(1) محمود قاسم: الإمام عبد الحميد بن باديس الزعيم الروحي لحرب التحرير الجزائرية، دار المعـــارف، مصـــر: 1979 م، ص. ص. 23-29.

والعلوم وجمعية صناع الحياة. ويأتي في مقدمة التشكيلات السياسية الهامة في الولاية حزب جبهة التحرير الوطني، والتجمع الوطني الديمقراطي، وحركة مجتمع السلم، وحركة النهضة وغيرها ...

وقد تطورت الساحة الثقافية المحلية حيث أنجزت جملة من المنشآت الثقافية الكبرى منها أربعة عشر مركزا ثقافيا بلديا، ودار للثقافة ومكتبة وملحقة المركز الوطني لبحوث ما قبل التاريخ وعلم الإنسان، فضلا عن تدعيم القطاع بمرافق أخرى منها ملحقة المكتبة الوطنية ومسرح جهوي ومتحف المدينة إلى جانب مشاريع أخرى لإعادة تأهيل المواقع الأثرية [1].

(1) ولاية أم البواقي: "نشرية"، مرجع سابق: فيفري 2007م.

الفصل الثاني: حياة المصلحين وآثارهما

المبحث الأول: المولد والنشأة

المبحث الثاني: التعلم والرحلة في طلب العلم

المبحث الثالث: جهود المصلحين في ميدان التربية والتعليم

المبحث الرابع: نشاط المصلحين السياسي والوطني

المبحث الخامس: آثار المصلحين

مقدمة:

لقد سبق الحديث في الفصل الأول عن بيئتي المصلحين محمد مساس الإبراهيمي وأبي القاسم الزغداني، وأوضاعها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية، وأوضحت في مجملها المناخ العام الذي تشكلت فيه ملامح فكرهما، وتشخيصهما للواقع ورؤيتها لمستقبل الوطن.

أما هذا الفصل فسيخصص البحث فيه عن حياة الشيخين على مدى أكثر من ستين (60) عاما عاشها الرجلان في ظل الاضطهاد السياسي، والتخلف الاجتماعي والاقتصادي والثقافي وإذا كانت المصادر المكتوبة التي كشفت لنا عن ملامح شخصية المصلحين شحيحة، فقد استعضت عن ذلك بالمقابلات والمحادثات الشخصية التي أجريتها مع الأهل والأقارب والأصدقاء والتلاميذ، وكذا بالمقارنة بين الروايتين المكتوبة والشفوية، ونتيجة لما قرأته واطلعت عليه من نصوص الرجلين، سواء كانت مقالات، أو خطبا أو دروس الوعظ والإرشاد.

والحق أن حياة الشيخين حافلة بالنشاط الديني والثقافي والعلمي والسياسي والوطني، اتسمت في مجملها بالإيجابية وتحمل المسؤولية ؛ ثم إن محمد مساس والزغداني ولدا وترعرعا في ظروف سياسية اجتماعية واقتصادية صعبة، يشتركان فيها مع باقي الجزائريين الذين ظلوا يعانون ردحا من الزمن من ويلات الاستعمار وآثاره الوخيمة على الفرد والجماعة في مختف مناحي الحياة. وقد تحدى الرجلان تلك الظروف فأقبلا على العلم والمعرفة ما استطاعا إلى ذلك سبيلا، و لم يثنهما عن طموحهما لا المستعمر، ولا الفقر ولا العوز، وإنما كانا يصطبران ويتجشمان الصعوبات الجمة في سبيل إنقاذ الوطن من الوضع الذي آل إليه، وفاءً للحركة الإصلاحية الوطنية التي عمت كل أقاليم القطر والشرائح الاجتماعية دفاعا عن الشخصية الوطنية، ومكافحة للأمية والجهل والخرافة.

المبحث الأول: المولد والنشأة:

المطلب الأول: محمد مساس الإبراهيمي (1895 -1977 م)

ولد محمد مساس الإبراهيمي في بلدة أولاد أبراهم براس الواد ولاية برج بوعريريج حاليا، في الفاتح أفريل سنة 1895م(*)، والتي تبعد عن الدائرة الإدارية راس الواد بعشرة كيلومترات، وهو من أسرة كريمة، عريقة بأصالتها، معروفة بخدمتها للعلم والدين. ويلتقي نسب محمد مساس مع عائلة الشيخ محمد البشير الإبراهيمي في الجد الرابع وهو المسمى إبراهيم بن يحى بن مساهل(**). يقول في ذلك الإمام الإبراهيمي[1]: (ونسبنا هذا مستفيض بين سكان أوراس وسفوحه الجنوبية، إلى الصحارى الشمالية، إلى التلول (التلال)، ولأجدادنا كتابات متناقلة عن هذا النسب). ولقد شملت مترجمنا الرعاية العائلية بالتربية الدينية القويمة والتوجيه الأخلاقي السديد، فشرع في حفظ القرآن وهو ابن الثالثة من عمره على التقليد المتبع في ذلك الوقت على يد أبيه (سي علي) وجماعة من الأقارب من حفظة القرآن الكريم، إلى أن اشتد عوده واتسعت آفاقه، وبدأ يتطلع إلى المزيد من العلم والمعرفة فاتجه خارج محيطه العائلي.

المطلب الثاني: أبو القاسم الزغداني (1901 -1979 م)

ولد أبو القاسم الزغداني يوم 24 نوفمبر سنة 1901م ببلدة عين الزيتون (***) بضواحي أم البواقي. نشأ وترعرع في كنف والده المصلح الشيخ الطاهر الزغداني، الذي اعتنى به ورعاه ورباه تربية إسلامية صالحة، وغرس فيه الخصال الطيبة كالصدق والوفاء والمروءة وحب الخير لكل الناس والتضامن الجماعي في الشدة والرخاء. وظل أبوه يحدثه عن القرآن الكريم وطلبة العلم، مما انطبع في ذهنية مترجمنا حب القرآن والرغبة في تعلمه وحفظه. وعند بلوغ سن التلقين، تعلم القرآن في مسقط رأسه على يد شيخ

(*) احتفظ باسم شقيقه رابح، وتاريخ ميلاده، والذي توفي بعد ميلاده بسنتين، وبذلك يكون تاريخ ميلاده الحقيقي هو سنة 1897م.

(**) شجرة النسب، **ينظر الملحق I رقم 01.**

(1) محمد البشير الإبراهيمي: "الآثار"، ج5، مصدر سابق، ص. ص. 163-164.

(***) رقيت بلدة عين الزيتون إلى بلدية بموجب التقسيم الإداري لسنة 1974م.

البلدة فكان ذا حافظة قوية، ذكيا لماحا [1]. وبعد استكمال حفظ القرآن الكريم، انتقل إلى تعلم مبادئ القراءة والكتابة، وقواعد اللغة العربية من نحو وصرف، ثم إلى مبادئ الشريعة من فقه وحديث وتوحيد وما إلى ذلك مستوعبا جامعا لكل ما أتيح من علم ومعرفة على فقهاء المنطقة وعلمائها [2].

ولما بلغ سن الرشد، بدأ يفكر في الرحلة لطلب العلم خارج منطقته لتوسيع معارفه واستكمال تكوينه، شأنه في ذلك شأن كافة الطلبة النبغاء الذين لا يكتفون بما يغرفونه من منابع العلم والمعرفة على شيوخ بلدانهم، فشد الرحيل إلى مدينة قسنطينة.

وهكذا نلاحظ أن بيئة المصلحين مختلفتان، حيث أن محيط الأول (محمد مساس) كان يزخر بالعلم والعلماء الأفذاذ في ذلك الوقت، فتوفر له من القاعدة الصلبة في اللغة والأدب والعلوم الدينية في مسقط رأسه، ثم في الزوايا التي انتقل إليها ليشبع نهمه العلمي لاحقا. في حين أن الثاني (الزغداني) نشأ في وسط ثقافي متواضع، لم يشف غليله من المعارف والعلوم الشائعة في ذلك العهد، غير أن محيطه العائلي المشتهر بحبه للعلم وتقديره للعلماء ورجال الإصلاح خاصة، أوجد لمترجمنا جوا علميا وتربويا كان دافعا له على مواصلة تكوينه واستكمال معارفه في قسنطينة.

(1) عمار خليفي: رجال في صفحات التاريخ (دراسة حياة الشيخ أبي القاسم الزغداني، مخطوطة محفوظة بنظارة الشؤون الدينية لولاية أم البواقي: 1993، ص. 34.

(2) محمد الحسن فضلاء: من أعلام الإصلاح في الجزائر، ج2، دار هومة، الجزائر: 2000، ص.49.

المبحث الثاني: التعلم والرحلة في طلب العلم

المطلب الأول: محمد مساس الإبراهيمي:

لقد تعلقت همة محمد مساس بالمزيد من العلم والمعرفة، فانتقل إلى زاوية سيدي الحواس في قرية أولاد سي أحمد في ناحية عين أولمان بجنوب سطيف، حيث استكمل حفظ القرآن الكريم، ونهل من علوم العربية والشريعة وأحاط بالبرامج والمقررات المتاحة هناك. ثم انتقل بعد ذلك إلى زاوية شلاطة (*) أو زاوية بن علي الشريف الواقعة بجبال القبائل. وهي زاوية مشهورة بتحفيظ القرآن الكريم، وتلقين مبادئ العلوم الإسلامية، فنهل العلم من علمائها وشيوخها المشهورين حينئذ (1)، ودرس بها حوالي أربع سنوات، تمكن فيها من الاستزادة والتوسع في العلوم الفقهية واللغوية والأدبية، مركزا على الحفظ الجيد والمراجعة المستمرة للقرآن. وبعد أن توفي والده، تكفل به ابن عمه الشيخ البشير الإبراهيمي وكان يكبره بحوالي ثماني سنوات (2).

ويبدو أنه قد استفاد كثيرا من علمه بفضل الكفالة والمصاحبة. ومن الشواهد على ذلك قول البشير الإبراهيمي (3): "ولما مات عمي (محمد مكي الإبراهيمي، حوالي 1903)م شرعت في تدريس العلوم التي درستها عليه، وأجازني بتدريسها - وعمري أربع عشرة سنة - وانثال علي طلبة العلم من البلدان القريبة منا، وربما انتقلت في بعض السنين إلى المدارس القبلية القريبة منا لسعتها واستيعابها للعدد الكثير من الطلبة، وتيسر المرافق بها للسكنى، ودمت على تلك الحال إلى أن جاوزت العشرين من عمري

(*) تقع على الضفة اليسرى لواد أقبو (ولاية بجاية)، وتسمى أيضا زاوية ابن علي الشريف، ولها سمعة علمية تجاوزت حدود الجزائر، إذ كانت الهدايا تأتيها من فاس وتونس واسطنبول". **ينظر، د. أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج3، ص. 29.**

(1) محمد علي دبوز: أعلام الإصلاح في الجزائر (من عام 1921 – 1975)م، ج1، مطبعة البعث، قسنطينة – الجزائر: 1974 م، ص. 20.

(2) محمد علي مساس الإبراهيمي: حياة الشيخ محمد بن سي علي الإبراهيمي، مخطوط بحوزة المعني، بمنزله الكائن بـ حي المنظر الجميل – قسنطينة: د.ت.

(3) تركي رابح عمامرة: "جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التاريخية"، مرجع سابق ص. ص. 172-173.

(حوالي سنة 1911)م". ولعل هذا ما يدعم الرأي القائل بأن محمد مساس قد تتلمذ على يد الشيخ البشير الإبراهيمي، مثل غيره من طلاب العلم. ولغرض استكمال تكوين شخصيته، فقد طمح محمد مساس إلى رحاب أخرى يزداد فيها تعمقا وتألقا، ولكن لن يكون ذلك -طبعا- في المدارس الاستعمارية التي تعلي من شأن المناهج الغربية، والتي إن لم تطعن في مواريثنا، عززت الثقة في المتمدرس بثقافتها وحضارتها. فكان على مترجمنا إذا أن يؤم ربوعا شبيهة إلى حد ما بمحيطه وبيئته الاجتماعية والثقافية، تلك الرحاب هي ولا شك أعمق وأشمل، وهي من حيث التنظيم أدق وأوكد.

تلك هي مساجد قسنطينة العامرة بالعلم والعلماء والطلبة من كل ناحية من نواحي الوطن، وتحديدا الجامع الأخضر، الذي يتولى التدريس فيه الإمام عبد الحميد بن باديس. والواقع أن التعليم في ذلك العصر كان يتمحور بالأساس حول المعارف والعلوم الدينية الإسلامية واللغوية، ولذلك نجد الكثير من الدوافع التي تدفع الطلبة إلى الهجرة في طلب العلم، هي دوافع دينية أولا ثم دوافع دنيوية ثانيا. وأما مترجمنا فقد كانت هجرته من محيطه الأسري والعشائري بدوافع علمية دينية، يبتغي من ورائها وصل ما انقطع من مجد آبائه وأجداده، الذين لمعت أسماؤهم في عالم الفتيا والتدريس، ومنهم الشيخ محمد الشريف العمري الإبراهيمي، والشيخ المبارك الإبراهيمي، والشيخ القريشي الإبراهيمي، وغيرهم من نوابغ العلم وأساطينه [1].

ولما استقر به المقام في مدينة قسنطينة، انضم إلى مجالس ابن باديس بالجامع الأخضر، حيث المناهج والطرائق الحديثة الخاصة بكل طبقة من الطبقات الطلابية، مع توفر الكتب والبرامج المقررة، واعتماد طريقة الإملاء والشرح، وكان الشيخ عبد الحميد بن باديس أثناء الفترة الدراسية يتولى بنفسه تدريب الطلبة على الكتابة والخطابة ونظم الشعر وكتابة النثر، وكان يعدهم إعدادا حسنا لخدمة الدين واللغة والوطن على المبادئ المرضية [2].

---

(1) محمد البشير الإبراهيمي: "الآثار"، ج5، مصدر سابق، ص. 164.

(2) أحمد حماني: صراع بين السنة والبدعة، ج2، ط1، دار البعث للطباعة والنشر، قسنطينة- الجزائر: 1405 هـ/1984 م، ص. 264.

وقد أبدى محمد مساس الإبراهيمي نشاطا حثيثا لفت انتباه رواد المساجد والمدارس التي تلقى فيها دروسه على أيدي علماء قسنطينة وطلبتها، حيث لاحظوا فيه الجدية والورع وخفض الجناح، والتفاني في طلب العلم، وحبه لزملائه الطلبة وتبجيله لشيوخه وأساتذته، ساعيا إلى استكمال تكوينه والتفكير في مستقبله ومستقبل وطنه. هذا وقد كان محمد مساس حريصا كل الحرص على حسن استغلال وقته، وكان يتعهد نفسه بقراءة القرآن والتدبر في معانيه والغوص في فهمه، واستخراج حكمه وأحكامه؛ كما اعتنى عناية خاصة بالسنة النبوية: إذ هي المصدر الثاني في التشريع الإسلامي، وهي بيان للقرآن وتفصيل له [1]. وأما العلوم الأخرى من فقه وتوحيد ولغة وأدب ومنطق وسيرة وتاريخ، فقد أوتي محمد مساس حافظة قوية وقريحة نيرة مكنته من الحفظ الجيد والاستيعاب الشامل، خصوصا وأنه كان كثير المراجعة والمطالعة مع زملائه وأقرانه. وتقديرا لذكائه وحرصه على الوقت والمواظبة على حضور الدروس وحسن سيرته، فقد كان الإمام عبد الحميد يقدمه للصلاة بالطلبة والمعلمين في الجامع الأخضر. وهذه تزكية من أستاذه الكبير الذي لا يعطيها إلا للخلص من طلبته، أو لأتباعه الأوفياء الأمناء [2]. ولقد مكث مترجمنا سنوات عديدة يتلقى فيها العلوم والمعارف على يد الشيخ ابن باديس وثلة من العلماء إلى غاية 1925م، حيث أتم العقد الثالث من عمره، وقد اكتملت مواهبه وتحددت معالم شخصيته، واكتسب رصيدا علميا وثقافيا كافيا، أهله للإمامة والخطابة، والتدريس والتبليغ، والوعظ والإرشاد، وحتى الإفتاء [3]. وفي سنة 1938م، استكمل محمد مساس، مساره العلمي برحلته إلى البقاع المقدسة لأداء فريضة الحج التي هي ركن من أركان الإسلام، والرغبة في التزود بالتقوى والعمل الصالح. وقد وثق مترجمنا هذه الرحلة ساعة فساعة ابتداء من يوم انطلاقته وانتهاء بيوم وصوله؛ غير أنه لم يشر إلى اتصاله بالناس

(1) محمد محدة: مختصر علم أصول الفقه الإسلامي، دار الشهاب للطباعة والنشر، باتنة-الجزائر، ص. 84.

(2) محادثة شخصية مع الصادق مساس (نجل مترجمنا)، من مواليد 1945/10/19م، بـــ عين مليلـــة، عامل متقاعد، بمنزله الكائن بـــ عين مليلة، يوم: 2007/03/13م.

(3) حسن رمضان فحلة: دراسة واقعية لحياة الإمام الشيخ محمد مساس الإبراهيمي، مخطوطـــة محفوظـــة بنظارة الشؤون الدينية لولاية أم البواقي: 24 جمادى الثانية 1414هـــ/8 ديسمبر 1993، ص. ص. 5-6.

عامة، والعلماء خاصة. واقتصر -فقط- على سرد تفاصيل الرحلة ذهابا وإيابا [1].

وفي اعتقادي أن محمد مساس باعتباره صاحب رسالة، وحامل هم الأمة الجزائرية لا يسعه إلا أن يستثمر هذه المحطة الهامة في حياته الخاصة والعامة، ويعمد إلى عقد لقاءات ومواعيد مع شخصيات هامة وعلماء مصلحين، وتزود من العلم والمشورة ما استطاع إلى ذلك سبيلا، وأضاف إلى رصيده زادا جديدا، سيدفعه من دون شك إلى المزيد من النشاط والحركة خدمة لشعبه ووطنه على كافة الأصعدة الدينية والثقافية والسياسية، وتحقيقا لمقاصد جمعية العلماء المسلمين المتمثلة في: الإسلام ديننا والجزائر وطننا والعربية لغتنا.

ولقد كان - فضلا عن مواهبه العلمية - يتصف باللباقة وحسن الخلق، ويشهد له بذلك تلامذته وأقرباؤه وشيوخه، وأهم مناقبه:

1) الورع والتقوى:

كان محمد مساس ورعا تقيا، (ولي الله، رباني، صوفي) على حد قول تلميذه الإمام حسان بارش[2].

وقد كان يصفه ابن عمه الشيخ البشير، في افتتاحيات المراسلات بـــ (ولدنا الأبر)[*] و(ولدنا التقي)[**]، كما كان يقدمه للصلاة في منزله أثناء الزيارة، قائلا له: (ادع لنا بالجنة، فقد فزت بها)[3]. كما

---

(1) محمد مساس الإبراهيمي: ضبط طريقي إلى الحج، مخطوطة محفوظة بحوزة نجله الصادق، عين مليلة –أم البواقي، **ينظر الملحق I رقم 02.**

(2) محادثة شخصية مع حسان بارش: تلميذ محمد مساس، من مواليد 1918م، بأولاد ونداج – عين مليلة – أم البواقي، إمام متقاعد، بمنزله الكائن بـــ عين مليلة، يوم: 2007/03/14م.

(*) رد البشير على مراسلة محمد مساس، حينما كان في منفاه في أفلو، مؤرخة في يـــوم الأحـــد 30 ذي الحجة الحرام، د. ت، **ينظر الملحق I رقم 03.**

(**) رد البشير الإبراهيمي على مراسلة محمد مساس، حينما كان في القاهرة: 6 أكتوبر ســـنة 1961م، **ينظر الملحق I رقم 04.**

(3) محادثة شخصية مع محمد علي مساس (نجل مترجمنا) من مواليد 1939/11/21م عين مليلـــة – أم البواقي، الإقامة: المنظر الجميل-قسنطينة، مجاهد متقاعد، يوم: 2007/03/14م.

وُصف في إحدى المقالات بجريدة السنة (بالإمام المصلح التقي) [1]. وتقديرا لمنزلته وورعه، فقد أوصى الشيخ ابن باديس – قبل وفاته - أن يغسله محمد مساس.

حينها قال هذا الأخير[2]: (أنى لهاتين اليدين أن تغسلا الجسد الطاهر والجسم الزكي النقي).

2) التسامح والتواضع:

وقد كان مترجمنا سمحا متواضعا، ومن الأمثلة على ذلك تنازله عن رئاسة الجمعية الدينية للمسجد العتيق، لصالح جمعية أخرى أسست للغرض نفسه، جمعا لكلمة الأمة وتوحيدا لصفوفها، وتحقيقا للمبادئ التي أسست من أجلها هذه الجمعية، وهي خدمة العلم والدين، يقول[3]:

(وأرى أن نضم جمعيتنا إلي جمعية الشيخ القاضي رئيس الجمعية الأخرى وننتخبه لرئاسة جمعيتنا، ونصبح جمعية واحدة، ويكون إن شاء الله نفعها كثيرا وخيرها عميما)، كما أثني عليه في جريدة الصراط بما نصه: (ونشكر للشيخ محمد الإبراهيمي قيامه في الجامع أحسن قيام، واصطباره على ما رأى، وهو ممن عرفه الناس علما وأخلاقا ودينا) [4].

3) الوفاء لجمعية العلماء المسلمين ومنهجها:

ويمتاز مترجمنا أيضا بخلق الوفاء لمن أحسن إليه، أو عمل معه، أو انخرط في أي شراكة مهما كان نوعها مع أي كان، فهو خلوق وفي للعهد الذي قطعه للجمعية ورجالها، بان يعمل وفق منهجها وخطتها في مناصرة الحق والعلم والدين، وفي مقارعة الخصوم بالحجة والبرهان، والعمل في الميدان، مدركا بأن (من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه) - كما جاء في الأثر – ويدعم ذلك قوله [5]: (ونحن

---

(1) ع. ج: " عين مليلة في سبيل الدعوة والإرشاد "، جريدة السنة، العدد 05، السنة الأولى: 1352 هـ/ 1933 م، ص. ص. 5 – 6.

(2) حسن رمضان فحلة، مصدر سابق، ص. 15.

(3) محمد مساس: دعوة لتعضيد ودعم عمل الجمعية الدينية، خطبة مخطوطة.

(4) عبد اللطيف بن علي القنطري: "عين مليلة"، جريدة الصراط، العدد 16، السنة الأولى: 08 جانفي 1934 م، ص. 7.

(5) محمد مساس: رد على الكائدين المندسين ومناصرة الإمام ابن باديس، خطبة مخطوطة.

لا نسكت على من يستنقص الشيخ ابن باديس، لأنه منار علم وهدى ودين).

4) الجرأة في الحق:

كان مترجمنا شجاعا مقداما في غير تهور، يصدع بالحق، ولا يخشى في الله لومة لائم، ومن ذلك إنكاره على السفلة المشوشين الذين حشروا أنوفهم في عمل الجمعية الدينية القائمة بأشغال المسجد وشؤونه وهو المسجد الذي كان يؤم الناس للصلاة فيه بـــ عين مليلة، حيث يقول[1]:

(ولا يسوغ لهم التدخل في شؤون الدين لما جبلوا عليه وعرفوا به من تعاطيهم الخبائث كلها جهارا دون حياء من الله ولا من العباد، والجمعية الدينية تعرفهم بأعمالهم فردا فردا بأكل مال الجمعية الدينية وإخفاء وصولاتها، وبعضهم بكرائه للعاهرات في "الكورس" (ميدان الخيل)، وغير ذلك مما يخجل منه وجه كل متدين).

5) الإيثار والتضامن:

وكان محمد مساس متحليا بخلق الإيثار، متخليا عن الأثرة وحب النفس، مجوادا كريما، واسع التضامن والتكافل مع الغير في السراء والضراء، متأسيا بخلق أهل القرآن، في قوله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(*).

وكان يجمع اللحوم ليوزعها على الفقراء في عيد الأضحى المبارك. وفي ذلك يقول[2]:

(ليأخذ الفقراء حظهم بفرح العيد مثل إخوانهم الأغنياء).

(ومن كان له جيران فقراء فليتكفل بضيافتهم).

ويستشهد بآيات قرآنية وأحاديث نبوية لدعم رأيه وتوجيهه للناس مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ (**)، وقوله ﷺ: (الراحمون يرحمهم الرحمن)(***).

---

(1) محمد مساس: رد على افتراءات المفسدين حول نزاهة الجمعية، خطبة مخطوطة.

(*) سورة الحشر، الآية 9.

(2) محمد مساس: التكافل الاجتماعي، خطبة مخطوطة.

(**) سورة البقرة، الآية 272.

6) حب الوطن والتفاني في خدمته:

تعج حياة محمد مساس بالنشاط والعمل الدؤوب لصالح الوطن والأمة إن كان ذلك في التدريس والتعليم والتثقيف، أو في الإمامة والإرشاد والفتيا. كما كان يرأس شعبة جمعية العلماء بعين مليلة، وما يتطلب ذلك من مهام وطنية مشرفة كتنشيط عمل الجمعيات الدينية والخيرية والنوادي، وما إلى ذلك من أعمال جليلة كان يؤديها مترجمنا خالصة لله ثم للوطن. كما كان له حضور قوي في التحضير للثورة بالاتصال الوثيق بالمجاهدين والمناضلين داخل المسجد وخارجه. وتعرض بذلك إلى مضايقات كثيرة من طرف إدارة الاحتلال، حيث شددت عليه الرقابة وأغلقت مدرسة العرفان التي كان يشرف عليها سنة 1954م. وشارك في الثورة المظفرة بكل ما أوتي من علم وخبرة، إلى أن استرجعت السيادة الوطنية [1].

المطلب الثاني: أبو القاسم الزغداني:

بعد أن أتم الزغداني حفظ القرآن الكريم واستيعاب المبادئ الأولية للغة العربية وقواعد الشرع الحنيف، اشرأبت نفسه وتعلقت بتلقي المزيد من العلم والمعرفة. ولم تكن بالمنطقة زوايا نشطة ولا مدارس تقدم العلم، غير أن ظهور الإمام المصلح عبد الحميد بن باديس على الساحة الوطنية، وذياع صيته في الآفاق، زاد في نفس أبي القاسم الزغداني رغبة ملحة في مواصلة تعلمه، خاصة وأن الإمام ابن باديس كان ينتقل بنفسه لانتقاء أحسن العناصر التي يجد فيها الاستعداد والرغبة في طلب العلم. وفي سنة 1919م طلب من والد أبي القاسم الزغداني أن يأذن لابنه ليتم دراسته في الجامع الأخضر، وصادف ذلك هوى في نفس الوالد، فاستبشر خيرا ووعده بأنه سيوفده إلى قسنطينة في العام القادم [2]. وكانت الروح الدينية مستولية على النفوس والمشاعر، فكان الأهالي يربون الأبناء على البطولة والرجولة ودماثة

(***) رواه أبو داود برقم: 4941 , والترمذي برقم: 1569 , والحاكم 4 / 175 والبيهقي في الشعب برقم: 11048 , وأحمد في المسند: 2 / 160 , وقال الترمذي: حسن صحيح , وصححه الحاكم.

(1) حسن رمضان فحلة، مصدر سابق، ص. 12.

(2) أبو القاسم الزغداني: "هذا هو الشيخ عبد الحميد بن باديس"، مرجع سابق، ص.5.

الخلق مع تزويدهم بقسط وافر من العلوم اللغوية والدينية والدنيوية التي تتطلبها الحياة في ذلك العصر[1] وفعلا فقد التحق الزغداني بالجامع الأخضر سنة 1920م[2] ليدرس على يد الشيخ عبد الحميد بن باديس العلوم الآتية:

التفسير – الحديث – الفقه – الفرائض – العقائد – النحو والصرف والبلاغة – المطالعة والإنشاء – المنطق – التاريخ والجغرافيا . . .

كما نهل تلك العلوم من الكتب المقررة الآتية: الموطأ – أقرب المسالك – الرسالة – ابن عاشر – اللامية – المكودي - القطر- ديوان الحماسة – ديوان المتنبي – مقدمة ابن خلدون [3].

ولسد الفراغ الثقافي الذي كان يعاني منه الجزائريون إلى غاية 1920م، فقد وضع جمعية العلماء خططها من أجل النهوض بالثقافة العربية بدءًا بتكثيف تعليم اللغة العربية في المدارس والمساجد والكتاتيب، وبعث التراث العربي القديم. وقد عبر عن ذلك الإمام محمد البشير الإبراهيمي بقوله: (إن العصرنة والثقافة في وقتنا الحاضر تتمثل في اللغة العربية) [4].

وظل الزغداني يتردد على المساجد النشطة المعروفة في مدينة قسنطينة ومنها: الجامع الأخضر – جامع سيدي بومعزة – وجامع سيدي قموش. وعندما استأنس الشيخ عبد الحميد من الطالب أبي القاسم الزغداني الكفاءة والقدرة على التحصيل، نصحه بأن يرحل إلى تونس ليكمل دراسته هناك.

فاستجاب والتحق بجامع الزيتونة عام 1924م متحملا المتاعب والصعوبات الجمة التي كانت

---

(1) أحمد طالب الإبراهيمي: من تصفية الاستعمار إلى الثورة الثقافية 1962-1972م، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر: د. ت، ص. 74.

(2) أبو القاسم الزغداني: "هذا هو الشيخ عبد الحميد بن باديس"، مرجع سابق، ص.5.

(3) يراجع للتوسع، البصائر، عدد 47، الجزائر: 1936، ص. 5.

(4) Henry Banazet: l'Afrique Française en danger , Paris: 1947, p.30.

تعترض طريق طلاب العلم عامة إلى الجامع العتيق [1]. وأثناء الدراسة كان أبو القاسم لا يتقيد بشيخ ولا ببرنامج معين، ولكن كان ينتقي الشيوخ والعلماء الذين يحضر لهم وكذا العلوم المدرسة التي هو في حاجة إليها عملا بتوجيهات شيخه ابن باديس[2] إذ قال له وهو يتأهب للرحلة إلى تونس مع بعض الطلبة (أنصحكم ألا تنخرطوا في الروتين الزيتوني، واقرؤوا العلم للعلم، وحاولوا أن تتعلموا مبادئ الرياضيات والطبيعيات، واختاروا من الكتب أفيدها وأحصرها وأوضحها، وأكثروا من المطالعة، فإن المطالعة نصف العلم).

كما دعا ابن باديس إلى الاستفادة من العلوم العصرية بأي لغة متاحة، وإضفاء الطابع العربي الإسلامي عليها تأسيا بالأروبيين الذين أخذوا العلم عن أجدادنا وطبعوه بطابعهم الديني والثقافي، وفي ذلك يقول [3]: (خذوا العلم بأي لسان كان، وعن أي شخص وجدتموه، وأن تطبعوه بطابعنا لننتفع به الانتفاع المطلوب، كما أخذ الأروبيون من أجدادنا وطبعوه بطابعهم النصراني وانتفعوا به).

ودرس الزغداني في تونس خمس سنوات، وعند عودته سنة 1929م، صادف زيارة الأستاذ عبد الحميد بن باديس لأم البواقي، والتي وثقها في الشهاب بقوله [4]: (تلقاني للمحطة السيد بلقاسم الزغداني التلميذ بجامع الزيتونة، ضيفا في دار أبيه السيد محمد الطاهر أحد أعيان الحركة الإصلاحية وفضلائهم وذوي الدين ومحبة العلم والتعليم منهم).

ونظرا لعدم تقيده بالنظام الرسمي للدراسة في جامع الزيتونة فلم يحز فيها على شهادة التحصيل وإنما خرج منها بقوة التحصيل كما نوه إلى ذلك الإمام محمد البشير الإبراهيمي الرئيس الثاني لجمعية العلماء

---

(1) خير الدين شترة: "الطلبة الجزائريون بجامع الزيتونة (1900-1956)م"، ج3، مرجع سابق، ص. 1091.

(2) أبو القاسم الزغداني: "هذا هو الشيخ عبد الحميد بن باديس"، مرجع سابق، ص. 5.

(3) "الشيخ ابن باديس في قالمة"، جريدة البصائر، العدد 109، السنة الثالثة: 21 صفر 1357هـ/22 أفريل 1938م، ص. 2.

(4) "للتعارف والتذكير"، الشهاب، ج9، م5، قسنطينة- الجزائر: أكتوبر 1929م، ص. 42.

المسلمين الجزائريين في إشهاده له [*].

وفي عام 1349هـ/1930م، تحصل على إجازة التحصيل[**] التي حررها له بالسند المتصل ثلاثة من كبار المدرسين والعلماء بجامع الزيتونة، حيث أجيز مترجمنا في علم الحديث والفقه على المذاهب الأربعة وعلوم التوحيد والبلاغة والرياضيات وشرح الأشموني على ألفية ابن مالك. وهذا خلافا لما أورده الشيخ عمار خليفي[1] في مخطوطه إذ يرى أن أبا القاسم الزغداني (حصل على شهادة التحصيل وتسمى بشهادة التطويع)– كما ذكر. ويعتقد الشيخ الإبراهيمي أيضا بأهمية الإجازات العلمية التي يؤهل بها العلماء تلامذتهم، وهو ممن لم يتحصلوا على أي شهادة رسمية، بل كان يتلقى الإجازات تلو الإجازات من أكابر العلماء والفقهاء والأدباء، (وكان أئمة العلم لا يعتمدون في تخرجهم على الشهادات الرسمية، وإنما كانوا يعتمدون على الإجازات من مشايخهم الذين يأخذون عنهم) [2].

ولقد اتصف مترجمنا بالأخلاق الحميدة والتفاني في خدمة الأهداف السامية، وحسن معاملة الغير ولو كان مخالفا له في المعتقد والمذهب؛ كما كان محبا للإصلاح، متفانيا في إرساء دعائم الوطن والأمة. ومن أهم خصاله ومناقبه:

1) الورع والزهد:

لقد تخلق الزغداني بخلق الورع والتقوى، والزهد في متاع الدنيا وزخرفها. فكان عابدا لله دائم الصلة به، ملتزما بشريعته، معتكفا على قراءة القرآن، شديد التحري في تطبيق تعاليم الدين، ولا أدل على ذلك تحريه بنفسه في غروب الشمس، ثم يأمر أهله بالإفطار، دون الحاجة إلى سماع الآذان [3]. كما زهد في وظائف السلطة الاستعمارية، رغم ما يوفره المنصب آنئذ من امتياز ومرتب ضخم. وفي ذلك

(*) محمد البشير الإبراهيمي: الإشهاد: 1963/02/16م، **ينظر، الملحق II رقم 03.**

(**) **ينظر، الملحق II رقم 01.**

(1) عمار خليفي: "رجال في صفحات التاريخ"، مصدر سابق، ص. 35.

(2) تركي رابح بن عمارة: "جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التاريخية"، مرجع سابق، ص. 171.

(3) محادثة شخصية مع نوار مصدق، (صهر أبي القاسم الزغداني)، من مواليد 1952 بمسكيانة – أم البواقي، بمنزله الكائن بمسكيانة: 2007/03/23م.

يقول[1]: (وتباعدنا عن الوظائف أيا كان نوعها، وعشنا مع ابن باديس محرومين مـــن جميع لذائذ الحياة). ولقد أوصى ورثته بالتبرع بمكتبته الخاصة بعد وفاته لصالح هيئة عمومية [2].

2) الوفاء والتفاني في خدمة الوطن:

أما عن الوفاء والتفاني في خدمة الوطن، فقد ضرب فيه مترجمنا أروع الأمثلة، قدوته في ذلك أستاذه الشيخ عبد الحميد بن باديس. فإن الزغداني بعدما أنهى دراسته بالزيتونة، لم يتوقف عن العمل مطلقا لصالح الدين واللغة والوطن. وقضى حياته بين التعليم والإمامة والإرشاد والإفتاء وإنشاء المدارس والجمعيات والنوادي، متنقلا من منطقة إلى أخرى، في ترحال دائم لا يعرف السكون أبدا، خدمة للمشروع الذي نذر حياته له. فلم يكن يعمل لحسابه الخاص، وإنما كان يعمل دائما لمصلحة الجماعة والوطن. وظل وفيا أمينا لمبادئ الجمعية ورجالها، يوالي من يوالي وطنه، ويعادي من يعاديه، وقد أبدى شجاعة نادرة حينما واجه المستعمر الغاشم بتوعية الناس وتعبئتهم وتوحيدهم صفا واحدا لتحرير وطنهم من ربقة الاستعمار، فلقي في سبيل ذلك ما لقي من التضييق والتشريد والنفي إلى تونس فالتحق هناك مكرها مجبرا، إلا أنه استثمر ذلك الانتقال القسري بتعليم اللاجئين وأبنائهم والتنسيق الكامل مع المجاهدين والمناضلين [3]. ولقد وصفه الشيخ البشير الإبراهيمي بقوله [4]: (وبقي الأستاذ الزغداني ملازما للشيخ ابن باديس حتى توفاه الله، وهو من أحسن الناس سلوكا وأخلصهم للعربية والإسلام والجزائر).

3) الأريحية والتسامح:

لا يخفى على أحد أريحية مترجمنا، فهو المحكوم عليه بالإجماع أنه ذو دعابة ونكتة، منشرح الصدر، لا يحمل ضغينة لأحد، يتنازل عن حقه وحظ النفس لإرضاء الآخرين، إلا ما اتصل بمبدأ أو فضيلة

---

(1) أبو القاسم الزغداني: "هذا هو الشيخ عبد الحميد بن باديس"، مرجع سابق، ص. 5.

(2) عبد الحميد الزغداني، نجل أبي القاسم الزغداني، من مواليد 1947/01/26م، بأم البواقي، عامل متقاعـــد، بمنزله الكائن بحي عبد الحفيظ بوالصوف – قسنطينة، يوم: 2007/03/25م.

(3) محادثة شخصية مع علي الساسي، من مواليد 1926م بالكويف ولاية تبسة، شغل منصب مفتش الشـــؤون الدينية بولاية أم البواقي سابقا، مجاهد متقاعد بمنزله الكائن بالخروب ولاية قسنطينة: 2007/03/23م. للتوســـع **ينظر، ص. 81.**

(4) محمد البشير الإبراهيمي: "الإشهاد"، مصدر سابق.

مهددة. فهو سمح لين الجانب، هاش باش، لا يعرف للعبوس أو تقطيب الجبين سبيلا. وكان يحلم بجيل جديد تخرجه الجمعية للشعب الجزائري في قوله[1]: (تخرج لكم جيلا جديدا يدرك معنى العزة والكرامة، ذا لطف في الخطاب، وبسط في المحيا، وجمال في الخلق، ولين في الجوار والمعاملة، تعتز به القومية، وتفتخر به العربية، ويرفع رأس الشعب عاليا بين الأمم والشعوب).

4) التضلع والتفتح:

وكان الزغداني عالما فقيها، وأديبا بارعا، وخطيبا مفوها مصقعا، صاحب لغة راقية، وأسلوبه في التبليغ متميز يؤثر في العامة والخاصة، يعيش هموم عصره وقومه، ويقدم لها الحلول المناسبة، وبالتالي فهو يتقن فقه النصوص، ويحسن إنزالها على الواقع [2].

و لم يكن الزغداني متزمتا ولا منغلقا على نفسه، يضرب عليها سياجا من الحواجز تفصل بينه وبين الناس، شأن المتنطعين المتشددين الذين يغالون في التضييق على أنفسهم وعلى غيرهم، بحجة التطبيق الصارم للدين. بل وبالعكس فقد كان عقلانيا يستخدم عقله في فهم النص، فيجتهد استنادا إلى المحكم من القرآن وإلى القطعي من السنة النبوية. وبذلك فهو يجمع بين الأصالة والمعاصرة، إذ أن أستاذه ابن باديس دعاه إلى تعلم الرياضيات وعلوم الطبيعة. وكل ذلك أثر في تكوينه وتحديد معالم شخصيته. ومن أمثلة تفتحه الاجتماعي، معاملته الرقيقة للجنس اللطيف، حيث كان يحسن إلى زوجته، ويكرمها إكراما شديدا، ويجلها ويحترمها، إلى درجة أن رافقها في شوارع قسنطينة في الثلاثينيات من القرن العشرين (1934- 1940)م، خلافا للعرف المتبع آنذاك. فقد كان الرجال لا يرافقون النساء، فعلق ابن باديس على ذلك بقوله [3]: (الزغداني هو أول من اصطحب المرأة في قسنطينة بالشارع).

---

(1) أبو القاسم الزغداني: "من أسباب نكبتنا ضعف تفكيرنا"، البصائر، العدد 71، الجزائـــر: 1949 م، ص. 2.

(2) محادثة شخصية مع الشريف عزوز، من مواليد 1933م، بـــ عين البيضاء – أم البواقي، مدير ثانوية، متقاعد، بمنزله الكائن بـــ عين البيضاء، يوم: 2007/03/31 م.

(3) علي الساسي، محادثة سابقة.

المبحث الثالث: جهود المصلحين في ميدان التربية والتعليم

المطلب الأول: محمد مساس الإبراهيمي

فبعد أن تخرج محمد مساس الإبراهيمي من مدرسة عبد الحميد بن باديس متشبعا بالقيم الإسلامية النبيلة، والميادين الوطنية التليدة والرغبة الأكيدة في إصلاح حال المسلمين الجزائريين بدءا بإصلاح العقيدة ومرورا بنشر الفضيلة وانتهاء ببناء مجتمع مسلم تسوده المبادئ القرآنية التي جاء بها القرآن الكريم وفصلتها السنة النبوية، ولكن العقبة إزاء ذلك هو وجود المستعمر، فاعتمد رجال الإصلاح الآية الكريمة منهجا للتغيير، لقوله تعالى: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ﴾ (*). وبذلك تكون كلمة الإصلاح من صميم المنظومة الفكرية الإسلامية، إذ نص عليها القرآن الكريم، وأسهم في نشرها بين المسلمين [1]. ولقد كان التعليم وجهة محمد مساس وهدفه، والمسجد وسيلته، فالتحق بزاوية القرابصية، بقرية أولاد ونداج(**)، حيث بدأ باكورة عمله وشرع في تعليم القرآن الكريم وتلقين مبادئ اللغة العربية والقراءة والكتابة، وتنشيط دروس الفقه والعقيدة والسيرة النبوية والتاريخ الإسلامي، وكان يؤم الناس للصلاة، ويقدم دروس الوعظ والإرشاد. وقد دام عمله هناك أكثر من ثلاث سنوات، بين 1926-1929م [2].

ولإتمام شطر دينه، قفل راجعا إلى أولاد ابراهم لاختيار شريكة الحياة وبناء الأسرة فتزوج هناك بإشارة من البشير الإبراهيمي ومباركته. وظل بمسقط رأسه جنبا إلى جنب رفقة ابن عمه، حوالي سنتين: 1929-1930م، ينشط في مجال التعليم والتوجيه الديني والإرشاد.

وفي سنة 1931م كلفه الإمام ابن باديس بتأسيس شعبة جمعية العلماء المسلمين بمنطقة عين مليلة،

(*) سورة هود، الآية 88.

(1) Ali Merad: le réformisme musulman en Algérie de 1925 à 1940 , Paris: 1967, p. 29.

(**) قرية بضواحي عين مليلة تبعد عنها بحوالي 3 كم.

(2) محادثة شخصية مع رابح قرابصي، من مواليد 1930/01/01 م، بأولاد ونداج – عين مليلة – أم البواقي، مناضل متقاعد، بمنزله الكائن بـــ عين مليلة، يوم: 2007/03/24 م.

فاستجاب مترجمنا لنداء الواجب، لبث الإصلاح وإعداد الشعب للمهام الجديدة [1]، تنفيذا لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[*] فهب رجال البر والإحسان بالمنطقة وأعانوا أستاذهم الإمام على تأسيس الشعبة فكانت تقوم على احتياجات المسجد وتدعم عمل مترجمنا في كل ما يتصل بشؤون التعليم والوعظ والإرشاد والإصلاح بين الناس والإفتاء وعلى العموم فإن نشاط مصلحنا هذا يمكن حصره في الجوانب الآتية:

- تأسيس شعبة جمعية العلماء ورئاستها [2] ، واضطلاعه بدور فاعل في بناء المسجد العتيق بمرافقه المختلفة، وإمامة الناس في الصلوات الخمس، والجمعة والعيدين.

- تعليم القرآن والقراءة السليمة، وتعريف الناس بأحكام التلاوة والتجويد، وقد آتاه الله صوتا رخيما في غاية الجودة، والجلوس لإفتاء الناس في أقضيتهم والإجابة عن انشغالاتهم الدينية والدنيوية.

- إصلاح ذات البين بين الزوجين المتخاصمين أو بين الجيران والجماعات والتأكيد على تربية النشء تربية إسلامية إيمانية، والحث على رعاية اليتيم، ومساعدة الفقراء والمساكين [3] .

وكان يلتقي بحوالي عشـــرين طـــالبا بعد صلاتي العشاء والصبح يتلقون فيها متـــــن

---

(1) حسن رمضان فحلة، مصدر سابق، ص. 7.

(*) سورة الأنفال، الآية 24.

(2) **ينظر، عبد الكريم بوصفصاف: "جمعية العلماء المسلمين الجزائريين"، مرجع سابق، ص.397.**

أعضاء الشعبة هم:

محمد بن سي علي الإبراهيمي إمام بعين مليلة رئيسا	سوالمي الزادي نائب الرئيس
دمان ذبيح أحمد بن ساعد أمين المال	بودشيش عبد العزيز نائب أمين المال
أحمد بن المولود كاتب	عبيد يوسف نائب الكاتب
بوسلقية الحاج محمد العربي عضوا	بن الحاطم مصطفى بن محمد عضوا
غضبان أحمد بن بلقاسم عضوا	بودشيشة سلطان بن عمار عضوا
بوغربال محمد بن السعدي عضوا	اخليفي التهامي صالح بن أحمد عضوا
زعمار الساسي عضوا	اقرابصي علاوة عضوا
عبد الباقي حم بن سليمان عضوا	

(3) الصادق مساس، محادثة سابقة.

الأجرومية، ومتن ابن عاشر، وأسهل المسالك، وكان ذلك في الثلاثينات من القرن العشرين [1].

وأخذا بمنهج جمعية العلماء المسلمين، فقد كان محمد مساس يدعو إلى فتح المدارس الحرة لنشر العلم، والحفاظ على الشخصية العربية الإسلامية وحفظ اللغة والثقافة والدين من مكائد الاستعمار، وسياسته الرامية إلى تنصير الجزائر ثم إدماجها في كيان الأمة الفرنسية، وتحقيقا لكل تلك الأهداف السامية، يقول [2] في إحدى خطبه:

(وقد رأينا في بعض المدن من العمالات الثلاث (قسنطينة – الجزائر وتلمسان) من شعر بهذا النقص (طلب العلم) الفظيع فبادروا بجبره ببناء المدارس الحرة كمدرسة قسنطينة ومدرسة تلمسان (دار الحديث) القليلة الوجود ومدرسة تبسة ومدرسة الجزائر. فهذه مدارس دينية حرة أسسها رجال جمعية العلماء وسيخرج منها رجال كثيرون، هم الذين يجددون مجد هذه الأمة ويرفعون راية عزها، إلى قوله، فافعلوا مثل ما فعل إخوانكم وشيدوا مدرسة حرة ترفعون بها كابوس الجهل عن أبنائكم).

ويقول [3] في موضع آخر:

(وبقيت بلدتنا هذه (عين مليلة) بدون مدرسة، فوجب علينا أن ننبهكم ونرغبكم في بناء مدرسة لأبناء وطننا هذا ولنحمي بها القرآن ولغة القرآن، فنرجو منكم مد أيديكم بالسخاء والعطاء الكثير لهذا المشروع الذي بيناه لكم).

وفي معرض إشادته بالشيخ عبد الحميد بن باديس، ومجهوداته في سبيل تعليم أبناء المسلمين، وتسخير كل إمكاناته في خدمة الوطن والدين يقول[4]: (هذا هو الذي ضحى ولا زال يضحي بالنفس والنفيس في سبيل تعليم أولاد المسلمين، هذا هو الذي يترك لذيذ النوم ولذيذ الطعام ووثير الفراش لإلقاء الدروس وتفسير الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، ولتلخيصها وإفراغها في قوالب سهلة المآخذ ثم يرمي بها في آذان السامعين المتعطشين لتلك الدرر النفائس ثم ينشر بعضها في مجلة الشهاب لتكون المنفعة

(1) حسان بارش، محادثة سابقة.

(2) محمد مساس: فضل العلم والتعلم، خطبة مخطوطة.

(3) محمد مساس: الدعوة إلى الإنفاق لبناء مدرسة، خطبة مخطوطة.

(4) محمد مساس: في الترحيب بأهل العلم، خطبة مخطوطة.

شاملة لكل المسلمين).

ومنذ تأسيس شعبة جمعية العلماء بـــ عين مليلة، فقد عكف مترجمنا إضافة إلى النشاط المسجدي الملحوظ، على العمل الجمعوي مركزا اهتمامه على تنظيم الجمعية الدينية، وانتخاب أعضائها بكل ديمقراطية، وتوزيع المهام عليهم، والمواظبة والانضباط في حضور الاجتماعات وتنفيذ ما اتفق عليه وعدم الانجرار إلى ما يسيء إلى سمعتها، والتحلي بروح التعاون مع الهيئات الأخرى المماثلة، ولو أدى ذلك إلى التنازل تقديرا للمصلحة العامة، فيقول [1]: (والجمعية تحذر الأمة من الاغترار بأقوال المفسدين الذين يريدون تعطيل المسجد وإقفاله لئلا يسمعوا الآذان ويروا المصلين ذاهبين إلى المسجد للصلاة أو راجعين منه، فيسوؤهم ذلك)، ويقول [2] في موضع آخر: (فجودوا بما قدرتم، أحدكم بالجبس والآخر بالجير والآخر بالسمان (الإسمنت)، والآخر بالرمل، والآخر بالعمل، كل واحد بما تيسر ولو بشكارة (كيس) واحدة). ويواصل:

(فإذا طلبناكم للحضور في هذا الاجتماع الديني لنتفاوض في مصلحة أو دفع مضرة فلا تتأخروا عن الحضور، ونرجو منكم أن تسارعوا إلى الاجتماع وتفضلوه على كل شيء).

وقد واجه محمد مساس الطرقيين في عين مليلة بحكمة وصبر، وبحجة الواثق من علمه، المعتصم بحبل الله المتين. فقد آذوه، وشوشوا عليه الضعفاء والمغفلين من الناس، ولم يكن له من موقف إلا دحض الشبهات والاستئناس بمنهج جمعية العلماء المسلمين في مقارعة البدع والشعوذة والدجل، والمبالغة في تقديس شيخ الزاوية، وكل سلوك أو قول مناف للعقيدة، والأخلاق الإسلامية الفاضلة.

وهنا نورد شهادة أحد أبناء الشيخ وهو محمد علي مساس الذي صرح لنا بأنه في إحدى جولات ابن باديس إلى عين مليلة: (زار والده – محمد مساس– فوجده مضايقا من الطرقيين، فأنكر عليهم فعلهم ذلك وأقسم بالله ثلاثا لو غادر -محمد مساس- عين مليلة تحت الضغط والإكراه لم يعتبر عين

(1) محمد مساس: "رد على افتراءات المفسدين حول نزاهة الجمعية"، مصدر سابق.

(2) محمد مساس: "في الحث على جمع المال لبناء المسجد"، خطبة مخطوطة.

مليلة قطعة من الجزائر) [1].

و يبدو من محتوى هذه النصوص التي أوردتها في هذا المطلب أن أسلوب الرجل ومضامين أقواله تشبه إلى حد كبير أسلوب أستاذيه ابن باديس والإبراهيمي، لأنه يركز على أهم القضايا الدينية والاجتماعية والوطنية، التي بدونها لا يستقيم للشعب الجزائري مستقبل، ولا يكون له وجود فاعل في الحياة على غرار الشعوب الحرة والأمم الحية. فهو لا يترك فرصة أن تضيع منه، أو مناسبة تفلت منه، بل فقد كان يستغل كل وقته وكل الفرص المتاحة له في استنهاض همم الأمة وتنبيهها إلى مخاطر دعاة الجمود والبدعة من الطرقيين المشعوذين ومن إدارة الاحتلال وعملائها المحليين الذين كانوا يعيشون على دم الشعب وعرقه في كل شبر من هذا الوطن المحتل.

المطلب الثاني: أبو القاسم الزغداني

بعد أن استكمل الزغداني زاده من العلم والمعرفة عاد من تونس سنة 1929م متشبعا بالمبادئ السامية والقيم النبيلة الداعية إلى نشر العلم وتجديد الدين باعتماد الإصلاح روحا ومنهجا. فسارع إلى تأسيس نواة لمدرسة في أم البواقي مستغلا محلا في مسكنه تطوع به له والده، فشرع يعلم فيه الصغار نهارا والكبار ليلا. وسرعان ما تحول هذا المحل إلى مدرسة أطلق عليها اسم (التهذيب) بعد أن تنازل أبوه عن السكن لفائدة المصلحة العامة بسعر رمزي للجمعية المحلية التي عملت على تهيئته فأصبح مدرسة مستقلة ذات أربعة (04) أقسام [2]. فظل فيها أبو القاسم الزغداني مربيا ومعلما وموجها ومرشدا إلى أن دعاه الإمام عبد الحميد بن باديس ليعلم معه في الجامع الأخضر، فشاركه في التدريس فيه، وفي جامع سيدي بومعزة ابتداء من سنة 1934م [3]، ناشرا مبادئ الجمعية، ومرسخا نهجها ومحققا هدفها، وفي

(1) محمد علي مساس، محادثة سابقة.

(2) محمد الحسن فضلاء: "من أعلام الإصلاح في الجزائر"، مصدر سابق، ص. 50.

(3) محادثة شخصية مع عمر دردور، من مواليد 1913م بـــ أريس-باتنة، مدير الشؤون الدينية، متقاعد، بمنزله الكائن بـــ تازولت-باتنة، يوم: 2007/03/25م. (حي 2007م).

ذلك يقول الإمام عبد الحميد بن باديس [1]: (فانعقد العزم على أن تخليص الشعب الجزائري من أوضاعه المتردية وأغلاله الاستعمارية، إنما سبيله الإصلاح الديني وتعليم الشعب بفئاته المختلفة، تعليما عربيا إسلاميا لابتعاث شخصيته وإحياء مقوماته ووجوده التاريخي)، ومما لا شك فيه أن من الأسباب التي حفظت الجزائريين وحمتهم من آثار الثقافة الغربية والتعليم الفرنسي، صمود الثقافة العربية التي يتحصنون بها، فهي كالاسمنت المسلح الذي يحمي المجتمع من الذوبان والاضمحلال [2].

ثم حوله ابن باديس بعد ذلك إلى التدريس في مدرسة التربية والتعليم بقسنطينة مع كبار المعلمين. فكان نعم المعلم كفاءة وخلقا وانضباطا وانتصارا للإصلاح، ودام عمله بها سنتين[3]. وقد نوه الشيخ عبد الحميد بتفانيه في العمل، والإخلاص فيه بمناسبة احتفال جمعية التربية والتعليم بتدشين دارها في سنة 1937م بقوله [4]: (هؤلاء الأساتذة: محمد العابد، عبد المجيد حيرش، حافظ السعيد، عبد الحفيظ الجنان، بلقاسم الزغداني، عبد الله الميلي، عبد العلي الأخضري، حمزة بوكوشة) قد برهنوا على إخلاصهم لهذا المشروع، ببذلهم له مساعدة لا تقدر، فجزى الله العاملين المخلصين خيرا)، ولم يفارق مترجمنا النهضة العلمية بقسنطينة إلى أن توفي رائدها عبد الحميد في 16 أفريل 1940م. وفي ذلك يقول الزغداني [5]: (فعاهدناه، وصدقنا وعده، وبالفعل قدمت عليه جماعة من تلاميذه القدماء بعد العودة من تونس، ومنهم أنا، وكافحنا جميعا، وناضلنا النضال المر المستميت وتباعدنا عن الوظائف أيا كان نوعها، وعشنا معه محرومين من جميع لذائذ الحياة، وسرت معه أنا جنبا إلى جنب من عام

(1) الشهاب، م16، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان: 2001م، ص. 8.

(2) مصطفى الأشرف: "الجزائر: الأمة والمجتمع"، مرجع سابق، ص. 415.

(3) "نداء إلى الأمة المسلمة الجزائرية"، البصائر، العدد 47، الجزائر: 1936 م، ص. 5.

(4) مشاهد: "احتفال جمعية التربية والتعليم بتدشين دارها"، الشهاب، ج11، م12، قسنطينة-الجزائر: جانفي 1937م، ص. 503.

(5) أبو القاسم الزغداني: "هذا هو الشيخ عبد الحميد بن باديس"، مرجع سابق، ص. 5.

1927م [*] إلى أن توفي).

ولقد عاد علمنا مجددا عقب ذلك بعد وفاة الإمام إلى أم البواقي حيث أسس ناديا هناك، وعمل على تنشيط الحركة الكشفية، بالإضافة إلى الإشراف على مدرسة التهذيب. واقتضت الضرورة أن ينتقل إلى عين البيضاء ليفتح بها مدرسة الرشاد ونادي الرشاد. وبالتعاون مع رجال البر والإصلاح بالمنطقة تمكن من تأسيس جمعية خيرية إسلامية، انبثقت عنها جمعية محلية أوكلت إليها مهمة الإشراف على شؤون المدرسة [1]. وبالموازاة مع كل تلك الحيوية المتدفقة والنشاط الدؤوب، فقد كان الزغداني حربا على الجهل والتخلف، ويسعى بكل جهده إلى مقارعة الشعوذة والخرافات، ويدعو إلى اعتماد الطرائق التعليمية الحديثة فيقول[2] لطلاب العلم: (إذا أردتم التعليم الصحيح النافع فإني أنصحكم بالذهاب إلى معهد ابن باديس). وكان يدعو أيضا إلى حسن استيعاب النصوص القرآنية والنبوية وفهمها فهما صحيحا، يتفق وروح الشريعة ومقتضيات العصر.

وقد سئل ذات يوم عن أولياء الله المعنيين بقوله تعالى: ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [**]، فأجاب بلغة الواثق وبدون تردد: (أولياء الله هم الأطباء والمهندسون والعلماء المفكرون، هم أولئك الذين يقدمون أعمالا جليلة لأوطانهم وخدمات عظيمة لشعوبهم). وبذلك، يرد على الدراويش الذين يسيئون فهم الدين، ويفسرونه حسب أهوائهم ومطامعهم الشخصية[3]. وكان يشجع على التفكير وإعمال العقل والاجتهاد قدر المستطاع بما تتيحه الإمكانات العقلية والعلمية للعلماء، فكان لا يجمد على الفتاوى الجاهزة. وبتلك الذهنية العلمية، والفطرة الشفافة، تجاوز مترجمنا حدود الفقيه الملم

(*) قد يبدو للقارئ أن هناك تناقضا في ما أوردناه من قبل حول عودة الزغداني من تونس إلى الجزائر 1929م، وما قاله هو الآن عن رفقة ابن باديس سنة 1927 م إلى تاريخ وفاته سنة 1940 م. والحق أن الزغداني يعني بذلك منذ اتصاله بابن باديس كعامل معه في حقل الإصلاح من خلال المراسلات أو الزيارات التي كان يقوم بها من تونس إلى قسنطينة ثم يعود إلى الزيتونة مرة أخرى.

(1) محمد الحسن فضلاء: "من أعلام الإصلاح في الجزائر"، ج2، مصدر سابق، ص. ص. 50-51.

(2) عمار خليفي: "رجال في صفحات التاريخ"، مصدر سابق، ص. ص. 37-38.

(**) سورة يونس، الآية 62.

(3) المكان نفسه.

بأحكام الشرع وآدابه إلى مصلح اجتماعي يحارب الفساد حيثما وجد، ويرى أن ما يصلحنا هو القرآن والسنة وفهمهما بوعي وبصيرة [1].

ومثله في ذلك مثل أستاذه عبد الحميد بن باديس الذي يدعو إلى التفكير والاستقلال فيه بقوله[2]: (إذا كان التفكير لازما للإنسان في جميع شؤونه وكل ما يتصل به إدراكه، فهو لطالب العلم ألزم من كل إنسان، فعلى الطالب أن يفكر فيما يفهم من المسائل وفيما ينظر من الأدلة تفكيرا صحيحا مستقلا عن تفكير غيره، وإنما يعرف تفكير غيره ليستعين به، ثم لابد له من استعماله فكره هو بنفسه، فالتفكير التفكير يا طلبة العلم، فإن القراءة بلا تفكر لا توصل إلى شيء).

و إيمانا منه بدور الجريدة في الإصلاح الاجتماعي والثقافي والسياسي، فقد شحذ مترجمنا قلمه وشارك بمقالات في العديد من الجرائد والمجلات منها الشهاب والبصائر، والشريعة والميدان، ينشر فيها أفكاره الإصلاحية، ويدعو إلى التعلم والتفقه في الدين، ونبذ الشعوذة والدجل وتخليص العقيدة من الشوائب، والرجوع إلى المنابع الأولى من فهم سلفنا الصالح لهذا الدين من حيث الإيجابية في الحياة، وتجنب الجدل العقيم، وإسناد المسؤوليات إلى مستحقيها واعتماد غربال يغربل الصالح من الطالح ويميز الخبيـــث من الـــطيب [3].

وفي خضم هذا الزخم من النشاط والديناميكية في منطقة أم البواقي وعين البيضاء، استنجدت مدينة سوق أهراس بأبي القاسم الزغداني فانتقل إليها ما بين (1950-1952)م، مدرسا وواعظا ومرشدا لا يكل ولا يمل إلى أن اطمأن إلى استقرار الأوضاع بها، ثم التحق مرة أخرى بالسمندو(زيغود يوسف) بضواحي قسنطينة ما بين سنتي: 1952-1954م، وكان عمله فيها مقتصرا على الإمامة والتوجيه في المسجد، وذلك قبيل اندلاع الثورة التحريرية [4].

---

(1) محادثة شخصية مع د. الرفاعي أحمد شرفي، من مواليد 1934 م، بـــ بوحمامة – خنشـــلة، أســـتاذ جامعي متقاعد، بمنزله الكائن بحي الدقسي – قسنطينة، يوم: 2007/04/10 م.

(2) "التفكير والاستقلال فيه"، الشهاب، ج8، م11، ص. ص. 452-453.

(3) أبو القاسم الزغداني: "الغربلة قوام الحياة"، الشريعة المحمدية، العدد 4، السنة: 1933 م، قسنطينة، الجزائر، ص. 3.

(4) محمد الحسن فضلاء: "من أعلام الإصلاح في الجزائر"، مصدر سابق، ص. 51.

وكان الزغداني لا يفتأ عن دعوة الناس إلى الطريق المستقيم، يقضي جل أوقاته في التدريس والتعليم والوعظ والإرشاد، والفصل بين الناس في خصوماتهم. وقد لقي عنتا وعناء كبيرين في سبيل نشر الإصلاح ومبادئه، ولكنه صبر واحتسب وتحمل[1].

وعند المقارنة بين الرجلين في ميدان التربية والتعليم نلاحظ أن كليهما بذل مجهودات ملحوظة في مجال التدريس المسجدي والتوجيه الديني والوعظ والإرشاد بالإضافة إلى حلقات الدرس التي يعقدها كل منهما في المساجد الحرة بالمنطقة نشرا للوعي الديني والوطني، وتربية وتعليما للشباب والكهول وحتى الشيوخ الذين كانوا يؤمون المساجد ويحضرون حلق الدرس. والدروس نوعان: دروس لكل المصلين، ودروس خاصة علمية تكوينية للشباب والكهول وكل الراغبين في طلب العلم والمعرفة، ولم تقتصر جهودهما على المسجدين اللذين ارتبطا بهما، بل فإنهما كانا يتنقلان عبر مساجد المنطقة ولا سيما الشيخ الزغداني الذي كان كثير الحركة والاتصال بالجماهير التي كانت مستعدة للتلقي ومتشوقة للعلم والإصلاح، والرغبة في لقاء العلماء بهدف الاستفادة منهم وأخذ التوجيهات الدينية والتربوية التي كان يستنير بها الناس في عصر الجهل والأمية اللذين فرضتهما السياسة الاستعمارية في البلاد. والحق أن الظروف السياسية والثقافية والاجتماعية التي كان يعيشها كل هؤلاء العلماء المصلحين في مدنهم وقراهم كانت ظروفا صعبة تجعل من عملهم التربوي والإصلاحي جهادًا كما لو أنهم في معركة مع العدو، لأن إدارة الاحتلال كانت لهم بالمرصاد في كل موضع يحاولون فيه بذر أفكار الإصلاح والتجديد ونشر الوعي الوطني، لأنها كانت تدرك تمام الإدراك الأبعاد الخطيرة التي تنجم عن تلك الأعمال التربوية الهادفة التي تسعى إلى تكوين الفرد من الداخل، وتسليحه بالعلم والإيمان، مما يجعله مستعصيا على الذوبان في كيان الدولة المستعمرة.

و من هنا، فإن ما نراه نحن اليوم بسيطا في شكله ومضمونه من مجموع الأعمال التي كان يقوم بها

---

(1) محادثة شخصية مع بلقاسم النعيمي، (صهر أبي القاسم الزغداني)، من مواليد 1930 بأولاد جلال – بسكرة، مفتش الإدارة، متقاعد، بمنزله الكائن بحي 864 مسكنا، بالمدينة الجديدة: علي منجلي، قسنطينة: يوم 2007/03/22 م.

أولئك العلماء المصلحون تعد في ذلك العصر من أعظم الأعمال وأخلدها في المجتمع الذي كان يعيش على معاصرة الحياة الحديثة لأن الاستعمار الفرنسي قد اغتصب الأرض وشرد السكان إلى الفيافي والقفار واستخلفهم بشذاذ الآفاق الذين جاؤوا من كل حدب وصوب تدفعهم أطماع مختلفة وهم في الواقع من غير المرغوب في بقائهم في بلدانهم الأصلية. ومن هذا المفهوم لتلك الظروف القاسية المليئة بالأشواك والعقبات يمكن تقدير تلك الجهود الجبارة التي بذلها أولئك العلماء المصلحون بالقلم والكلمة لإنقاذ الأمة من الضياع. إن المصلحين مساس والزغداني اللذين عاشا طويلا في منطقة أم البواقي وعملا بها كمعلمين ومربين للأمة، لا يمكن للباحث أن يقدر تلك المجهودات إلا إذا أدرك عن كثب تلك المرحلة العصيبة من خلال استنطاق الوثائق المكتوبة والشهادات المروية عن الذين عاشوا ذلك الزمن الأحمر بدماء المعذبين والمشنوقين والمسجونين والمعتقلين في مختلف السجون والمعتقلات التي زرعت في كل مكان من الجزائر لقهر طلاب الحرية والعدالة والإنسانية.

لقد عاش مترجمانا في منطقة أم البواقي التي كانت تعرف باسم كانروبير على اتصال دائم بزعيم النهضة الجزائرية الشيخ عبد الحميد بن باديس فمنه يتلقيان النصائح والتوجيهات ومنه يستلهمان الحكمة والخبرة في مجال الدعوة إلى اليقظة والنهضة وتجنب السقوط في شراك المستعمر وأعوانه المحليين، مما جعل كلمة الرجلين عظيمة وخطيرة لأنها تصطدم في كثير من الأحيان مع مصالح سلطات الاحتلال.

فالشيخ الزغداني الذي كان يتميز بالحركة الدؤوبة بين المساجد والمدارس والنوادي التابعة لجمعية العلماء كان كثير التعرض للشبهات والتهم من قبل الاحتلال لا سيما وأنه كان معروفا بعلمه الغزير وأسلوبه البليغ في الخطابة والتدريس وتوصيل الأفكار النهضوية إلى عقول الناس، وكذلك الشيخ محمد مساس وهو المعروف بأسرته المشهورة بالعلم والمعرفة والتي كان من أبرزها أمير سجع الكهان الشيخ محمد البشير الإبراهيمي الذي لا يشق له غبار في اللغة العربية والاجتماع الإنساني وفي الاقتصاد والسياسة وفي الأدب وعلوم الدين ومعرفة الأنساب وهو شعلة وطنية يتقد حقدا وحنقا على المعمرين وأذنابهم المحليين.

فالشيخ محمد مساس هو الآخر رجل من رجال العلم والإصلاح كان له باع طويل في مقاومة

البدع والخرافات ببلدة عين مليلة وضواحيها، التي كان ملازما لمسجدها العتيق يدعو الناس إلى الأخوة والمحبـــة والتضامـــن والتعاون، ومقاومـــة الكسل والتفرقة بين الإخوة باذرا فكرة النهضة والإصلاح بينهم يشحذ الهمم ويستحث الناس على مقارعة الجهل والفقر والحرمان لبذل الجهد والتضحية الدائمة في صراع مستمر من أجل البقاء.

المبحث الرابع: نشاط المصلحين السياسي والوطني

المطلب الأول: محمد مساس الإبراهيمي

إذا كانت الثورة ضد المستعمر تتطلب العمل المسبق، والتحضير النفسي والسياسي والإعلامي، وتجنيد كل الطاقات البشرية، المادية والمالية. وبالجملة فهو حراك سوسيو ثقافي بالدرجة الأولى أيضا، بمعنى أن الأمة مطالبة بواسطة نخبها أن تسهم إسهاما فاعلا فالمجهود الوطني الذي يستهدف تحرير الإنسان من العبودية والاستغلال، وتحرير الوطن من الأسر والأغلال التي قيد بها، وحالت دون فكاكه، ولا شك أن هذه المهام موكولة إلى الأئمة والعلماء والمثقفين وغيرهم من فعاليات المجتمع. ومترجمنا محمد مساس أحد هؤلاء المثقفين المصلحين الاجتماعيين، الذي انخرط هو الآخر في العمل السياسي والوطني تلقائيا ما دام الهدف واحدا بل ووحيدا وهو الانعتاق والتحرر من ربقة الاستعمار الأجنبي [1].

اضطلع علمنا مبكرا بالدور المنوط به قبل تفجير الثورة بتوعية السكان وتحسيسهم وتجنيدهم، ودعوتهم إلى وحدة الصف ومواجهة المستعمر الذي جثم على البلاد وهيمن على العباد، واستبد بدين الأمة، فأصبح يتحكم في مساجدها وأئمتها وأوقافها، وضيق على اللغة العربية – لغة الآباء والأجداد- وعمل على طمس معالم الشخصية الوطنية لشعبنا [2].

ونظرا لنشاطه الحثيث، فقد بات محل مراقبة المستعمر وأعوانه، ولكنه كان يتعامل بذكاء وحكمة نادرة تشربها من شيوخه وأساتذته وعلى رأسهم العلامة عبد الحميد بن باديس، فكان يحسن توظيف النصوص الدينية في دروسه ومواعظه وفتاواه، لتصب كلها في خدمة القضية الوطنية. وكان من نتائج

(1) حسن رمضان فحلة، مصدر سابق، ص. 12.

(2) محمد البشير الإبراهيمي: "الآثار"، ج2، مصدر سابق، ص. ص. 139-143.

عمله التوعوي والتعبوي أن التحق كثير من طلبته ورواد مسجده، بالثورة التحريرية رفقة ولديه عبد الله ومحمد علي [*].

وما كادت تنطلق الشرارة الأولى للثورة التحريرية حتى اتصل به المجاهدون وظلوا كذلك على صلة به في المسجد وخارج المسجد، كما كان يبادر هو الآخر للاتصال بهم في دشرة (بوهجة بو الصوف) إحدى القرى المجاورة لعين مليلة، أوفي مركز (القرابصية)، حيث اجتمع بالسكان فيه سنة 1955م، وحرضهم على التمرد والالتحاق بالثورة [1].

وكان محمد مساس يسأل عن حكم الشرع في الأقضية المختلفة، وكان يجيب بعلم الواثق الحازم عن الموضوعات الآتية :

1- حكم الخائن الذي خان وطنه وأمته بتسريب أسرار الثورة للمستعمر.

2- حكم حجز أموال الأثرياء الذين لا يدعمون الثورة بأموالهم.

3- حكم الانتحار حفاظا على أسرار الثورة.

4- حكم التمثيل بالحركى والخونة.

ولقد واصل مترجمنا جهاده الوطني بحزم وثبات لا يكل ولا يمل رغم إغلاق مدرسة العرفان بعين مليلة سنة 1954م، التي كان يشرف عليها بتكليف من جمعية العلماء [2]. وقد تعدى نشاطه حدود المنطقة التي كان مستقرا بها (عين مليلة) إلى نواح أخرى من الوطن، ومنها خنشلة التي اتصل به مجاهدوها ومنهم المجاهد حفصاوي الذي كان يستفتيه في أهم القضايا التي تخدم الثورة، ولا تبطل أحكام الشرع الإسلامي، فكان يتعامل معهم شفويا وكتابيا على حد سواء[3]. ولذلك فقد كان مصلحنا - كثيرا ما – يتعرض إلى مضايقات السلطة الاستعمارية، ويحال في العديد من المرات على الاستجواب

(*) عبد الله: التحق بالثورة، وتوفي عام 1982 م، وأما محمد علي فقد التحق هو أيضا بالثورة، ولا يزال على قيد الحياة (2008 م).

(1) رابح قرابصي، محادثة سابقة.

(2) حسن رمضان فحلة، مصدر سابق، ص. 12.

(3) محمد علي مساس، محادثة سابقة.

والاستنطاق. وكان محل رصد ومتابعة سرية وعلنية. وكان محمد مساس شديدا في الحق يمارس القضاء والفتوى، ويدعو إلى اعتماد الصرامة والجدية في التعامل مع العملاء، إلى حد أن يفتي بالقتل، إن اقتضت الضرورة، واستدعت المصلحة الشرعية العليا للوطن والدين، بعد التثبت والتحري اللازمين [1].

وكان المجاهد الشهيد الحاج شعبان لوز، المسؤول السياسي في ناحية عين مليلة، والحاج بوجمعة مسؤول الأخبار، على اتصال مستمر به طلبا للتوجيه والاستشارة والفتوى. وبلغت الثقة والعلاقة الوطيدة إلى درجة أن أرسل الحاج شعبان إلى محمد علي مساس نجل مترجمنا، بندقية بواسطة والده.

وكان يمثل همزة وصل بين المدنيين والمجاهدين: ينقل هموم المدنيين وانشغالاتهم، وفي المقابل يبلغ تعليمات الثوار والمناضلين إلى الشعب بخصوص النشاط السياسي، الإعلامي، الأمني، العسكري، الاجتماعي والاقتصادي. وبقي مصلحنا يناضل بلا هوادة إلى أن استرجعت الجزائر سيادتها على أرضها، وتكللت جهود المخلصين بالنصر المؤزر على أعتى قوة غاشمة في تلك الفترة [2]. وتقديرا لمجهوداته، وتفانيه في خدمة الثورة التحريرية، فقد منح محمد مساس شهادة شرفية من طرف مسؤول منظمة المجاهدين بعين مليلة السيد الهادي سيغة [3]. وبعد الاستقلال، عين إماما بمسجد سيدي لخضر بقسنطينة يؤم الناس للصلاة، ويقدم دروس الوعظ والإرشاد، ويفتي في الأقضية المختلفة التي تطرح عليه. ولما أصبح عاجزا عن التنقل من سكنه بحي المنظر الجميل إلى المسجد نظرا لتقدمه في السن طلب التحويل إلى مدينة عين مليلة. وقد تم له ذلك سنة 1973م حيث عين في مسجد أول نوفمبر ليتابع نشاطه من جديد في مجال التوجيه الديني والتعليم المسجدي. وأذن أن تقام صلاة الجمعة بالمسجد العتيق الذي كان إماما له في فترة الاحتلال، وقد كانت معطلة لخلاف فقهي فرعي. وبقي في العمل هناك إلى أن وافته المنية في 17 مارس 1977م وكان عمره اثنتين وثمانين سنة، ودفن بمقبرة عين مليلة، وقد خلف خمسة ذكور وثلاث بنات. تغمده الله برحمته وأسكنه فسيح جنانه[4].

---

(1) رابح قرابصي، محادثة سابقة.

(2) محمد علي مساس، محادثة سابقة.

(3) المكان نفسه.

(4) حسن رمضان فحلة، مصدر سابق، ص. 7.

المطلب الثاني: أبو القاسم الزغداني

لقد اكتسب الزغداني خبرة ميدانية واسعة، وهو ينتقل بين مدن وقرى الشرق الجزائري في المساجد والمدارس والنوادي، رفقة ابن باديس في حياته، وداوم على تلك الحال بعد مماته، يعظ ويرشد ويدعو إلى الفضيلة والوحدة والتضامن والغرض من كل ذلك تعليم وتثقيف وتوجيه أبناء الشعب وتوعيتهم، وكان يقضي معظم أوقاته قبل الثورة التحريرية في الاتصال بزملائه ورفقائه للتفكير والتخطيط في القضية الوطنية ومستقبل البلاد، وتمكين الشعب من التحضير النفسي والاجتماعي والثقافي السياسي للقيام بأي عمل من شأنه أن يساعد على طرد المستعمر واسترجاع السيادة الوطنية للشعب الجزائري وبعد اندلاع الثورة التحريرية (أول نوفمبر 1954)م، اندمج فيها الزغداني بكل ثقله تحسيسا وتجنيدا وتوعية للشباب والكهول القادرين على العمل، وأعلن مساندته للثورة المباركة، هذا، وقد بدأ نشاطه محرضا الشعب على التمرد ودعم الثورة المسلحة، ولفت نظر الناس بفعل تحركاته ونشاطاته وغياباته عن أم البواقي، فكان يسأل ويجيب (إنني أسمع ولا أرى، إني أعمى وأموت أعمى)، فلا يفشي سرا لأحد، وهو يواجه الاستعمار الفرنسي الغاشم، الذي يضع العيون مستغلا ضعاف النفوس والجهلة من القوم [1].

وظلت عيون الاستعمار ترصد حركاته وسكناته بدقة إلى أن تأكدت بما لا يدع مجالا للشك أن الرجل أصبح يشكل خطرا على مصالحها وعملائها.

فقررت السلطة الاستعمارية سنة 1956م، إمهاله أربعا وعشرين ساعة إما أن يخرج إلى تونس أو يعدم، فتدخل ابن عمه القائد السعيد زرادني ورافقه إلى الحدود الجزائرية التونسية حيث تعرض إلى مضايقات شرطة الحدود التي منعته من دخول تونس، وتقديرا لنفوذ ابن عمه وجاهه، استطاع الزغداني أن يدخلها لاجئا، وبذلك يكون في منجاة من بطش الاستعمار به [2]. والتحق مترجمنا بتونس لا يلوي على شيء إلا خدمة أمته وقيم شعبه، وتخليص بني وطنه من براثن الاستعمار. فاستقر أول ما استقر في

---

(1) عمار خليفي، مصدر سابق، ص. 36.

(2) محادثة شخصية مع السيدة: النعيمي فريدة بنت أبي القاسم الزغداني من مواليد (1938) م، معلمة متقاعدة، بمنزلها الكائن بالمدينة الجديدة علي منجلي، قسنطينة، يوم: 2008/07/21 م.

حي شعبي بالمرسى بضواحي تونس العاصمة مدة عامين (1956-1958)م، ثم انتقل بعد ذلك إلى حي باب جديد بتونس العاصمة إلى غاية 1962م [1]. وكان أبو القاسم خلال فترة تواجده خارج الوطن كثير المطالعة، كثير الكتابة في الجرائد والمجلات، حسب ما ذكر لنا من قابلناهم وتحادثنا معهم، وبعد الرحلة التي قمت بها إلى تونس أيام 04 – 05 و06 أفريل 2007م، تمكنت من تفحص العديد من الجرائد والمجلات الصادرة كالآتي:

- الزهرة:1924م - النهضة: 1925م - المجلة الزيتونية:(1945-1956)م
- الفكر: (1946 – 1962)م - الصباح: /

فلم أعثر على أي مقال حرر باسم مترجمنا وربما لم أطلع على الصحف التي كان يكتب فيها لأنني لم أكن على دراية من قبل بأسماء الصحف التي كان ينشر فيها. و في مطلع سنة 1957م اتصل به مسؤولون من جبهة التحرير الوطني بتونس وعرضوا عليه العمل بالحدود التونسية الجزائرية فاستجاب طوعا وفورا [2] .

وكانت الجبهة تنتقي العلماء والكفاءات وذوي النبوغ من اللاجئين للقيام بالتوعية الثورية في تونس والمناطق الحدودية. ومن أعظم المهام المسندة إلى تلك العناصر: محو الأمية، التثقيف، التنوير، التعبئة والتدريب والتوعية كل حسب اختصاصه وإمكاناته [3].

وواظب مسؤولو الجبهة على اصطحاب الزغداني إلى المناطق الحدودية ثلاثة أيام من كل أسبوع يقضيها في العمل الوطني بين الجماهير الشعبية على اختلاف مستوياتهم وأعمارهم، كما يقدم دروسا في الوعظ والإرشاد والإفتاء للمجاهدين والمناضلين. وكان يحرر كتابيا كل ما يطلب منه من تقارير واستشارات شرعية، وكل ماله صلة بتحسين أوضاع أبناء اللاجئين تربويا، أخلاقيا، ثقافيا، اجتماعيا

(1) النعيمي فريدة، محادثة سابقة.

(2) محادثة شخصية مع عبد الحميد الزغداني، نجل أبي القاسم الزغداني، من مواليد 1947/01/26 م، بأم البواقي، عامل متقاعد، بمنزله الكائن بحي عبد الحفيظ بوالصوف – قسنطينة، يوم: 2007/03/25 م.

(3) بلقاسم النعيمي، محادثة سابقة.

وسياسيا [1]. ومنذ ذلك الحين وهو في خدمة الثورة مناضلا ومعلما ومفتيا للاجئين وأبنائهم إلى غاية استرجاع الاستقلال الوطني[2].

وصفوة القول أن الزغداني قد بقي في تونس حوالي ست سنوات (1956-1962)م مناضلا في صفوف جبهة التحرير الوطني ومحررا في بعض الصحف ومستشارا شرعيا لدى قيادة الجبهة. و لم يعد إلى الجزائر حتى استرجعت البلاد استقلالها وعادت المياه إلى مجاريها، وعاد الوطنيون الجزائريون من كل حدب وصوب إلى أرض الوطن معززين مكرمين ومتوجين بالنصر على أبشع استعمار استيطاني جثم على البلاد أكثر من قرن وثلث قرن. وبعد العودة إلى أرض الوطن سنة 1962م، استقر في قسنطينة واعظا ومرشدا وإماما في مسجد حسن باي.

وبعد إدماج المعلمين الأحرار في الوظيفة العمومية، عين أستاذا في ثانوية يوغرطا، فلازم عمله فيها خلال سنتي (1968 – 1969م) وأحيل على المعاش.

لم ينقطع عن العمل، بل واصل متطوعا بمسجد حسن باي، فكان يقوم فيه بصلاة الجمعة وإلقاء الدرس التوجيهي فيه يشاركه في التدريس، الشيخ محمد الطاهر ساحلي [*] والشيخ علي الساسي [**]،

---

(1) النعيمي فريدة، محادثة سابقة.

(2) **خير الدين شترة: "الطلبة الجزائريون بجامع الزيتونة"، مرجع سابق، ص. 1091.**

(*) من مواليد 1908م ببني خطاب (جيجل)، تلقى مبادئ العلوم اللغوية والدينية بمسقط رأسه، ثم انتقل إلى جامع الزيتونة، ليتخرج منه بشهادة تطويع، بعد دراسة دامت سبع سنوات (1925- 1932م)، وبعد العودة إلى أرض الوطن، مارس التعليم، وأشرف على الحركة الإصلاحية، وكان من المتحفزين لإنشاء مدرسة خاصة بالبنت المسلمة. عين بعد الاستقلال أستاذا للتعليم الثانوي، وإماما لعدة مساجد، توفي في 1990/02/01م. **ينظر، خير الدين شترة:"الطلبة الجزائريون بجامع الزيتونة"، مرجع سابق، ص. 1093.**

(**) ولد في 1 جويلية 1926م ببلدة كوراي ولاية تبسة، حفظ القرآن بمسقط رأسه وتبسة وعين البيضاء، ثم التحق بمدرسة تهذيب البنين والبنات بتبسة حيث تلقى دروس المرحلة الابتدائية، ثم انتقل إلى مرحلة المتوسط. وفي آخر 1946م التحق بجامع الزيتونة ليدرس فيه إلى أن أحرز على شهادة التحصيل في سنة 1952م. ثم عاد إلى الوطن بتوجيه من أستاذه الشيخ العربي التبسي ليلتحق بمعهد عبد الحميد بن باديس كأستاذ من سنة 1952م إلى سنة 1957م. حين أغلقت السلطات الفرنسية المعهد وكافة مدارس جمعية العلماء. وفي هذه السنة ألقي القبض عليه مع جميع معلمي الجمعية في قسنطينة حيث نقلوا إلى محتشد الحامة

كما كان ينشط أيضا دروس الوعظ والإرشاد في مسجد حي الكيلومتر الرابع. واستمر في عمله هذا التطوعي إلى أن أثقله المرض واعتراه العجز، فأصبح يتخلف أحيانا، ويحضر أحيانا أخرى منهك القوة. وهو الذي لا يعرف الراحة ولا التفرغ من العمل الدائم إلى أن عجز تماما عن الخروج من بيته بسبب العلة، وفي يوم 14 جانفي 1979م وافته المنية عن عمر يناهز الثمانين، ودفن في مقبرة قسنطينة. وقد خلف بنتين وولدا [1].

المبحث الخامس: آثار المصلحين

لم يترك المصلحان محمد مساس الإبراهيمي وأبو القاسم الزغداني تراثا مدونا بين دفات الكتب، ولكنهما تركا مقالات وخطبا، بعضها مطبوع ومنشور، وكثير منها مخطوط – باليد- محفوظ عند الأهل والتلاميذ، وقد سلك كل منهما طريق أستاذيهما ابن باديس والإبراهيمي في هذا المجال، حيث كان العلماء في ذلك الوقت يؤلفون الرجال ولا يهتمون بتأليف الكتب إلا ما يكون ضروريا في ميدان نشر الوعي والمعرفة العامة للناس كافة، كتحرير المقالات وإلقاء الدروس والخطب الخاصة والعامة، إذ لا يستثنى في هذا الميدان إلا عالم واحد هو الشيخ مبارك الميلي الذي اعتبر منظرا لمذهب جمعية العلماء ومؤرخا للمدرسة الوطنية لأن تآليفه تمثل الصرخة الأولى في التعريف بالهوية الوطنية انطلاقا من الحدود الجغرافية والتاريخية للقطر الجزائري، بل ولعله المؤرخ الأول الذي اعتبرت كتاباته ردا مباشرا على ادعاءات مؤرخي المدرسة الكولونيالية من المستشرقين الذين كانوا يدعون أن سكان الجزائر ينحدرون من أصول أروبية.

فقضوا فيه 28 يوما ثم أطلق سراحهم. والتحق بعد ذلك بخلايا جبهة التحرير ليواصل نشاطه النضالي، فألقي عليه القبض مرة ثانية سنة 1959م واعتقل شهرا كاملا وهو بين الاستنطاق والتعذيب. وقبيل إيقاف القتال أسند إليه جيش التحرير مهمة القضاء في المنطقة الرابعة بولاية أم البواقي إلى غاية الاستقلال درس بثانوية رضا حوحو بقسنطينة، وكان ينشط دروسا عامة في مساجد المدينة، ثم عين مفتشا للشؤون الدينية في أم البواقي إلى أن أحيل على المعاش سنة 1989م. **ينظر، محمد الحسن فضلاء: "من أعلام الإصلاح في الجزائـــر"، ج2، ص. ص. 88-91.**

(1) محمد الحسن فضلاء: "من أعلام الإصلاح في الجزائر"، ج2، مصدر سابق، ص. ص. 51-52.

إن محمد مساس والزغداني كليهما كان له باع طويل في الحركة الإصلاحية والتعليم الحر الذي أخرج للجزائر نخبة وطنية متميزة رفعت راية التعليم العربي في الجزائر بعد استرجاع الاستقلال الوطني، إذ لولا هذه النخبة التي تخرجت من مدارس العلماء وعلى أيدي هؤلاء المعلمين الأحرار لما وجدنا سنة 1962م من يخط الحرف العربي، بل ولما استطعنا أن نعيد الاعتبار للغة الوطنية في بلادنا، لأن المستعمر قد دمرها وأقصاها نهائيا من التراب الجزائري لاسيما من تلك الجامعات والمعاهد والمدارس والزوايا والكتاتيب التي كانت نجوما مضيئة في سماء الجزائر كما شهد بذلك الكتاب الفرنسيون أنفسهم من عسكريين ومدنيين على حد سواء. وعلى الرغم من أننا لم نعثر حتى الآن على وثائق مكتوبة تشهد للرجلين بالمسؤولية في إدارة الثورة التحريرية الجزائرية، فإننا وجدنا الكثير ممن يشهدون لهما بالعمل الدؤوب المخلص في صفوف الثورة داخل الجزائر وخارجها حتى نهاية الفترة الاستعمارية، وعودة الدولة الجزائرية إلى مسارها الطبيعي.

ومهما تكن مساهمة هذين المصلحين في المسيرة الثورية التي دامت سبع سنوات ونصف، فإن عملهما بالحرف والكلمة كان أعظم عمل يقدم لخدمة الثورة والشعب على حد سواء، وعند المقارنة بين آثار الرجلين المعنيين بهذه الدراسة، فإننا نجد أن محمد مساس أغزر إنتاجا من أبي القاسم الزغداني لأن الأول كان أكثر تدوينا لأعماله من الثاني، وإلا كيف نفسر غزارة آثار الأول وقلة إنتاج الثاني مع أنهما كان يشتغلان في وظيفة واحدة وهي الإمامة والتدريس اللهم إلا إذا أخذنا بعين الاعتبار تنقلات الزغداني الكثيرة وحركاته الدؤوبة النشطة التي لم تتح له التدوين والتوثيق في عمله، وربما كان يعتمد في أغلب خطبه ودروسه على الذاكرة والارتجال، أو لعله كان يكتب حسب شهادة البعض ولكثرة تنقلاته جعلته يفقد الكثير من هذه المدونات المعرفية، غير أن الزغداني يتميز عن زميله محمد مساس بما كان ينشره من مقالات صحفية أدبية وفكرية، بينما آثار محمد مساس كانت مقصورة على الخطب المسجدية والدروس الوعظية، ولم نعثر له إلا على ثلاث مقالات منشورة في مجلة الشهاب خلال العشرينيات (1926 – 1927م).

المطلب الأول: تراث محمد مساس الإبراهيمي

بعد البحث والتحري فيما خلفه مصلحنا من آثار مكتوبة سواء كانت مقالات أو دروسا أو خطبا منشورة أو مخطوطة، فإننا لم نعثر إلا على النزر القليل مما تركه، على الرغم من اشتغاله بالإمامة والتدريس طوال حياته ومسيرته النضالية في الحركة الإصلاحية العلمية، الحافلة بالنشاطات والعمل الدؤوب لنشر العلم ومكافحة الأمية بين صفوف الجزائريين وإصلاح حالهم تدريجيا وفق خطة منهجية محكمة.

نحاول أن نرصد آثاره على النحو الآتي:

أ – المخطوطات:

وجدت كلها بحوزة نجله الأصغر الصادق، وقد صنفتها كالآتي:

I / المواعظ الدينية:

1- آداب المسجد.

2- خلق المتعلم.

3- فضل المتصدقين.

4- فضل الجمعة وآدابها.

5- فضل العلم والمتعلم.

6- آداب المرأة المسلمة.

7- خطبة النكاح.

8- فضل التزويج والترغيب فيه.

II / خطب اجتماعية وسياسية:

1- مناصرة العلماء المصلحين.

2- مناصرة جمعية العلماء ورجالها.

3- حول نزاهة الجمعية الدينية.

4- الحث على تعليم الناشئة.

5- التكافل الاجتماعي.

6- الحث على جمع المال لبناء المسجد.

7- الحث على اجتناب السلطان الجائر.

8- توجيهات إلى شباب الأمة.

9- انتخاب النواب الذين يحظون بتزكية جمعية العلماء.

10- تعضيد عمل الجمعية الدينية.

11- اعتراض على تعيين إمام غير مؤهل.

III / مراسلات – خطية - واردة من شخصيات وطنية إلى محمد مساس:

1- مراسلة من الشيخ عبد الحميد بن باديس مؤرخة في:14ذي القعدة 1350هـ/مارس 1932م.

2- مراسلة من الشيخ البشير الإبراهيمي – من منفاه(*) - في أفلو مؤرخة في: يوم الأحد 30 ذي الحجة الحرام بدون ذكر السنة.

3- مراسلة من الشيخ الإبراهيمي - من القاهرة – مصر، مؤرخة في: 06 أكتوبر 1961م.

4- تهاني العيد، من السيد الصادق بن السايح بن عبد الله، مؤرخة في: 21 أكتوبر 1941م.

IV / ترحيب وإشادة برجال جمعية العلماء المسلمين:

1- كلمة ترحيبية بمناسبة زيارة الشيخ عبد الحميد بن باديس إلى عين مليلة

2- كلمة ترحيبية بمناسبة زيارة الشيخ البشير الإبراهيمي إلى عين مليلة

V / بحوث فقهية وفتاوى شرعية:

1- حكم القتل الخطأ.

(*) 08 أفريل 1940 - 08 ديسمبر 1942 م.

2- النهي عن الاعتداء على أملاك المخالفين في الدين.

3- استفتاء على مجموعة مسائل تعرض على جريدة الشهاب.

VI / وثائق خاصة:

1- تعريف الأجداد بالسند الصحيح (شجرة النسب).

2- رحلة الحج /موسومة: (رحلتي إلى أداء واجب الحج بمكة المكرمة).

VII / تأبينيات:

1- تأبين الشيخ عبد الحميد بن باديس رئيس جمعية العلماء المسلمين.

2- تأبين الباش عدل محمد بن مختار – قاضي بعين مليلة –.

3- تأبين عبد العزيز بودشيشة عضو شعبة جمعية العلماء، وعضو الجمعية الدينية للمسجد بـــ عين مليلة.

4- تأبين – سي بوجمعة – أحد تلامذته.

5- تأبين الشيخ محمد بن الموهوب خير الدين القنطري.

ب- المقالات المطبوعة والمنشورة:

1-(تبيين ما عليه المعاهد العلمية)، الشهاب، العدد 15، السنة الأولى: 1926م،ص.ص.8-12.

2- (جواب عن سؤال الشحوم)، الشهاب، العدد 87، السنة الثانية: 1927م، ص. 17.

3- (حول مسألة الشحوم)، الشهاب، العدد 97، السنة الثانية: 1927م، ص. ص. 16-18.

المطلب الثاني: تراث أبي القاسم الزغداني

لم أعثر على أي مخطوط للشيخ أبي القاسم الزغداني، إلا ما كان تعليقا على غلاف كتاب طالعه من أوله إلى آخره – كما يذكر – وقد ضبطت تعليقه بخط يده على غلافي الكتابين الآتيين:

1- (الإسلام عقيدة وشريعة) لـــ: الإمام الأكبر شيخ الأزهر محمود شلتوت.

2- (الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد)، للإمام الشوكاني.

I / المخطوطات: وأما المخطوطة الوحيدة التي رصدتها بغير خط يده، وهي إجازة التحصيل التي سلمها له ثلاثة مدرسين بجامع الزيتونة محررة بخط اليد، مؤرخة في: 1349هـ/ 1930م، وهم:

1- بلحسن النجار الشريف الحسني خادم العلم بجامع الزيتونة الأعظم والمفتي المالكي.

2- محمد. . . أحد المدرسين بالجامع الأعظم.

3-. . . دامرجي المدرس بالجامع الأعظم.

II / المقالات: وأما المقالات المطبوعة والمنشورة بالصحف هي:

1- (كتاب خاص في معنى عام)، الشهاب، ج3، م7: مارس 1931م ص. 154. وهو في الأصل – مراسلة- وردته من صديقه مصطفى بن حلوش (*)، فاستحسن ما ورد فيها، وتعميما للفائدة طلب من الشهاب نشرها بعد الاستئذان من صاحبها.

2- (الغربلة قوام الحياة)، جريدة الشريعة، العدد 1، السنة الأولى: 7 أوت 1933م، ص. ص. 3-5.

3- (الغربلة قوام الحياة)، جريدة الشريعة، العدد 5، السنة الأولى: 14 أوت 1933م، ص. 6.

4- (فار التربية والتعليم بقسنطينة)، الميدان، العدد 19، السنة الأولى: 26 شعبان 1356هـ/ 31 أكتوبر 1937م، ص. 3.

5- (الدين والعلم والمال)، البصائر، العدد 40، قسنطينة – الجزائر: 21 جوان 1948م، ص.3.

6- (من أسباب نكبتنا ضعف تفكيرنا)، البصائر، العدد 71: 14 مارس 1949م، ص. 2.

7- (الأهلية والإخلاص)، البصائر، العدد 75: 11 أفريل 1949م، ص. 7.

8- (هذا هو الشيخ عبد الحميد بن باديس)، جريدة النصر، قسنطينة–الجزائر:15 أفريل 1972م، ص.5.

(*) من مواليد 1907/10/25 م بمستغانم، تلقى العلم في جامع الزيتونة، شارك في عملية الإصلاح الاجتماعي بكتابته في جريدة (لسان الشعب) بتونس والمنتقد والشهاب، عين عضوا إداريا في جمعية العلماء، اشتغل بالتدريس في سيدي بلعباس. بعد الاستقلال انضم إلى سلك التفتيش ؛ ثم تخلى عنه وانخرط في سلك أساتذة التعليم الثانوي. توفي عام 1980م.

9- (التربية الحائرة)، جريدة الشعب، الحلقة الثانية، الجزائر: 22 سبتمبر 1986م، ص. 10.

III / المكتبة الخاصة:

أوصى أبو القاسم الزغداني ورثته بالتبرع بمكتبته الخاصة –بعد وفاته– لإحدى الهيئات العمومية؛ فسلمها نجله عبد الحميد الزغداني إلى مكتبة البلدية بقسنطينة - الجزائر. وهي ثرية بالمراجع الدينية واللغوية والتاريخية حسب ما ذكر لنا نجله عبد الحميد [1].

(1) عبد الحميد الزغداني، محادثة سابقة.

الفصل الثالث: المقارنة بين المصلحين

المبحث الأول: المقاربة الفكرية والعلمية والتربوية بين الرجلين.

المبحث الثاني: المجال السياسي والوطني.

مقدمة:

سبق أن درست في الفصل الثاني حياة الرجلين من حيث المولد والنشأة، والرحلة في طلب العلم، وجهودهما بعد ذلك في التربية والتعليم، ونشاطهما السياسي والوطني، ثم استعرضت آثارهما المخطوطة والمطبوعة. أما في هذا الفصل فسأتناول بالدراسة المقارنة العامة بين المصلحين ضمن مبحثين أساسين، يخصص أولهما للمقاربة الفكرية والعلمية والتربوية، وثانيهما للمجال السياسي والوطني. وقد كان للشيخين رؤية متميزة لواقع الشعب الجزائري والسبل الكفيلة بالنهوض به ثقافيا ودينيا وسياسيا واجتماعيا واقتصاديا، إذ كانت فلسفة التغيير عندهما ترتكز على الجانب العلمي والتربوي والثقافي، فلا يمكن تحرير أي شعب من الهيمنة والتسلط إلا بتحرير عقله من الخرافة والأوهام أولا، ثم تنويره بالعلم والمعارف ثانيا، وهذا ما يسمى بالتخلية قبل التحلية أي بمعنى إخلاء الذهن وإفراغه من مفاهيم خاطئة وتحليته وملئه بمفاهيم بديلة جديدة تدفع به إلى الحركة والنشاط ومن ثم تغيير المحيط. وذلك هو منهج جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وهذا ما سنلمسه في مظان هذا الفصل من خلال أفكار ورؤى المصلحين السياسية والثقافية والاجتماعية.

المبحث الأول: المقاربة الفكرية والعلمية والتربوية بين الرجلين

يبدو أن المضامين التي استقطبت اهتمام أبي القاسم الزغداني ومحمد مساس الإبراهيمي، لم تختلف عن المضامين التي عرفت لدى رجال الإصلاح في تلك الفترة الحرجة من عشرينيات القرن العشرين بصورة عامة، والتي كانت هي المنطلق الحقيقي لكل ما شهدت الجزائر بعد ذلك من نهضات فكرية وسياسية واجتماعية وثقافية.

ومن القراءة الأولى لآثارهما وملامحهما الفكرية، يتضح بجلاء أن إصلاح حال الشعب الجزائري قد ملك عليهما تفكيرهما، فمنحاه كل ما يملكان من قوة في التفكير أو العمل، و لم يثنهما عن رسالتهما الإصلاحية لا المستعمر، ولا الجامد المتواطئ معه. و لم يكن الإصلاح في مفهومهما إلا تعبيرا قويا عن مدى تمسك المسلمين الجزائريين بشخصيتهم العربية الإسلامية، وبوطنهم لا يبغون عنه بديلا، وردّا قاطعا على سياسات التغريب والمسخ التي ما فتئ الاستعمار يعمل من أجل تجسيدها في الواقع، بل وفرضها بالحديد والنار على الأمة الجزائرية.

ومن هنا، فإن المحاور التي سأدرسها كمجال للمقاربة بين المصلحين، تدور حول مضامين الأمة الجزائرية:الوطن – الدين – الثقافة – اللغة – التاريخ. وسأعالجها على النحو الآتي:

المطلب الأول: تشخيص الواقع.

المطلب الثاني: رعاية النشء وتربية الأجيال.

المطلب الثالث: مقاومة البدع والخرافات.

المطلب الرابع: الجمع بين الأصالة والمعاصرة في الأخذ بأسباب القوة والرقي.

المطلب الخامس: إشراك فعاليات المجتمع الجزائري المسلم في المشاريع الوطنية الكبرى.

المطلب الأول: تشخيص الواقع

يقدم الزغداني تشخيصا موضوعيا لواقع الشعب في فترة الاحتلال الفرنسي فيصفه بالبؤس والتعاسة والشقاء، ويرى أن المتسبب في هذه المأساة التي حاقت بالشعب الجزائري هو الاستعمار الجاثم على الوطن والمهيمن على مقدرات الأمة بالدرجة الأولى، ثم الجهل المطبق الذي يتخبط فيه الشعب والذي

أصبح لا يكاد يميز بين الصديق والعدو، وبين الخبيث والطيب – كما يذكر الزغداني - وهو يفتقر إلى أبسط الإمكانات المادية والمالية حيث يعاني من الفقر والجوع والحرمان بسبب نهب ثرواته وأراضيه الخصبة، وتشريده إلى الجبال والفيافي والقفار، لينفرد الاستعمار بممتلكات الشعب المنقولة منها والثابتة على حد سواء كالأوقاف الإسلامية التي كانت موردا هاما للمؤسسات الدينية والاجتماعية والثقافية.

وفي ذلك يقول الزغداني [1]: (وأين يوجد هذا المال في قطر كالقطر الجزائري منكود الحظ) نستخلص من هذه الفقرة أن الزغداني ينحو باللائمة على المستعمر بطريقة غير مباشرة فيعتبره المتسبب الأول والأخير في الانحطاط المادي والمعنوي الذي أصاب الشعب الجزائري إبان الحقبة الاستعمارية، فهو شعب مسلوب الحرية، محاصر اقتصاديا واجتماعيا وثقافيا من قبل الأقلية الأروبية التي وفدت إلى الجزائر بدوافع سياسية واقتصادية واجتماعية ودينية مقيتة.

فأمر الشعب في واقع الحال ظل مربوطا بحكام إدارة الاحتلال يقضون في شؤونه كما يشاءون وفق المصالح الاستعمارية، فلا يلتفتون إلى معاناة السكان ولا إلى مطالبهم وشكاواهم، بل وسلطوا عليه "القانون الأهلي" الذي هو مجموع العقوبات المسلطة على الشعب: كحظر التجمع والتنقل، ونقد إدارة الاحتلال ومعارضة إرادته، ورفض الانصياع إلى الحكام الإداريين المستبدين [2].

ويواصل الزغداني في هذا السياق قائلا [3]: (ولو أصغيت بأذنيك إلى حديث الناس تتأسف وتتألم، وتتعجب كثيرا وتشفق، وتحزن على هذه الأمة، وكيف لا تعتريك العبرات والحسرات إن كان لك قلب، وشعبك لا يعرف كيف يختار الصالح من هذه الحياة ولا يعرف كيف يجتمع، وكيف يبدأ الكلام، وكيف يوجه نفسه، وأسرته، ومستنصحيه إلى الحياة الحقة).

---

(1) أبو القاسم الزغداني: "الدين والعلم والمال"، مصدر سابق، ص. 3.

(2) Cherif Ben Habyles: L'Algérie Française vue par un indigène , édition orientale, Alger: 1914, p. 52.

(3) أبو القاسم الزغداني: "من أسباب نكبتنا ضعف تفكيرنا"، مصدر سابق، ص. 2.

وفي هذا النص يشخص الزغداني المعضلة السياسية التي أثقلت كاهل الشعب الذي أصبح يجهل كيفية تسيير حياته اليومية الاجتماعية منها والسياسية والاقتصادية، فلا يعرف طرق وأساليب تنظيم حياته وحياة المجتمع وهيكلته من أجل الدفاع عن حقه المغتصب، وتشكيل جمعيات ذات طابع اجتماعي وثقافي وسياسي للذود عن مقومات شخصيته الدينية والوطنية، وحماية الأسرة من التفكك والذوبان في كيان أجنبي غريب عن دينه وعاداته وتقاليده، ونظرته للكون والحياة، ولكن أنى له هذا كله وهو محاصر بين فكي كماشة، بين الاستعمار البغيض والجهل القاتل. تلك السياسة التي سلكتها السلطات الاستعمارية لتبقي على الشعب أعزل من سلاح العلم والثقافة، فلا يحرك ساكنا أمام كل السياسات الهادفة إلى استعباده واستغلاله.

وبعد أن كان للمدارس والمساجد والزوايا والكتاتيب القرآنية الدور الفاعل في انتشار التعليم والثقافة قبل الاحتلال، إذ كانت الأمية منعدمة تقريبا في كامل ربوع الوطن بشهادة الضباط العسكريين الفرنسيين الذين قادوا الحملة العسكرية على الجزائر سنة 1830م، حيث ثبت لديهم أن المدارس كانت منتشرة في المدن، والزوايا والكتاتيب القرآنية في القرى والمشاتي، وكانت الأرياف هي التي تمولها وتنفق عليها [1].

وأما المصلح محمد مساس فيصف هو الآخر الواقع المرير الذي يمثله الاستعمار البغيض بقوله [2]: (قد قرأنا في الصحف أن الجزائر تطلب الاندماج [*]، وقد أصم أسماعنا هذا الطلب المبيد لما فيه، وجعل على الأبصار غشاوة أن تنظر إليه، وهالنا مما نحن فيه من الاندماج الحالي الذي لا يفرق فيه بين من يستحق السلام، ومن يستحق غيره، فكيف نرضى بطلب اندماج رسمي أكثر من هذا، إننا نطلب حرية الدين واللغة ونطلب المساواة في مصالح الدنيا).

---

(1) فرحات عباس: ليل الاستعمار، تعريب: أبو بكر رحال، مطبعة المحمدية، المغرب، د. ت، ص. 60.

(2) محمد مساس: رفض الاندماج والمحافظة على الشخصية الدينية والوطنية، خطبة مخطوطة.

(*) يبدو وأن هذه الخطبة قد ألقيت في ظروف تقديم مطالب المؤتمر الإسلامي سنة 1936م إلى الحكومة الفرنسية.

ونفهم من هذا النص أن محمد مساس يتفق تمام الاتفاق مع موقف الجمعية تجاه السياسة الإدماجية التي ينادي بها بعض المستغربين الذين كانوا لا يرون حل المشكل الجزائري إلا في إطار الدمج التام للمجتمع الجزائري في كيان الأمة الفرنسية، فهو يستغرب من الذين يطالبون بهذه المسألة في الوقت الذي كان فيه الشعب الجزائري يعاني من التمييز العنصري والانحطاط الاجتماعي والتخلف الاقتصادي والثقافي. فهو يرى أن الجزائريين تكفيهم المساواة في الحقوق السياسية والمدنية مع احتفاظهم بأحوالهم الشخصية كمسلمين، وهو التحليل المنسجم مع طبيعة المجتمع الجزائري المسلم الذي لا يستطيع أن يتخلى عن هويته مقابل فتات العيش في ظل السيادة الفرنسية. ويتضح هذا الموقف أكثر في برنامج العلماء الذي كان ينشر باستمرار خلال الثلاثينيات والأربعينيات من القرن العشرين، وقد أوردت تقارير الشرطة الفرنسية شيئا من هذا البرنامج سنة 1940م عقب وفاة ابن باديس، ومما جاء فيه:

أولا- حرية تعليم اللغة العربية.

ثانيا- حرية فتح النوادي وبيع المشروبات المباحة لروادها.

ثالثا- حرية فتح المدارس والتعليم بالعربية والفرنسية، وإخضاعه لرقابة الأكاديمية.

رابعا- المحافظة على التعليم الديني في الجامع الأخضر.

خامسا- الحصول على اعتراف الإدارة الاستعمارية لخلافة الشيخ البشير الإبراهيمي لابن باديس في رئاسة الجمعية [1].

وبينما كانت تبدو على الشيخ أبي القاسم الزغداني مسحة من اليأس تجاه ذلك الواقع الأليم الذي يتخبط فيه الشعب الجزائري، فقد كان محمد مساس لا يشعر بشيء من هذا القبيل، وإنما كان يواجه ذلك الواقع بشيء من الحزم والشجاعة، ويترك ذلك للقدر يقدره، بينما كانت آلام الزغداني الشخصية تمتزج بآلام مجتمعه وأرقه المستديم هو في حقيقة الأمر سهر تفكير، وتخطيط من أجل غد أفضل، يشمل الجميع بالانفراج والسعادة. وقد عبر عن ذلك صديقه مصطفى بن حلوش في رده عن مراسلة الزغداني له: (عند التطبيق تعرف قيمة النظر المجرد، ولا تفهم من هذا أني أدعوك لليأس أو أعلن لك أني آيس، بل

(1) Police française: "rapport mensuel", archives historiques, Wilaya de Constantine: Mai 1940.

نعمل جميعا بتؤدة وعلى توال، ريثما يكثر سواد المتعلمين وتختمر عقلية الإصلاح في نفوسهم).

والحق أن الشيخ الزغداني لم يكن يؤوسا من نهضة الشعب الجزائري، إنما كان متذمرا من السياسة الاستعمارية التي ناءت بكلكلها على الشعب الجزائري، وحرمته من أبسط أبجديات الحياة، بل فإنه متفائل، مشجع لغيره، غير قانط ولا منهزم، بل فإنه يقاوم ثقافة الانهزام وضعف الإيمان في نفوس الناس، ويعول على التعليم والنهضة العلمية والأدبية في إخراج المجتمع الجزائري من النفق الاستعماري المظلم.

المطلب الثاني: رعاية النشء وتربية الأجيال

ومن الاهتمامات البارزة عند المصلحين رعاية النشء وتربية الأجيال، إذ يحتل هذا الموضوع حيزا هاما في نصوصهما المخطوطة والمنشورة، لأن النشء مناط آمال الأمة وطموحاتها في العيش بكرامة، واعتلاء سدة الرقي والتطور، وتحقيق السعادة المرجوة بين الشعوب الحية. والاهتمام بالجيل الصاعد يقتضي العناية بتعليمه وتربيته وتثقيفه، وبما يتطلب ذلك من بناء المدارس وانتقاء أحسن البرامج والكتب، وأفضل المدرسين والمربين، والاهتمام بدور المسجد والأسرة ورسالتهما في تنشئة الأجيال الجديدة، والأخذ بأيديهم إلى مدارج العلا، مرحلة بعد مرحلة، وطورا بعد طور إلى أن تتحقق الأهداف المرجوة، فيصبح الشاب بعد تعلمه وتكوينه وإعداده إعدادا كاملا رجل الغد، يعول عليه في المهمات الصعبة والمشاريع الكبرى، ويسهم في بناء وطنه وفق قيم شعبه وتراثه الحضاري العريق. والحق أن الحركات الإصلاحية التجديدية الحديثة في العالم الإسلامي كانت تركز بادئ ذي بدء على فئة الشباب باعتباره أمل الأمة وعمادها في المستقبل. وقد كانت جمعية العلماء في الجزائر تهدف إلى تكوين شباب متمسك (بعقيدة إسلامية جديدة)، بعيدة عن تأثير الطرقيين، إذ كان العلماء المصلحون أول من دعا إلى تكوين الكشافة الإسلامية، التي كانت تشحن بالأفكار الوطنية والمشاعر الدينية، ويوفر لعناصرها الألبسة والأوسمة[1].

وهكذا يلاحظ أن الزغداني قد أولى الشباب عناية خاصة، فاستفرغ وسعه وطاقته كلها في هذا الميدان، فلم يتوقف عن العمل والنشاط لصالح هذه الفئة منذ أن عاد من تونس، فكان يعلم ويرشد،

(1) Henry Benazet , opcit , p. 32.

ويفتح المدارس والكتاتيب القرآنية والنوادي والمساجد في إطار جمعية العلماء، إيمانا منه بأنّ المستقبل سيكون لهؤلاء الشباب، فلم يدخر أي جهد في سبيل ترقية الجيل الصاعد وشحنه بقيمه الدينية والوطنية، بعيدا عن الغلو والتطرف، لأن المصلحين المجددين في عامتهم كانوا وسطيين معتدلين سائرين على هدى المنهج العبدوي والباديسي خاصة.

يقول أحد طلبة[1] الزوايا بـــ عين البيضاء، محدثا عن أبي القاسم الزغداني: (إنني أذكر جيدا أننا – نحن الطلبة– التقينا بالشيخ زغداني بلقاسم في أحد حمامات عين البيضاء، فسألنا مستفسرا عن كيفية تعليمنا قائلا من أين تتعلمون؟ فأجبناه عند الشيخ بوكفة لخضر، فسخر منا، وقال ليس ذلك بتعليم ينفعكم، فإذا أردتم التعليم الصحيح، فإني أنصحكم بالذهاب إلى معهد ابن باديس –رحمه الله – فورا بقسنطينة).

يفهم من هذا النص أن الزغداني كان يحث الشباب على التعليم النافع المتبع للطرائق البيداغوجية الحديثة، الذي تعتمده جمعية العلماء المسلمين، والمستوحى من برامج جامع الزيتونة مما هو أفيد للأمة والوطن وطلاب العلم؛ على الرغم من أن علماء الجزائر كانوا كثيري النقد والتقويم لجامع الزيتونة، منادين على الدوام بضرورة إصلاحه وتطوير مناهج التعليم فيه. ومما يستشهد به في هذا السياق قول مصطفى بن حلوش[2]، أحد تلامذة جمعية العلماء في إحدى رسائله إلى صديقه الزغداني: (إنّ الأزهر وجامع الزيتونة للذين طالما تبرمنا بسلوكهما، وبالنظم المتبعة فيهما لعدم جريانها مع ما تتطلبه الحياة من اقتصاد في الوقت، وتسهيل في طرق التعليم). وقد استفاد من هذه التوجيهات التربوية التجديدية كل من الزغداني ومساس الإبراهيمي من أستاذهما عبد الحميد بن باديس، الذي أوصى طلبته المقبلين على التعلم في الزيتونة بقوله [3]: (أنصحكم أن لا تنخرطوا في الروتين الزيتوني، واقرؤوا العلم للعلم، واختاروا من الكتب أفيدها وأحصرها وأوضحها وأكثروا من المطالعة لأن المطالعة نصف العلم).

(1) عمار خليفي، مصدر سابق، ص. 37.

(2) أبو القاسم الزغداني: "كتاب خاص في معنى عام"، مصدر سابق، ص. 158.

(3) أبو القاسم الزغداني: "هذا هو الشيخ عبد الحميد بن باديس"، مرجع سابق، ص.5.

والحق أن هذا ما التزم به الزغداني على ما يبدو من خلال أرشيفه الشخصي، فلم يتقيد بنظام التعليم الرسمي المتبع في الزيتونة، ولكن كان يختار أصلح البرامج وأفيدها، وما هو بحاجة إليها -كما سلف الذكر- فتخرج من هذه الجامعة العتيدة أديبا مبدعا ملما بأساليب اللغة وأفانينها، وفقيها ألمعيا مستوعبا لمقاصد الشرع وكلياته وفروعه. ثم التحق بابن باديس مع الرعيل الأول من تلامذته الكبار الذين استجابوا لدعوته. وقد ورد اسمه ضمن قائمة (المعلمين الشيوخ: عبد الحميد بن باديس، عبد المجيد حيرش، حمزة بوكوشة المتخرجين من جامع الزيتونة المعمور، ومن كبار التلامذة الشيوخ: البشير بن أحمد، عمر دردور، بلقاسم الزغداني) [1] .

وقد كانت جمعية العلماء تهدف إلى تنظيم شبكة واسعة النطاق من العلاقات الاجتماعية لرعاية الشباب وتربيتهم دينيا ووطنيا من خلال المساجد والمدارس والنوادي والصحافة العربية من أجل تحقيق الغايات الآتية:

1- حمايتهم من عوامل الانحراف والفساد الخلقي.

2- استغلال طاقاتهم فيما يعود بالنفع والفائدة.

3- تربيتهم تربية قومية ووطنية سليمة حتى لا يجرفهم تيار الفرنسة والتغريب [2].

و أما محمد مساس، فقد شغله هو الآخر جيل الشباب فكان يدعو إلى تعليمه وتثقيفه وغرس العقيدة الإسلامية الصحيحة في روحه وعقله، حتى لا ينحرف عن جادة الطريق، وكان يدعو الشباب إلى التخلق بأخلاق الإسلام، وعدم اتباع أخلاق (الفرنج) الذين يختلفون عنه في الدين واللغة والعادات والتقاليد.

فهو يوجه خطابه للأمة حاثا إياها على تعليم الناشئة بقوله [3]:(ولا يكون النشاط والبذل والإتحاد إلا لرفع كابوس الجهل عن أبنائكم وبناتكم، ورأس قوام هذه الأشياء المال، وهذا أحسن باب ينفق فيه

(1) عبد الحميد بن باديس: "نداء وبيان إلى الأمة المسلمة "، مصدر سابق، ص. 5.

(2) تركي رابح: "جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التاريخية"، مرجع سابق، ص. 108.

(3) محمد مساس: الحث على تعليم الناشئة، خطبة مخطوطة.

المال). فهو إذًا يدعو أفراد الأمة إلى بذل المال لتمويل المشاريع التربوية والثقافية كبناء المدارس والمساجد. وهي مشاريع حرة اتبعها العلماء منذ عودة ابن باديس من جامع الزيتونة إلى قسنطينة سنة 1913م، لأن الجزائر كانت تشهد في تلك المرحلة جفافا ثقافيا قاتلا كما عبر عن ذلك ابن باديس فيما بعد، عندما قال فيما معناه إن الذين يموتون من الشعب الجزائر يوميا بسبب الجهل أكثر من الذين يموتون بسبب الفقر المادي. أما عن إعجاب محمد مساس بالفتيات المتعلمات فيقول: (قد رأيتم البنات اللاتي أتتكم من قسنطينة، كيف تعلمن وتثقفن ثقافة إسلامية عربية). ومن هذه الإشارة نفهم أن محمد مساس كان من دعاة تعليم المرأة المسلمة الجزائرية تعليما عربيا إسلاميا متفتحا، وهو في ذلك يساوي بين الجنسين في حظ التربية والتعليم، ولا يقصي أحدا منهما أو يقدم الذكور على الإناث.

وقد كان محتوى مناهج جمعية العلماء يقوم على ثلاثة أسس تتمثل في التربية الإسلامية المتينة والثقافة العربية الابتدائية والمبادئ الأولية للمعارف والعلوم [1].

كما يشيد محمد مساس أيضا في هذا السياق بالطرائق التربوية الحديثة التي اعتمدها ابن باديس في التربية والتعليم بقوله [2]: (هو الذي يقوم بإلقاء الدروس وتفسير الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، وتلخيصها، وإفراغها في قوالب سهلة المآخذ، ثم يرمي بها في آذان السامعين المتعطشين لتلك الدرر النفائس، ثم ينشر بعضها في مجلة الشهاب، لتكون المنفعة شاملة لكل المسلمين). ويدعو محمد مساس إلى تشجيع الشباب المتعلم بالمكافآت والحوافز، ودعم سلك التعليم بأحسن المدرسين.

وفي ذلك يقول [3]: (وجِدوا في تعليم أولادكم ورغِّبوهم في حفظ كلام الله بإعطاء الجوائز والمنشطات (المحفزات) التي تحملهم على الاجتهاد، فإذا حفظوه كله أو ما تيسر منه فاجلبوا لهم مدرسا بارعا يفسر لهم القرآن، ويبين لهم حلاله وحرامه). من هذه النصوص يتضح أن محمد مساس ينبه الأمة إلى وجوب تعليم الجيل الجديد وتثقيفه، لا فرق بين الذكر والأنثى، فالمجتمع مثل الطائر، يطير بجناحيه

(1) تركي رابح: التعليم القومي والشخصية الوطنية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائـــر: 1975م، ص. 277.

(2) محمد مساس: "الترحيب بأهل العلم"، مصدر سابق.

(3) محمد مساس: فضل القرآن، خطبة مخطوطة.

مثل ما قال ابن باديس. فعلى الأمة أن تهتم بتربيته على الأخلاق الحميدة مصداقا لقول الشاعر حافظ إبراهيم:

إني لتطربني الخلال كريمة *** طرب الغريب بأوبة وتلاق

و يحث على توفير الحوافز المادية والمعنوية ليتدرج هؤلاء الشباب في طلب العلوم والمعارف إلى أن يصبحوا مبدعين ومنشئين قادرين على النهوض بشعبهم وتحقيق الآمال والطموحات المعلقة عليهم.

ويشنع محمد مساس في موضع آخر على الشباب الذي هجر دينه وأخلاقه وقومه، فيقول[1]: (ولهذا أذكر تركهم للدين، وإعراضهم عن لغة الدين، وصدهم عن فوائد الدين، وانحلال العقيدة حتى يتساهل في ترك الصلاة والصوم والزكاة، وعدم الغيرة عن الحريم، والتشبه المبيد الذي لا يتميز به المسلم من الكافر). فهذه انتقادات وتوجيهات وإرشادات يقدمها المصلح للجيل الجديد، فيدعوه إلى التمسك بالعقيدة والأخلاق الإسلامية، ويقتفي في ذلك أثر أسلافه السابقين الفاتحين الأولين الذين امتثلوا للدين واقتدوا بأخلاق الأنبياء والمصلحين، ويحثهم على أن يكونوا متميزين عن الفرنسيين في أخلاقهم ولباسهم وسلوكاتهم ولغتهم، ووجوب القيام بفرائض الدين من أداء للصلاة والصوم والزكاة، وما إلى ذلك مما يفرضه الإسلام على معتنقيه، والغيرة على الأعراض لأنها من صميم الدين أيضا، وذهب في وصفه للاندماج إلى حد جعله موازيا للموت، لأن المندمج يفقد روحه وقيمه، وتميزه العام والخاص بعد أن يذوب في المجتمع الجديد.

ويضيف قوله للشباب: (هذا الناقل الكاذب، يقول، إن هذا الإمام يكفر الشباب، ويخرجهم من دائرة الدين، ولا يساوون عنده بصاقا، ولو كنت أكفرهم، وأخرجهم من دائرة الدين –كما قيل- فما الفائدة في تذكيرهم وتوجيه العتاب إليهم وإبلاغ الإرشاد إليهم).

والحق، أن المصلح محمد مساس ليس من ذلك الصنف من العلماء والفقهاء والمتشددين المتزمتين، وإنما هو من طراز آخر، يجنح إلى الاعتدال ويتوخى المنهج الوسط الذي يأخذ بأيدي الناس -بالتدرج- إلى الإصلاح وإلى الطريق القويم، فيصبر على الأذى، ويداوم على النصح والتوجيه، ويقدر الوضع

(1) محمد مساس: توجيهات إلى الشباب، خطبة مخطوطة.

الصعب الذي يمر به الشباب في ذلك الوقت حيث كان يتخبط في الجهل والأمية ويعيش تحت الهيمنة الاستعمارية، ولذلك فهو مدرك لهذه الظروف، واع بإكراهات تلك المرحلة العصيبة التي تمر بها امتنا، فيقدم الدواء بالجرعات المناسبة وفي الأوقات المناسبة، فهو الطبيب الذي يشفق على مرضاه، ويبذل قصارى جهده في سبيل راحتهم وسعادتهم، ويرى أن لا سعادة ولا نهوض لهؤلاء الشباب إلا بالتمسك بهويتهم الدينية والوطنية، والتميز بأخلاقهم وسلوكاتهم عن أعدائهم وخصومهم، فلهم دينهم وله دينه، ولهم مدنيتهم، وله حضارته العريقة، فليتشبث بثقافته وتراثه، وليستوح الدروس والعبر من تاريخه العريق، ولينهض برسالة التربية والتعليم والتثقيف، وليهتم بمستقبله ومستقبل وطنه.

والواقع أن الشيخ محمد مساس كزميله الزغداني، كان يهتم بالجانب الروحي والتربوي للنشء الجديد، ولكنه يغفل أحيانا الوضع الاقتصادي والسياسي التي كان يعيشه المجتمع الجزائري عامة وجيل الشباب خاصة، لأن التربية الأخلاقية والروحية في مثل هذه الظروف الاستعمارية الصعبة قد لا تستطيع أن تقدم حلا نهائيا للمجتمع الذي يناضل من أجله هذا المصلح أو ذاك، لأن التكوين الثقافي لبعض المصلحين لم يأخذ في الاعتبار القضايا السياسية والاقتصادية التي تشكل حجر الزاوية في حياة الفرد، لاسيما إذا كان واقعا تحت السيطرة الأجنبية مثل حالة الشعب الجزائري في عصر هؤلاء المصلحين، غير أن هؤلاء المجددين كثيرا ما يفتحون عيون شباب الأمة على المزالق والمخاطر التي تهددهم إذا تخلوا عن أخلاقهم وقيمهم الدينية والوطنية.

المطلب الثالث: مقاومة البدع والخرافات

لقد وقف الزغداني ومحمد مساس موقفا حازما صارما ضد كل المعيقات التي وقفت في طريق انعتاق الأمة وتحررها سواء كان ذلك من الاستعمار الدخيل أو العميل الذي تواطأ مع الأجنبي لتحقيق أطماعه ومصالحه الشخصية باستغلال جهل الناس بدينهم وأميتهم، كما أن طرفا آخر من العملاء ظل العين الساهرة المترصدة للوطنيين والمصلحين يشي بهم ويغري بهم عدوهم وفي ذلك يقول الزغداني [1]:

(ومما زاد الطين بلة كون ناصحي الشعب من أبناء عمومته علماء جامدين، ومستغلين طوائف من

(1) أبو القاسم الزغداني: "هذا هو الشيخ عبد الحميد بن باديس"، مرجع سابق، ص.5.

الطرقية المنحرفة، وبذلك عمَّ البلاء هذا الشعب).

والواقع أن جمعية العلماء عند تأسيسها كانت تضم في عضويتها عناصر من الطرقيين يحضرون جلساتها لا خدمة لغاية الجمعية، ولا إعانة لإدارتها، ولكن لتتواطأ مع الاستعمار، وتشي بها إلى إدارة الاحتلال، وما إن انقضى عام حتى اتضح لهم أن الجمعية لا تخدم أغراضهم، فانسحبوا منها وأسسوا جمعيات أخرى تناقضها وتناهضها [1].

ويقول أبو القاسم الزغداني بخصوص هذا الموضوع أيضا في موضع آخر: [2] (والاستعمار يضايق ويكيد، ومرتزقته من المنتسبين للإسلام، تعين وتنفذ، والشعب يسبح في بحر من الجهل والمرض والفقر).

ويبدو من هذا النص أن الزغداني كان يسعى ما وسعه الجهد إلى توعية الشعب وتبصيره بالوضع، بالدعوة إلى العلم والتوسع في نشره بين الناس، وبناء المساجد والمدارس والنوادي الثقافية وتنشيط العمل الجمعوي، مثل جمعيات التربية والتعليم، والجمعيات الدينية والخيرية، وتأسيس وتنشيط فرق الكشافة الإسلامية، كل تلك التشكيلات الاجتماعية والثقافية في جبهة واحدة موحدة متكاملة متعاونة في خدمة القضية الوطنية.

وفي المقابل نجد محمد مساس الإبراهيمي هو الآخر يقف إلى جانب شعبه يتألم لآلامه، ويسعد لأفراحه، يقاوم كل المعيقات الداخلية والخارجية بما يشنه من حملات شعواء على عملاء الاستعمار وأذنابه الذين وقفوا ضد مصالح وطنهم وأبناء جلدتهم وضد المصلحين الذين يحاربون التخلف الاجتماعي والثقافي والاقتصادي الناجم عن سياسة الاحتلال، ويعتمد محمد مساس على بعض النماذج العربية الإسلامية التي تلوم الذين يؤيدون الحاكم الظالم لشعبه، فيقتبس من المراسلة التي وجهت إلى الإمام ابن شهاب الزهري [*] من أحد إخوانه فيقول له [3]: (واعلم أنك آنست وحشة الظالم، وسهلت سبيل الغي بدنوك ممن لم يؤد حقا، ولم يترك باطلا حين أدناك، اتخذوك

(1) أبو القاسم الزغداني: "هذا هو الشيخ عبد الحميد بن باديس"، مرجع سابق، ص.5.

(2) مبارك الميلي: رسالة الشرك ومظاهره، شركة الشهاب، الجزائر: د. ت، ص. 288.

(*) الإمام الزهري هو شيخ الإمام مالك –صاحب المذهب الفقهي-.

(3) محمد مساس: الحث على اجتناب السلطان الجائر، خطبة مخطوطة.

قطبا تدور عليك رحى باطلهم، وجسرا يعبرون عليهم إلى ملاذهم). ولعل محمد مساس بهذا النص يعني بعض شيوخ الزوايا الذين قال عنهم المؤرخ الفرنسي شارل أندري جوليان – Charles André Julien – إنهم كانوا اليد التي يبطش بها الاستعمار، والجسر الذي يمر منه إلى بقية أبناء الأمة.

ويضيف في مكان آخر قوله [1]: (وقد علمتم أن المستعمر اليوم لا يعارضكم في شيء أكثر مما يعارضكم في العلم، خصوصا علم دينكم ولغة كتابكم).

فهو يرى أن المنطلق في سبيل النهضة العلمية والأدبية والاجتماعية هو القرآن واللغة العربية، ويرد على الطرقيين الجامدين فيقول لعضوين [*] في الجمعية الدينية: (أوَ دخلتما لقلب نظامها وإفساد مشروعها، إن كان هذا فالله يكفينا شركم، وشر كل مفسد وهو حسبنا ونعم الوكيل، ولا يسب ابن باديس إلا عدو للدين والحق والملة، خارج عن الإصلاح الذي يسعى إليه الشيخ ابن باديس -رحمه الله– وإذا كنتما كذلك، فأظهرا رأسيكما لتقمع وتقرع، هذا وأقول المثل المعروف: (إن عادت العقرب عدنا لها، وكانت النعل حاضرة لها). ومن هنا يتضح ولاء محمد مساس لشعبه ومناصرته لقادة الإصلاح الوطني، فيرد على الطرقيين الذين دفعهم الحقد الأعمى على العلماء والمصلحين إلى إيذائهم، لتحقيق مكاسب شخصية ضيقة. فهؤلاء الأعلام انتصروا للدين والعقيدة السمحة، وشمروا على سواعد الجد لنشر التعليم وبث الروح الوطنية في نفوس الجزائريين، ودعوتهم إلى المحافظة على الهوية الوطنية المتمثلة في الدين واللغة والتاريخ والعادات والتقاليد، ونبذ الاستغلال والظلم والعنصرية، سواء كان ذلك صادرا من المستعمر أو من بني ملتنا. وفي ذلك يقول فرحات عباس [2]: (إن فرنسيي الجزائر لم يكونوا في أول الأمر مجبولين على الشر والظلم، ولكن النظام الاستعماري الذي أقامته البرجوازية الفرنسية كيفهم على هذا النمط من السلوك، فاتخذوا – كلهم – من العنصرية مذهبا ومن الظلم دينا).

---

(1) محمد مساس الإبراهيمي: الحث على العلم ومناصرة العلماء المصلحين، خطبة مخطوطة.

(*) يقصد الشيخ العزوز والشيخ الحسن بولحبال.

(2) فرحات عباس: " ليل الاستعمار "، مصدر سابق، ص. 119.

وإذا كان فرحات عباس ينفي روح العنصرية والظلم عن الفرنسيين الأوائل الذين جاؤوا في ركاب الاحتلال واستوطنوا الجزائر، فإن الحقيقة غير ذلك إذا أخذنا بعين الاعتبار الأوساط الاجتماعية التي جاء منها هؤلاء المهاجرون الأروبيون، وهي أوساط تؤكد أن معظم الذين وفدوا على الجزائر عقب الاحتلال الفرنسي هم من شذاذ الآفاق، ومن غير المرغوب في بقائهم في بلدانهم لأنهم كانوا من المجرمين ومن المحكوم عليهم بالإعدام أو السجن المؤبد. ولذلك فإنهم كانوا من ألد أعداء الجزائريين، وأشدهم حقدا وكراهية لهم، فهم لا يرون إلا مصالحهم الخاصة فوق كل اعتبار. وقد كانوا يتحدون ويتضامنون ليس فقط ضد الجزائريين بل حتى ضد الحكومة الفرنسية ذاتها. وقد حاولوا الانفصال عنها مرتين على الأقل، عندما تعرضت فرنسا للخطر من قبل الألمان، الأولى سنة 1870م عندما هزمت أمام قوات الرجل الحديدي بسمارك، والثانية عندما سقطت باريس تحت ضربات النازية بقيادة هتلر سنة 1940م.

والحق أن زعيم النهضة العربية الإسلامية في الجزائر الشيخ عبد الحميد بن باديس قد عالج -قبل مترجمنا محمد مساس– الأمراض الاجتماعية والدينية التي سببتها الطرق الصوفية وزوايا المرابطين، بما شنه هو ورفاقه من حملات النقد والتجريح لذلك الرهط من الجزائريين الذين ساروا في ركب الاستعمار، وحوّلوا الإسلام في الجزائر إلى (فولكلور شعبي)، حتى أصبح المؤرخون الفرنسيون يسمونه بـــ (الإسلام الجزائري). وعلى نهج ابن باديس، نجد الشيخ مبارك الميلي مفكر ومنظر فلسفة جمعية العلماء يصدر مصنفا قيما حول (رسالة الشرك ومظاهره)، يحارب فيها الشرك بكل مظاهره، وينتقد العيوب والأخطاء التي وقعت فيها الزوايا ومريدوها مستدلا على ذلك بنصوص الكتاب والسنة وأقوال العلماء الثقاة، ويبرر الشيخ العربي التبسي حملات العلماء على الطرقيين وحلفائهم بقوله [1]: (إن دعوة جمعية العلماء هي دعوة المسلمين إلى السير على منهاج سلفهم الصالح في أخلاقهم وعباداتهم القولية والاعتقادية والعملية). وقد خالف هذا النهج بعض الزوايا المنحرفة عن جادة الطريق، ولذلك كانت حرب المصلحين الكلامية عموما على الطرقيين حربا قاسية هدمت صروحهم وفضحتهم أمام الجماهير الشعبية كما اعترفوا هم

(1) **ينظر، مقدمة "رسالة الشرك ومظاهره": مصدر سابق، ص. 5.**

أنفسهم بذلك.

وفي رد محمد مساس على بعض المارقين الذين يتدخلون في شؤون الجمعية الدينية وقد راسلوا – جريدة الميدان العدد 11- يؤلبون الناس ضدها ويقدحون في نزاهتها ويشككون في أهلية الإمام وأسلوب دعوته، فيرد عليهم ردا مفحما قاسيا، فيقول: (ولهذا تتبرأ منهم الجمعية ومن أقوالهم التي استنقصوا بها الإمام، وكل من قصد بيت الله بسوء أو قصد إمامه، فإن الجمعية تلقمه حجرا لأنه من قسم الكلاب العاوية) (*).

ويدعم هذا الموقف قول الشيخ البشير الإبراهيمي (1): (انتصرت جمعية العلماء بجهادها وعملها المتواصل في تحرير الإسلام بالجزائر من عدوين متعاونين عليه، عدو من أبنائه الذين شوهوا حقائقه بالضلال والتخريب وعدو من خارجه، وهو هؤلاء المستعمرون الذين غزوه بالجندي والمبشر والسياسي والحاكم). ويشيد محمد مساس في موضع آخر بالشيخ عبد الحميد، الذي انتصر للوطن والعربية والإسلام وقاوم كل أنواع الخصوم الذين وقفوا في طريق الإصلاح. من أهل البدع المنحرفين عقائديا، والعامة من الناس الجهلة الذين لم يدركوا رسالة الإصلاح فيقول (2): (هذا هو الذي أوذي في سبيل الله، وفي سبيل نشر العلم، وفي سبيل الوطن والدين، ولم يزلزل همته الحديدية لا معارضة الأب، ولا معارضة المتصرفين الغاشمين (**)، ولا ضرب هراوة المجرمين الحلوليين (***) ولا أقوال الرعاع، وذم الفساق المذبذبين). نلاحظ من هذا النص الذي كتبه محمد مساس عقب تعرض شيخه ابن باديس إلى ذلك الاعتداء السافر الذي دبره بعض الطرقيين الحاقدين على العلماء المصلحين، أن الحركة الإصلاحية كانت حركة موحدة قولا

(*) مراسلة موجهة إلى السيد أحسن الوارزقي مسؤول مجلة الميدان.

(1) محمد البشير الإبراهيمي: "الآثار"، ج4، مصدر سابق، ص. 88.

(2) محمد مساس: كلمة ترحيبية بالشيخ عبد الحميد بن باديس، خطبة مخطوطة.

(**) هم الحكام الفرنسيون.

(***) إشارة إلى الطرقي الذي حاول اغتيال ابن باديس يوم الأربعاء 09 جمادى الثانية 1345هـ /14 ديسمبر 1926م بقسنطينة بتوجيه من شيخه ابن عليوة –كما أشيع في ذلك الوقت- حيث ضُرب بهراوة على رأسه وخده الأيسر. (**ينظر، الشهاب، العدد 76، السنة الثانية: يوم الخميس 18 جمادى الثانية 1345 هـ/23 ديسمبر 1926 م**)، ص. ص. 14-15.

وعملا وعلما وتضامنا، حيث كان رجالها كالجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى. فدعوتهم إلى الحق واحدة، ومنهجهم في نشر العلم والإصلاح منهج واحد، وحملتهم على الشر حملة واحدة، ونظرتهم إلى مستقبل الوطن نظرة واحدة موحدة، فقد كانوا جميعا يدركون أن البلد المستعمر لا يزدهر فيه علم، ولا تنهض فيه سياسة، ولا يتحقق فيه أمل بشعبه لأن الاستعمار الاستيطاني لا ينظر إلا بعين واحدة إلى الأهالي المسلمين وهي جمع الضرائب وفرض الغرامات وتسليط العقوبات الجماعية، وإقصاؤهم من الحياة الحديثة التي ينعم بها الأروبيون الذين جاؤوا كالوباء الفتاك من كل حدب وصوب إلى البلاد في ركاب الاحتلال. فالحركة الإصلاحية إذا هي حركة شاملة لم تستثن عنصرا واحدا من عناصر الحياة الوطنية، ولذلك اعتبرتها إدارة الاحتلال الفرنسي العدو الحقيقي للوجود الاستعماري في البلاد. وإذا تحدثنا عن الزغداني أو محمد مساس أو غيرهما، فإنما نتحدث عن ابن باديس والإبراهيمي ومبارك الميلي والعربي التبسي وأمثالهما من أقطاب الحركة الإصلاحية الوطنية، فكلهم في خندق واحد لا يرون حرية الشعب وسعادته إلا خارج الدائرة الاستعمارية، ولكنهم كانوا يفضلون البدء بالعلم والتربية الخلقية والوطنية قبل كل شيء لأنهم يعتقدون أن الشعب الجاهل لا يمكنه أن يحافظ على استقلاله ولو أعطي له مجانا، وأن (الشعب الذي لا تبنى له المدارس تبنى له السجون) [1].

والإصلاح في الجزائر نوعان: إصلاح وطني وإصلاح تغريبي اندماجي، فأما الإصلاح الوطني فهو الذي ينبثق من الأمة ويستهدف استرجاع شخصيتها الدينية واللغوية والتاريخية (أي هويتها الوطنية) وينطلق من داخل الفرد بالتربية والتعليم وليس من خارجه. وأما الإصلاح التغريبي الاندماجي، فيريد أصحابه إصلاح المجتمع الجزائري بوسائل مستوردة غريبة عنه لغة وثقافة وحضارة مما يسهل ابتلاعه ودمجه نهائيا في المجتمع الفرنسي صاحب السلطة والسيادة في الجزائر. ولذلك لا يمكن أن نصف حركة العلماء في الجزائر بالعقم والتأخر ومسايرة السياسة الاستعمارية، كما لا يمكن أن نعتبر النوع الثاني من الإصلاح

(1) رابح تركي: "التعليم القومي والشخصية الوطنية"، مرجع سابق، ص.200.

إصلاحا وطنيا يخدم الشعب والبلاد دون فصله عن كيانه الأصلي [1].

المطلب الرابع: الجمع بين الأصالة والمعاصرة في الأخذ بأسباب القوة والرقي

يدعو المصلحان –موضوع الدراسة- إلى الأخذ بأسباب القوة والرقي، وأما القوة فهي قوة العلم بشقيه، علم مادي لا وطن له، تستفيد منه كل المجتمعات الإنسانية مهما اختلفت أجناسها وأديانها ومذاهبها، ولغاتها، وهي العلوم التجريبية التي لا تستغني أية جماعة بشرية عنها. إذا أرادت أن ترتقي وتنهض بوطنها إلى مصافي الشعوب المتقدمة، وعلم ذاتي خاص بتراث الأمة وحضارتها، فهذا العلم ينبثق منها ويتطور ويتجدد داخلها. فإذا أرادت أي أمة اللحاق بالأمم المتطورة، وجب عليها أن تتشبث بموروثها الحضاري، وتنطلق في اكتساب العلوم والتقنيات من الأمم الحية الأخرى، واضعة نصب أعينها حديث رسول الله: (الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق بها)[*].

ومن هذا الحديث النبوي الشريف، يمكن القول أن العلماء المصلحين في الجزائر عامة، كانوا يستهدفون النهوض بالأمة في مختلف المجالات وبكل الوسائل والإمكانات للحصول على مختلف العلوم والفنون الحديثة لأنهم كانوا يتخذون من النموذج الإسلامي السلفي مثالا لهم في دعوتهم المجتمع إلى النهوض من كبوته والسير في ركاب الحضارة الحديثة، وهو جمع واضح بين الأصالة والمعاصرة. وفي هذا السياق نجد محمد مساس أكثر تشبثا بالموروث الديني والحضاري، فهو يدعو إلى الالتزام بأحكام الدين، ويكل الأمر في هذا المضمار إلى العلماء المصلحين الذين طفقوا في نشر العلم، وتخليص العقيدة من الشرك والشعوذة والخرافة، واقتفاء أثر السلف الصالح في مجال العلوم والمعارف والآداب، والدعوة إلى تنوير العقول بالفهم الصحيح للدين والحياة معا. فمنهج محمد مساس في الإصلاح والتغيير هو منهج جمعية العلماء التي تشبع بفكرها، والذي يراه هو الكفيل الوحيد بنهضة الأمة ورقيها وازدهارها، مترسما

---

(1) عبد الكريم بوصفصاف: محاضرة ألقيت على طلبة الدراسات العليا بمخبر الدراسات التاريخية والفلسفية: 15 أفريل 2006م.

(*) رواه ابن ماجة (4169) والتِّرمِذي (3687) وقال: هذا حديثٌ غريبٌ، لا نعرفهَ إلا من هذا الوجه، وإبراهيم بن الفضل المدني المخزومي، يُضَعَّفُ في الحديث من قبل حفظه.

خطى أستاذه ابن باديس الذي يقول[1]: (إن نهضتنا قد بنيت على العلم أركانها، لا يخشاها والله اليهودي ليهوديته، ولا النصراني لنصرانيته، ولا حتى المجوسي لمجوسيته، ولكن يجب أن يخشاها والله الظالم لظلمه، والدجال لدجله، والجاهل لجهله، والخائن لخيانته). وإذا كان محمد مساس يتناول قضايا عصره تناولا عاما ومجملا، فإن الزغداني كان يفصل القول في كل الأمور التي تتعلق بالدين والدنيا، ويقف عند كل مسألة يرى فيها الخير والصلاح للأمة.

أما محمد مساس فإنه يدعو إلى طلب العلم ولكنه لا يحدد نوعية العلم الذي يمكن للأمة أن تتسلح به، غير أنّنا نفهم من مجمل خطابه أنه يقصد علم الدين والدنيا معا حيث يقول[2]: (وأمعن العلماء النظر في سبيل النجاة، فتيقنوا أن لا نجاة إلا في الدين القويم وشرفه العظيم، ولا يتم ذلك إلا بالعلم الصحيح الذي نفحته جمعية العلماء وأنارت سبيله، وأزالت عنه كابوس الشرك والبدع والأوهام، وأرجعته إلى ما كان عليه الصحابة والتابعون).

ويفهم من هذا النص أن محمد مساس كان يعني بعلم الصحابة والتابعين العلوم الدينية والدنيوية معا، لأن نصوصه كانت عامة مجملة، في حين نجد أن الزغداني يفصل القول ويسمي الأشياء بأسمائها، ويعالج المسائل الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والدينية والسياسية كلاّ على حدة، ومن الأمثلة على ذلك قوله[3]: (ألم يأن للشرق الإسلامي أن يتوب إلى ربه وقرآنه الذي يأمره أن يسبق الأمم سيادة وقيادة، علما وصناعة وعمارة للأرض ورهبة وإنسانية، يعرف كيف يؤسس اقتصاده، وكيف يبني مجتمعه وثقافته، ويعرف كيف ينميها ويحافظ عليها، خصوصا ومعه ضمان خالد قوي، دافع لسيره هذا، لأنه يحمل بين جنبيه راية الإبقاء لجمع هذه المؤسسات والمشاريع، وهي عقيدته القوية في الله، والخوف من عقابه).

لقد كان الزغداني كنظيره محمد مساس يرد كل نجاح إلى التمسك بالإيمان والعقيدة الإسلامية، بعد

---

(1) الشهاب، ج5، م 13، قسنطينة-الجزائر: جمادى الأولى 1356هـ/10 جويلية 1937م، ص. ص. 234-235.

(2) محمد مساس: مناصرة جمعية العلماء ورجالها، خطبة مخطوطة.

(3) أبو القاسم الزغداني: "التربية الحائرة"، جريدة الشعب، الجزائر: 1986/09/22م، ص. 10.

أن يدعو الأمة إلى العمل والاجتهاد في الحياة، ونبذ الكسل والتواكل، وأن تعرف كيف تؤسس اقتصادا قويا، ومجتمعا متماسكا نشيطا الذي يشبهه العلماء بخلية النحل. وانطلاقا من هذه النظرة الشاملة والفهم العميق لحياة المجتمع ومستقبله، فإن الرأي العام الفرنسي والإدارة الاستعمارية كانا يعتبران العلماء الأعداء الحقيقيين لفرنسا، لأن تعلقهم بالثقافة العربية الإسلامية كان يعطي لحركتهم بعدا واسع النطاق، يتجاوز الحدود الإقليمية ليشمل القومية العربية والإسلامية بصورة عامة [1].

وصفوة القول أن الزغداني ومحمد مساس كانا يعولان على دور العلماء والمثقفين والكتاب وكل القوى الحية في المجتمع من الأثرياء ورجال الأعمال وقادة الفكر والأحزاب السياسية، كل تلك الفئات والشرائح الاجتماعية وفي طليعتهم النخبة الوطنية مدعوون جميعا عند هذين المصلحين إلى النهوض بالوطن متشبعين بالعقيدة ومتسلحين بالوطنية والتفاني في خدمة الأمة وتحقيق آمالها في التحرر والسعادة والرقي إلى مصاف الدول المتقدمة والمتطورة.

المطلب الخامس: إشراك فعاليات المجتمع الجزائري المسلم في المشاريع الوطنية الكبرى

استنادا إلى أن العلماء المصلحين عامة ينطلقون من الانحطاط الداخلي للأمة والتدهور الخارجي الذي كان سببه الاستعمار الأجنبي، فإنهم كانوا يجمعون بين التربية الدينية والتربية الوطنية، ويعتمدون على الدين في بعث القيم والأخلاق الإسلامية في نفوس أفراد المجتمع بالرجوع إلى القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، اقتداءً بالآية القرآنية: (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) [*]. ويعتمدون على القيم والمبادئ الوطنية في مقاومة الاستعمار والأيديولوجيات الأجنبية الواردة على البلاد مع الغزاة الفرنسيين. ومن هذا التوجه الوحدوي الذي يجمع بين كل عناصر التقارب والتكتل بين أفراد الأمة، دعا المصلحان محمد مساس والزغداني إلى إشراك جميع فعاليات المجتمع بمختلف طبقاته في هذا البناء الوطني، ومنه تأسيس المدارس والمساجد والنوادي والصحافة التي تؤدي في مجموعها إلى إبراز الهوية الوطنية واستحضارها في الأذهان عند كافة الجزائريين الواقعين تحت الهيمنة الاستعمارية، لأن إبراز عناصر الهوية

(1) Mahfoud Kaddache: histoire du Nationalisme Algérien , tome I, S. N. E. D, Alger: 1980, p. 335.

(*) سورة الرعد، الآية 11.

الوطنية وبكافة أشكالها وألوانها تكوّن في أذهان الناس فكرة الدولة واسترجاع صورها التي كانت عليها قبل الاحتلال الفرنسي. وهو تصور صعب، تطلب من العلماء المصلحين عامة في الجزائر أكثر من عقدين متتاليين لترسيخها في الذاكرة الوطنية، وجعلها الهدف الأساس الذي تقاوم من أجله كافة القوى الوطنية كيفما كان مشربها ومصبها. ولا شك أن المصلحين محمد مساس والزغداني كليهما قد تربيا على هذه المفاهيم الجديدة التي كانت غائبة عن ذاكرة المثقفين الجزائريين قبل الحرب الكونية الأولى، واستوعباها وأخذ كل منهما يناضل من أجلها بالكلمة والقلم في كل موقع أو مكان يصلان إليه في مواجهة المجتمع الأهلي الذي كان مستعدا للهضم والاستيعاب في كل لحظة من اللحظات التي تجمعه بواحد من هؤلاء العلماء المصلحين المجددين الذين أحدثوا هزة قوية في المجتمع الجزائري ليس فقط في الأوساط الإسلامية الأهلية، بل حتى في الأوساط الاستعمارية ذاتها. فالأولون كانوا مستبشرين ومرحبين بهذه النهضة الجديدة، والأخيرون كانوا متشائمين ومتوجسين من مثل هذه الحركة الإصلاحية الجديدة التي (تحفر هوة بين الحضارتين الفرنسية والعربية بالجزائر) كما كتب عن ذلك متصرف فج أمزالة سنة 1954 م إلى الإدارة الفرنسية العامة بالجزائر مشيرا إلى ما تقوم به جمعية العلماء المسلمين من تعميق للثقافة الإسلامية (التعصبية)، ويعد ذلك العمل قاعدة ثابتة ينمو عليها الشعور الوطني الإسلامي[1].

فالزغداني مثلا يتساءل عن سبب فشل المشاريع الوطنية والإصلاحية عموما في الجزائر فيقول [2]: (وها أنت ترى معي، كيف أن مشاريعنا – على ضعفها وقلتها-كيف يعتريها الوهن، الذي يؤول بها إلى الفشل ثم الاضمحلال، ترى ما السبب في هذا الفشل الذي يغشى مشاريعنا الوليدة؟).

فالسبب في نظر الزغداني هو عدم مشاركة قسم قوي من هذه الأمـــة في تنميتها وإعانتها وهذا القسم هم الأغنياء والأطباء والمحامون والصيادلة وزعماء الحركات السياسية وغيرهم ممن من شأن وظيفته ومكانته الاجتماعية في الأمة، أن يؤثر فيها إلى أبعد حد التأثير، فتقبل الأمة على مشاريعها النافعة

(1) عبد الكريم بوصفصاف: " جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وعلاقاتها بالحركات الجزائرية الأخرى "، مرجع سابق، ص. 242.

(2) أبو القاسم الزغداني: "الدين والعلم والمال"، مصدر سابق ص. 3.

إقبالا جماعيا عاما، وهناك تتدافع الأيدي على إنهاضها من كبوتها فتنمو وتزدهر. فهو هنا لا يلقي اللوم بالدرجة الأولى على المستعمرين الذين يسيطرون على مقاليد السلطة في البلاد، وإنما يحمل المسؤولية لفئات معينة من الأمة ذاتها، على اعتبار أن هذه الفئات قادرة على النهوض بالجزء المتخلف من الشعب وهو الأغلبية الساحقة. ولعله بذلك يريد دعوة هذه الفئة الحية من الأمة إلى أن تبرز طاقاتها الوطنية من أجل خدمة الوطن والمجتمع معا، اقتداءً بأبي النهضة الجزائرية عبد الحميد بن باديس الذي يؤكد أن (حب الوطن من الإيمان).

وهكذا نلاحظ أن الزغداني يدعو قادة الأمة إلى تكثيف العمل والاحتكاك بالطبقات الحية لتحسيسها وتوعيتها بمكانتها ودورها في إنجاز المشاريع الوطنية الكبرى مثل: بناء المدارس والحرص على تمويلها والعناية بمدرسيها وأساتذتها وسلك التعليم فيها، وبناء المساجد ورعايتها لتتمكن من أداء رسالتها الثقافية والحضارية، ولتحفظ للأمة شخصيتها ودينها، فلا مسخ ولا طمس لهويتنا، ودعم كل المشاريع ذات الطابع الاجتماعي والاقتصادي والثقافي. تلك المشاريع التي يبنى على أساسها الوطن، ويهنأ بها المواطن. أما محمد مساس الإبراهيمي، فهو يركز على مؤازرة العلماء في تجسيد المشاريع، فيطلب منهم أن يسهموا في دعم مشاريع العمل الإصلاحي ويركز على التعليم كوسيلة أساسية في التربية والبناء والنهوض. وفي الوقت ذاته يعول على إسهام مواطنيه في دعم هذه المشاريع فيقول [1]: (فبفضل العلماء العاملين القادرين على البذل والعطاء، ليس التاركين والجبناء الخائفين، ننوه بمساعيهم الخيرة لأمتهم، ونؤازرهم في المشاريع التي يريدون بها حياة الأمة الإسلامية، وإرجاع مجدها وشرفها ودينها ولغة كتابها العزيز، وبهذا نخدم العلم والدين ونشارك في الخير مع المصلحين وننهض بأبنائنا مع الناهضين).

وهكذا، فإن محمد مساس يحارب التخلف الحضاري الشامل في كل الميادين، والتعويل في ذلك على العلماء المصلحين والخيرين من الأمة. فنتج عن ذلك الفهم العميق والاستيعاب الدقيق للمعركة التي تصدوا لها وهي المعركة الموجهة ضد التخلف والاستعمار. فابن باديس لم يهتم بالاستعمار كظاهرة سياسية منفصلة عما يحيط بها من ظروف اجتماعية ومعطيات اقتصادية، ومناخ فكري، ولكنه أبى إلا أن

(1) محمد مساس: "الحث على العلم ومناصرة العلماء المصلحين"، مصدر سابق.

يربط المعركة ضد الاستعمار بالمعركة ضد التخلف [1]. وهو ما نجده عند تلامذته ورفاقه كمحمد مساس والزغداني اللذين لم يكونا في مستوى ابن باديس، ولكنهما تركا آثارا دينية واجتماعية وثقافية بارزة في المجتمع، وكثيرا ما كنا نسمع من بعض المعاصرين الإشادة والتنويه المتكررين بعلم الزغداني ونشاطه في مجال الحركة الإصلاحية والنهضة الوطنية منذ بداية الثلاثينيات حتى توفي في نهاية السبعينيات.

(1) محمد الميلي: ابن باديس وعروبة الجزائر، ط2، المؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائـــر: 1973، ص.ص. 78 – 79.

المبحث الثاني: المجال السياسي والوطني

المطلب الأول: الرؤية السياسية

يشترك الزغداني ومساس الإبراهيمي في نظرتهما للسياسة حيث يرياها وسيلة للكفاح من أجل تحقيق حرية الوطن وسيادته، ولذلك مارسا نضالا سياسيا ضمن ما سمي بالمجهود الجماعي للحركة الوطنية، من غير أن ينتسبا إلى أي تنظيم أو حزب سياسي، سوى انتمائهما إلى جمعية العلماء المسلمين، حيث كانا عضوين نشطين بارزين فيها أسسا فرعين تابعين لجمعية العلماء في كل من عين مليلة وعين البيضاء، يقومان من خلالهما بنشر مبادئ وأهداف الحركة الإصلاحية التجديدية التي تنتهجها الجمعية منذ تأسيسها سنة 1931م، واستطاعا فعلا بواسطة هاتين الشعبتين أن يتصلا بالأوساط الشعبية، وأن يكسبا عددا معتبرا من الأتباع والأنصار في مجال التعليم والتهذيب ونشر فكرة الإصلاح الناضج، والذي تمتزج أساليبه وأفكاره بالمبادئ والقيم الوطنية التي تنشرها بعض الأحزاب الوطنية الثورية كنجم شمال إفريقيا وحزب الشعب الجزائري؛ وظل مناضلو الجمعية في شتى أنحاء الوطن يؤسسون أفواج الكشافة الإسلامية، ويجعلونها تابعة للجمعية ولو شكليا فقط، ولكن من الناحية المذهبية والفكرية كانت كل هذه الفروع تسبح في فلك واحد وهو فلك جمعية العلماء المسلمين الجزائريين. ومن جملة ذلك أنشأ الزغداني فوجا للكشافة الإسلامية في عين البيضاء على الأسس والمبادئ التي تتبعها كافة فروع الكشافة الإسلامية التابعة لجمعية العلماء. ومن هذا الفرع استطاع الزغداني أن ينشط الحياة الثقافية والوطنية بمنطقة أم البواقي، وأن يبذر في روح الشباب شعلة الدين والوطنية التي رفعت لواءها جمعية العلماء بقيادة العلامة الشيخ عبد الحميد بن باديس. أما في عين مليلة، فإن محمد مساس لم يكن نشاطه هو الآخر أقل أهمية من زميله الزغداني، وإن كان لم يرتق إلى مستوى النشاط الذي بذله الزغداني لاسيما من خلال المدرسة والكشافة. فمحمد مساس

أسس هو أيضا مدرسة العرفان لتعليم أبناء المسلمين الجزائريين العلوم العربية والدينية، ولكنه لم يؤسس فرعا للكشافة الإسلامية، بينما نشّط الجمعية الدينية بالمسجد العتيق تنشيطا واضحا، فهو إذًا قد بث في عقول الناس ببلدة عين مليلة روح الإصلاح والتجديد، وفتح عيونهم على حقوقهم المسلوبة من قبل الاستعمار الفرنسي، لاسيما الحرية الفكرية والوطنية والدينية وهي كل لا يتجزأ عند الإنسان المسلم في الجزائر.

إن عمل كل من الزغداني ومحمد مساس كان يصب في مصب واحد وهو مصب جمعية العلماء: (الإسلام ديننا والجزائر وطننا والعربية لغتنا)، (والحق فوق كل أحد والوطن قبل كل شيء).

وعلاوة على ما قام به الرجلان في ميدان التربية والتعليم، وفي إنشاء الفروع الكشفية وتأطيرها، والجمعية الدينية وتوجيهها، كان الزغداني يرافق ابن باديس حيثما حل وارتحل إلى أن وافته المنية (أي ابن باديس سنة 1940م)، أما محمد مساس فقد ظل هو الآخر رهن إشارة رئيس جمعية العلماء، يجده حين يطلبه، أو يأمره بتنفيذ خطة من خطط التعليم أو الإعلام، كإضافة بعض المواد التربوية والتعليمية إلى برامج الدراسة، أو كتابة تقارير إخبارية في صحيفة البصائر أو الشهاب عن وضعية الحركة الإصلاحية أو التعليمية في منطقة أم البواقي.

ولعل ما زاد الزغداني ومحمد مساس تشبثا بالوطن وفكرة الوطنية بمفهومها السياسي الحديث، دفاع ابن باديس المستميت عن الهوية الجزائرية، لاسيما ما كتبه بعد المقال الذي كتبه سنة 1936م في مجلة الشهاب، ردًّا على السيد فرحات عباس، الذي نفى وجود أمة جزائرية في شمال إفريقيا قائمة بذاتها قائلا[1]: (لا يا سادتي إن الأمة الجزائرية موجودة ومتكونة بمثل ما تكونت به سائر أمم الأرض، وهي ما تزال موجودة وستبقى). وبهذا النص يؤكد ابن باديس للمشككين والمفتونين بالحضارة الغربية (أن الأمة الجزائرية ليست هي فرنسا، ولا يمكن أن تكون فرنسا، ولا تريد أن تصير فرنسا، ولا تستطيع أن تصير فرنسا ولو أرادت، بل هي أمة بعيدة عن فرنسا كل البعد، في لغتها، وفي أخلاقها وعنصرها، وفي دينها،

(1) " كلمة صريحة " الشهاب، ج1، م 12، قسنطينة-الجزائر: أفريل 1936م، ص. 42.

لا تريد أن تندمج، ولها وطن محدود معين هو الوطن الجزائري بحدوده الحالية المعروفة). ومن هنا نعلم أن الأمة الجزائرية تختلف كل الاختلاف عن الأمة الفرنسية بحكم المنطق والواقع والتاريخ والجغرافيا والدين واللغة والعادات والتقاليد، فلكل أمة تاريخها وأمجادها، ولكل أمة ثقافتها وحضارتها، إذ تتميز الأمة الجزائرية بدينها الإسلامي الحنيف، وبالأخلاق الإسلامية الحميدة، ولذلك لا يمكنها أن تندمج في كيان غريب عنها، كما لا يمكنها أن تنمو في بيئة غير بيئتها، وفي محيط غير محيطها الطبيعي الذي نشأت فيه، وتفتقت فيه عبقريتها قرونًا من الزمن، فأنتجت دولا وحكومات عبر التاريخ والحضارات حتى سقطت تحت فوهات المدافع الفرنسية سنة 1830م.

المطلب الثاني: أساليب التغيير

لقد استخدم العلماء المصلحون وسائل متعددة ومتنوعة لإيصال رسالتهم النبيلة للمجتمع، ومنها الصحافة على وجه الخصوص، إذ هي وسيلة نقل ونشر الأخبار والمعلومات التي لها تأثير في مصالح الناس، وتجذب اهتمامهم بأمانة وصدق. وقد بدأت الصحافة في إيطاليا أواخر القرن السادس عشر (16م) وانتشرت تدريجيا في دول العالم المختلفة، والصحافة قوة فعالة في التأثير على الأفراد والجماعات، وتمارس عملية النقد والتقويم، وتربط الحاكم والمحكوم بالمصلحة الكبرى المتمثلة في مصلحة الأمة، وتسهم إسهاما فاعلا في ترقية اهتمامات الناس [1].

هذا، و لم يكن الجزائريون أثناء الفترة الاستعمارية غافلين عن أهمية الصحافة ولكنهم كانوا عاجزين عن إنشائها، فالأمير عبد القادر لم ينشئ جريدة لعدم استقراره في عاصمة إلا وقتا يسيرا أو لعدم توفر إمكانات الطباعة والخبراء، ولكنه كان يشترك في الصحافة الفرنسية ومنها جريدة الميثاق الدستوري ليطلع من خلالها على النظام السياسي الفرنسي ويحصل على معلومات تكون رصيدا لمناوراته الدبلوماسية.

أما الحاج أحمد باي قسنطينة فلم يحاول إنشاء جريدة أو مطبعة، على الرغم من الاستقرار الذي

(1) شعبان خضير: مصطلحات في الإعلام والاتصال، ط 1، دار اللسان العربي - الجزائر: 1422هـ، ص. 177.

كانت تنعم به عاصمة إقليمه طيلة سبع سنوات أو أكثر. وعموما فقد مرت الصحف في الجزائر بمراحل ثلاث بغض النظر عن اللغة التي كتبت بها:

المرحلة الأولى: من 1890 إلى 1914م.

المرحلة الثانية: من 1919 إلى 1939م.

المرحلة الثالثة: من 1940 إلى 1956م.

ومن أمثلة المرحلة الأولى صدرت جريدة **الحق** في 10 جويلية 1893م في عنابة بالفرنسية ثم **مزدوجة** على يد سليمان بن بنقي وعمر السمار وخليل قايد العيون، وفي حوالي سنة 1899م ظهرت جريدة **النصيحة** بالعربية. وفي المرحلة الثانية صدرت جريدة **الإقدام** سنة 1919م باللغتين العربية والفرنسية، وكانت تعبر عن حركة الأمير خالد، وظلت تصدر إلى غاية سنة 1923م حيث حكمت السلطات الفرنسية بنفي الأمير خالد من الجزائر. وفي سنة 1920م ظهرت جريدة **النجاح** بقسنطينة على يد الشيخ عبد الحفيظ بن الهاشمي، ثم انضم إليه الشيخ مامي إسماعيل، وقد استمرت إلى غاية 1956م. وكان ابن باديس من المؤسسين لها والمساهمين في تحريرها في العهد الأول، وكانت تدافع عن اللغة العربية وقضايا الوطن قبل أن تتحول إلى جريدة موالية للإدارة الاستعمارية بعد سنة 1931م. واستقل ابن باديس بصحافته الإصلاحية ابتداء من سنة 1925م، حيث أسس في هذه السنة جريدة **المنتقد**، وبعد توقيفها أصدر جريدة **الشهاب** في قسنطينة. واستمرت في الظهور إلى عشية الحرب العالمية الثانية. ومنذ سنة 1933م أصدرت الجمعية صحفها الخاصة مثل: الشريعة - الصراط - السنة – البصائر[1]. والجدير بالذكر أنه صدرت في هذه المرحلة جريدة أخرى في أم البواقي بعنوان **صدى الحراكتـــة** سنة 1931م [*].

ومن أمثلة صحف المرحلة الثالثة: جريدة **المساواة** بالفرنسية سنة 1944م، التي أصدرها حزب أحباب البيان والحرية، وتوقفت بسبب انتفاضة 8 ماي 1945م. ثم أنشأ فرحات عباس جريدة

(1) أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج5، مرجع سابق، ص. ص. 242-251.

(*) للتوسع، يراجع التطور الثقافي، ص.23.

الجمهورية الجزائرية سنة 1948م التي كانت تعبر عن فكره السياسي. و لم يصدر عن جمعية العلماء بين 1947-1956م سوى صحيفتين هما: **البصائر** سنة 1947م برئاسة الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ثم جريدة **الشاب المسلم** بالفرنسية موجهة لأنصار الإصلاح المتعلمين بالفرنسية والرأي العام الفرنسي [1].

و الجدير بالملاحظة أيضا أن لغة الصحافة السائدة في فترة الاحتلال هي اللغة الفرنسية، ونادرا ما كانت تستعمل اللغة العربية، بإضافة صفحات محدودة بالجريدة. وتبدو هذه الظاهرة منطقية بالنسبة للاستعمار، لأن محاربة اللغة العربية كانت ضمن خطته السياسية، وإصدار الصحف بالعربية كان ينظر إليه كخط سياسي وكعمل يجب منعه وعدم تشجيعه. وقد كان باروكاند أحد الأحرار الفرنسيين يعارض إنشاء صحف مستقلة باللغة العربية، ويرى وجوب إلحاقها بالصحف الفرنسية، وكان يلحق جريدته **(الأخبار)** المعروفة صفحتين بالعربية، ويسند رئاستها إلى عمر بن قدور الجزائري [2].

وتماشيا مع الخط الذي رسمه الإصلاحيون فقد وظف محمد مساس الإبراهيمي وسائل عديدة لخدمة مواطنيه وأبناء جلدته: وظف قلمه في تحرير مجموعة من المقالات –التي نشرت- في صحيفة الشهاب سنتي 1926م، 1927م: فكان سباقا إلى الكتابة كوسيلة من وسائل الدعوة والإصلاح الوطني. وكان يناظر غيره بعقلانية وتفتح على الرأي الآخر، فكان يحاور ويجادل بالأدلة والبراهين، انطلاقا من الآية الكريمة (وجادلهم بالتي هي أحسن) [*] ويدافع عن رأيه بكل ما أوتي من علم ودراية، وكان إذا استشكل عليه أمر يتطلب الرأي والاجتهاد، عرضه على المختصين من العلماء والفقهاء والكتاب من خلال صحافة العلماء لعدد من المسائل التي عرضها في صحيفة الشهاب، ومما جاء فيها (والكلام موجه إلى الأستاذ أحمد بوشمال المشرف على المجلة) [3]: (نرجو منكم إدراج هذه الأسئلة في أعمدة الشهاب لإطلاع قرائه عليها، راجين منهم الجواب عليها بالحظر أو الجواز، ليتضح حكمها ويستفيد منها من هو

(1) أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج5، مرجع سابق، ص. ص. 251-271.

(2) زهير إحدادن: الصحافة المكتوبة في الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية – الجزائر: د. ت، ص. 83.

(*) سورة النحل، الآية 125.

(3) محمد مساس: استفتاء حول مجموعة مسائل، مراسلة مخطوطة.

في حاجة إليها). ومن هذه الرسالة يتضح أن محمد مساس لم يكن يكتفي برأيه واجتهاده، وإنما كان يطلب رأي العلماء والفقهاء الآخرين ليكون لفتاواه المصداقية لدى جمهور وقراء صحافة العلماء بصورة عامة. وهذا الأسلوب يندرج ضمن إطار الحوار الديني والثقافي والاجتماعي، وليس كما يدعي البعض أن العلماء المسلمين منغلقون ومتطرفون وإنما هم خلاف ذلك تماما، فالمصلحان محمد مساس والزغداني يعالجان القضايا والمسائل الدينية بموضوعية وواقعية مستندين إلى المحكم من النصوص الشرعية، وما تقتضيه المصلحة. ومما بسطه محمد مساس للبحث مجموعة مسائل وهي: الضمانات – التأمينات - والمكوس في الأسواق والحوانيت، وكراء الأرض، والخماسة، والقرض من البنك. وهذه كلها مسائل العصر تحتاج إلى فتاوى شرعية.

وفي مقال له حول الزوايا والمريدين، يشن حملة شعواء على سلوكات بعض الزوايا المنحرفة، يكشف فيها العيوب بكل جرأة، ويعارض وجهة نظر الكاتب: المولود الحافظي(*)، الذي كان يتملقها في حديثه عنها، ولم يكن منصفا - في نظره - فيخاطبه قائلا [1]: (. . . تظن أنهم في كل أعمالهم محسنون لأنك لم تطلع على الظلم والجور واستعباد الأحرار وغير ذلك، ولو علمت جميع أعمالهم لما سميت -زواياهم- بالمعاهد العلمية، بل عكست وقلت معاهد الجهل والتوحش والكبر والعتو والفساد والتدجيل وتعظيم ما لم يعظمه الله).

فقد استطاعت سياسة الاحتلال أن تستميل إليها جماعة من رجال الطرق الصوفية المشعوذين والمنحرفين، وأن تكسبهم إلى جانبها فأصبحوا أداة في خدمة أهدافها ومصالحها ضد الكيان الجزائري والشخصية الوطنية، وكانو سببا في فتنة الشباب الجزائري المثقف ثقافة فرنسية خالصة بحيث أصبحوا

(*) (1880- 1948 م)، من مواليد مدينة بوقاعة ولاية سطيف، سافر سنة 1902م إلى مصر والتحق بالجامع الأزهر للتحصيل فنبغ في الفلك والرياضيات، وتحصل على الشهادة العالمية. عاد إلى الجزائر عام 1922م، حيث انتصب للتدريس في مسقط رأسه في بني حافظ، وبدأ نشاطه الصحفي مع جمعية العلماء ابتداء من عام 1925م، لكنه فيما بعد هجر الصحافة والجمعيات. وافته المنية في: 1948/02/03م. من مؤلفاته: مثلث الربع المجيب في الفلك وعلم الهيئة. **ينظر، خير الدين شترة، مرجع سابق، ص. 1083.**

(1) محمد مساس: "تبيين ما عليه المعاهد العلمية"، الشهاب، العدد 15، السنة الأولى 1926م، ص. 9.

ينفرون من الإسلام (الخرافي) الذي يمثله هؤلاء المشايخ المبتدعون في الدين، والذين كانوا بمساعدة الاحتلال يعملون على بسط نفوذهم على البسطاء من أبناء الشعب باسم الدين والتصوف الزائف، وذلك بقصد ابتزاز أموالهم في مقابل أن يعملوا بدورهم على تخدير الجزائريين وصرفهم عن مقاومة مشاريع الاحتلال ضد الشخصية الجزائرية وحرية الوطن واستقلاله [1]. ويتحاشى محمد مساس نقد الزوايا الإصلاحية العاملة المضطلعة بمهامها الرئيسة والتي رفضت الاحتواء من قبل سلطات الاحتلال مثل زوايا الزواوة ببلاد القبائل، وزاوية طولقة بضواحي بسكرة، وزاوية الهامل بضواحي بوسعادة ولاية المسيلة. والتي أسهمت كلها في إنهاض الجزائريين والمحافظة على اللغة العربية والدين الإسلامي، ومقاومة تيار الفرنسة الذي غزا البلاد وطغى على عقول الناس، وكاد يمسخ حتى معالم الهوية الوطنية [2].

وأما إذا انتقلنا إلى الحديث عن قرينه أبي القاسم الزغداني فإننا نجده هو الآخر لا يقل جدية ونشاطا عن محمد مساس بل وربما يفوقه كتابة ونشرا في صحف الجمعية، إذ شحذ قلمه هو الآخر للدفاع عن العقيدة والوطن وبني الوطن، وقد حرر مقالات عديدة أبان فيها عن نفسه وعن شخصيته، فهو المفكر الأديب – كما يوصف – والمقال الذي نشره تحت عنوان: (الغربلة قوام الحياة) [*]، والغربال مصطلح يستخدمه الزغداني كميزان ومعيار يميز به الأصيل من الدخيل ممن انضموا إلى جمعية العلماء المسلمين، إضافة إلى ذلك فقد أبدى فكرا متميزا من خلال مقاليه :(الأهلية والإخلاص) و(من أسباب نكبتنا ضعف تفكيرنا). دل هذان المقالان على أصالة في الكتابة وعمق في التفكير، وبعد وطني واضح في اهتمامه وانشغاله بقضايا الوطن والأمة الجزائرية، فلا يغفل عن التنبيه إلى ثغرة يجب سدها، أو إلى مشروع وطني ينبغي النهوض به بعيدا عن الاستعراض والتهريج. كما نلاحظ أيضا أنه يستخدم العقل أكثر في تفسيره أو فهمه للنص القرآني أو النبوي، فهو أقرب إلى العقلانية منه إلى السلفية النصية، وهذا

(1) تركي رابح: "التعليم القومي والشخصية الوطنية"، مرجع سابق، ص. 120.

(2) أبو القاسم سعد الله: "تاريخ الجزائر الثقافي"، ج3، مرجع سابق، ص. 227.

(*) هي في الأصل محاضرة بعنوان: "الغربلة قوام الحياة" ألقاها الزغداني في نادي الترقي بالعاصمة سنة 1932م، ثم طلب منه تلخيصها فنشرها في العددين 4 و5 من جريدة الشريعة، سنة 1933 م. **ينظر، محمد الحسن فضلاء: "من أعلام الإصلاح في الجزائر"، ج2، مصدر سابق، ص. 50.**

ناتج عن دراسته بالزيتونة حيث شهد الإصلاح والتجديد على أيدي شيوخ الزيتونة وأعلامها أمثال الشيخ محمد الطاهر بن عاشور صاحب (التحرير والتنوير)، و(مقاصد الشريعة)، وابنه الفاضل بن عاشور، وغيرهما من المجددين المجتهدين.

فالزغداني تلميذ في هذه المدرسة التجديدية، وقد نهل الكثير أيضا من أستاذه الشيخ عبد الحميد بن باديس. ولذلك فقد تصدى للمقلدين الجامدين، وتصدر للتغيير والإصلاح. فهو يصف (بعض العلماء بالجامدين المستغلين لطوائف من الطرقية المنحرفة) [1].

ويدعو في موضع آخر إلى الاعتدال وإخلاص العبادة لله تعالى، والالتفاف حول جمعية العلماء المسلمين فهي محل ثقة الجميع، فيقول [2]: (فلكل مقام مقال، ولكل زمان عقلية وأسلوب، ولكل سنة تحول في العمل وتجدد في الفكر، فلننـــتقل من قيل وقال، ولنعبد الله رغبة ورهبة، ولنسلك الاعتدال في عباداتنا، ولندع المكان فسيحا لأهل الجدال، فلنا ثقتنا الدينية والعلمية في علماء جمعيتنا).

ومن الصحافة ينتقل المصلحان محمد مساس والزغداني إلى وسيلة أخرى من وسائل التغيير وهي الوعظ من على منبر المسجد الذي كانا يتخذانه أداة لتبليغ مبادئ الدين وتعاليم الحركة الإصلاحية التي كانت تستهدف النهوض بالمجتمع دينيا وثقافيا واجتماعيا واقتصاديا. فالمسجد من أهم وسائل الإعلام باعتباره قلب المجتمع المسلم وملتقى المؤمنين لأداء حقوق الله تعالى؛ وهو مصدر طاقة روحية وفكرية بعيدة المدى، ففيه تقام حلقات الدرس ومناقشة قضايا تهم الرأي العام، وتلقى فيه خطب الجمعة التي تعتبر من شعائر الإسلام الكبرى، ومن ثم فإن موضوعاته قادرة على إحداث التأثير في الرأي العام؛ وتوحيده وتوجيهه الوجهة السليمة والصحيحة، وإذا فإن صلاة الجماعة في المسجد تقرب بين المسلمين، وتوحد قلوبهم وأفكارهم وتصلح ذات بينهم، وتتيح لهم فرصة تبادل الخبرات والأفكار والتناصح والتعاون على البر والتقوى بالاعتماد على المواجهة المباشرة والاتصال الشخصي[3]. فانبرى محمد مساس

(1) أبو القاسم الزغداني: "هذا هو الشيخ عبد الحميد بن باديس"، مرجع سابق، ص.5.

(2) أبو القاسم الزغداني: "الغربلة قوام الحياة"، مصدر سابق، ص. 4.

(3) خضير بن شعبان: "مصطلحات في الإعلام والاتصال"، مرجع سابق، ص. ص. 157- 158.

يدعو الشباب إلى الاستمساك بتعاليم الدين الإسلامي ويحذرهم من الرذائل والآفات الاجتماعية المنتشرة آنذاك مثل شرب الخمر والقمار، ويوجههم إلى الاعتداد بشخصيتهم العربية الإسلامية المتميزة، فيقول في إحدى خطبه[1]: (آسف على ما خالف به الشباب الآباء والأجداد الفاتحين فنقول الشباب (المتفرنج) أي الميال إلى أخلاق الفرنج ولغتهم وأزيائهم واندماجهم فيما يضرهم ولا ينفعهم، ونبهتهم على أن هذا التخلق المخالف المشين، يضر بالدين ويذهب بأبهته ومجده). ومن خلال هذا النص، يتطرق محمد مساس إلى عنصر الشباب الذي هو عماد الأمة وطاقتها الحيوية المتجددة فيحسن توجيههم وتربيتهم على الدين والخلق القويم، ويرشدهم إلى أداء الشعائر الدينية، والاجتهاد في تعلم اللغة العربية لغة الدين، كما يأخذ بأيدي الشباب بالحكمة والمرونة اللازمة، فلا يخرجهم عن دائرة الإسلام بسبب تقصيرهم في التزام أحكام الدين وشرائعه. كما يستغل محمد مساس المنبر في النهي عن الاعتداء على أملاك الغير ولو كانوا مخالفين لنا في الدين فيقول [2]: (ولكنكم تجاوزتم الحدود حين صرتم تأتون إليهم ليلا وتسرقون لهم حتى (القواطن) –الخيام- والسلاح. . . فكونوا أحرارا وكفوا أيديكم وأرجلكم عليهم). نستخلص من هذا النص أن محمد مساس مثل غيره من العلماء المسلمين يلتزم بأحكام الدين في التوجيه والإرشاد، فيدعو إلى حسن معاملة الغير ولو كان من غير ملتنا فلا يعتدى عليهم ولا تغتصب ممتلكاتهم، ويعتبر ذلك العدوان مجلبة للعار والفضيحة ومخالفة للدين. فالمنبر إذًا من أهم الوسائل في تربية النفوس وتنوير العقول وبث فضيلة التسامح بين أفراد المجتمع ومواطنيه بغض النظر عن الدين أو المذهب.

وخلاصة القول أن المصلحين محمد مساس والزغداني قد سلكا كل السبل واستخدما كافة الوسائل لتحقيق الإصلاح المنشود، الذي عمدته المدارس والمساجد والصحافة والنوادي الثقافية. وكلها كانت مجالات رحبة وخصبة لعملهم الإصلاحي، شأنهم في ذلك شان باقي المصلحين الجزائريين، فقد وضع الاثنان نصب أعينهما الهوية الوطنية الجزائرية، وتحرير عقول الناس وعقائدهم من الخرافة والأوهام والشعوذة على رأس أولويات العمل الإصلاحي الوطني. وكان مرجعهم في ذلك كله استراتيجية جمعية

(1) محمد مساس: "توجيهات إلى الشباب"، مصدر سابق.

(2) محمد مساس: النهي عن الاعتداء على أملاك المخالفين في الدين، خطبة مخطوطة.

العلماء المسلمين في التحرك للنهوض بالمشروع الوطني الذي قوامه العلم والعمل ووحدة الصف والكلمة لخدمة المواطن وتحرير الوطن.

المطلب الثالث: دور الكفاءة والأهلية في خدمة قضايا الأمة

لقد أسست جمعية العلماء المسلمين معهد عبد الحميد بن باديس بمدينة قسنطية سنة1947م وأسندت إدارته للعلامة الشيخ العربي التبسي خريج الزيتونة والأزهر، وعين للتدريس فيه أكفأ العلماء أمثال: نعيم النعيمي، وأحمد حسين، وعبد المجيد حيرش، ومولود النجار وغيرهم ... وكان المعهد بعد نشوب الثورة عام 1954م معقلا من معاقلها، ومركزا من أهم مراكزها حتى عام 1957م، فاحتلته فرنسا وشردت طلابه ونهبت مكتبته، وجعلته مركزا للاستنطاق والتعذيب. وقد اعترف بشهادة المعهد جامعات مصر وسوريا والعراق والكويت، وقبل طلابه في جامعاتها، وتخرج منهم أساتذة ودكاترة. وقد بلغ طلبته القمة في الشؤون العلمية والحربية والسياسية والإدارية، فقادوا الجيوش وسيروا الوزارات، ودرسوا في الجامعات وأشرفوا بكفاءة عالية على الإدارات [1] .

ومن هؤلاء الرواد شهد الشيخان محمد مساس والزغداني معظم الأحداث الوطنية الكبرى وتفاعلاتها المختلفة بدءا بسطوة الاحتلال وما نتج عنه من آثار سلبية على كل الأصعدة السياسية منها والاجتماعية والاقتصادية والثقافية والدينية، ومرورا بتأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين سنة 1931م، فانخرط الرجلان في العمل في شعب الجمعية تدريسا وإرشادا وإسهاما في نشر الوعي الديني والوطني، وتثبيتا لدعائم الهوية الوطنية الجزائرية من لغة ودين وتاريخ وثقافة. ونظرا للاحتكاك الدائم والمتواصل مع الناس، ومعايشة آلامهم وآمالهم، أضحى المصلحان واسعي المعرفة بالأمة، مطلعين على خفاياها وأسرار نفسيتها، متمكنين من طرق علاجها وتوجيهها، ومن لغتها التي يخاطبانها بها. وبذلك تكونت لديهم قناعة بأن لا يخدم الأمة إلا القوي الأمين، صاحب الكفاءة والأهلية، والأمين على دينها وعزتها. وقد أعجب ابن باديس بكفاءة الشيخ البشير الإبراهيمي والشيخ الطيب العقبي حيث قال

(1) أحمد حماني: "صراع بين السنة و البدعة"، ج2، مصدر سابق، ص. ص. 269- 270 .

فيهما[1]: (أفكر في تلامذتي وإعدادهم لمثل مقام هذين العالمين الأديبين العظيمين، فلن يحفظ الإسلام والعربية في الجزائر إلا بأمثالهما). وفي السياق ذاته، سار المصلحان محمد مساس والزغداني على منوال شيخهما ابن باديس فكانا يقدران ضرورة إسناد المهام الجليلة لذوي الكفاءة والأهلية والإخلاص، خصوصا ما تعلق منها بمصير المجتمع والأمة. ويلحان على ضرورة أن ينزل الناس منازلهم، وأن تسند الأمور إلى أهلها من ذوي الكفاءة والاختصاص بعيدا عن المحاباة والوصولية، ومن أمثلة ذلك يقول الزغداني [2] في مقال له بعنوان (الأهلية والإخلاص): (ففقدان الأهلية والإخلاص في مديري مشاريعنا ومؤسساتنا الاجتماعية، هو السبب في أن نرى في أنحاء الوطن من حين لآخر مشاريع تنهض وتسقط وتبنى ثم تنهار، فلو كان الشعب حينما يجتمع ليؤسس يجرد نفسه من كل عاطفة، لانتخب حينئذ رجالا أكفاء لذلك المشروع، يغذونه من أرواحهم وعقولهم وحكمتهم، ولسار في طريق النمو والإخصاب والإعمار).

وهكذا، فإن الزغداني قد حسم الأمر باعتقاده أن سبب نجاح أو فشل أي مشروع ثقافي أو اجتماعي أو اقتصادي، إنما مرجعه إلى من أسند إليه الأمر، فإن كان كفأ مخلصا ذا عزيمة صادقة ونية حسنة، وكان متجردا من العاطفة محكما عقله ومرجحا المصلحة العامة على المصلحة الخاصة كان مصير مشاريعنا النجاح الباهر. وإن لم نجتهد في اختيار الأصلح والأكفأ لحسابات فئوية أو قبلية أو مصلحية، فإن مآل برامجنا ومؤسساتنا ومشاريعنا على اختلاف مجالاتها ومستوياتها الخيبة والفشل الذريع، فلا ننهض بالوطن ولا تقوم للشعب قائمة. وأما محمد مساس الإبراهيمي، فقد تدخل بقوة لرفض أمر واقع بأحد المساجد بعين مليلة حينما تم تعيين إمام غير كفء، ينشر البدعة والشعوذة بين الناس، فانتفض غيرة على الدين لتغيير المنكر ومواجهة المتسببين فيه مهما علت رتبهم أو استحكم نفوذهم إذ يقول [3]: (ولماذا هذا الاستبداد في تسمية (تعيين) من ينشر العقائد الفاسدة ويرد الناس إلى وثنية الجاهلية الأولى،

(1) الشهاب، ج7، م12: أكتوبر 1936م، ص. 306.

(2) أبو القاسم الزغداني: "الأهلية والإخلاص"، البصائر، عدد 75: 11 أفريل 1949م، ص. 7.

(3) محمد مساس: العقيدة الصحيحة هي ما أمر الله الناس بها، خطبة مخطوطة.

ويحب منا السكوت على إضلال الأمة ولا يلوم هو نفسه التي أخطأت الصواب، وأمر بإحياء البدعة وتأييد المبتدعين، ونحن لا نسكت على الباطل والبدع خصوصا في المسجد، ولو كان الآمر بذلك هو القاضي، بل نجابهه بالإنكار الشديد، ولا نخاف في الله لومة لائم).

والحق أن الشيخ محمد مساس وقف طوال حياته ضد تضليل الأمة في دينها وعقيدتها، فنلاحظ أنه يتدخل كلما اقتضت الضرورة الشرعية والمصلحة الآنية يدافع عن العقيدة التي يريد البعض أن يبلغها للناس حسب هواه، وحسب ما تمليه عليه إدارة الاحتلال، للتأثير في نفوس الناس وذهنيتهم فتلين قناتهم ويسلس التصرف فيهم. فإنه يصارح الأمة بالحق الذي يؤمن به، ولا يداري المضلين وأعوانهم بل يواجه سطوتهم وغطرستهم مهما كلفه ذلك من تضحيات. فالمسجد بيت الله، وأمره موكول إلى أئمة المسلمين وعلمائهم، فلا يسمح لجاهل من المسلمين، أو غريب من غير ملتهم أن يتدخل في شؤون العبادة والعقيدة. فالأهلية والكفاءة والاختصاص مواصفات وضوابط مشروطة في من يتصدر من المسلمين للإرشاد والتوجيه والإفتاء بعيدا عن الضغط والإكراه والابتداع. وهنا نستحضر الكفاح المرير الذي خاضته جمعية العلماء وعلى رأسها الشيخ البشير الإبراهيمي لتخليص الدين الإسلامي وفصله عن الحكومة الاستعمارية، ومن لف حولها من المرتزقة والعملاء، فيقول [1] :(ألححنا في المطالبة لتحرير المساجد والأوقاف، وسقنا على ذلك من الحجج ما لا يدحض، وكشفنا عن المستور من مقاصد الحكومة، وقلنا لهم (بالقلم واللسان) إن سكوت من قبلنا لا يكون حجة علينا، وإن تخاذل من معنا لا يكون مسوغا لبقاء الوضع الجائر واستمراره). وهي دعوة صريحة لتخليص الدين ومؤسساته من تسلط الاستعمار وتدخله السافر في تعيين الأئمة الذين يتحكم فيهم ويدورون في فلكه، فكان العلماء والمصلحون يطالبون سلطات الاحتلال بفصل الدين الإسلامي عن الحكومة كما فوضت التصرف في شؤون الدين المسيحي واليهودي لرجاله وكهنته.

المطلب الرابع: التضحية في سبيل الوطن

لقد عاش الجزائريون ردحا من الزمن تحت الاحتلال الفرنسي، لا يستطيعون أن ينطقوا بكلمة

(1) محمد البشير الإبراهيمي: "الآثار"، ج3، مصدر سابق، ص. 107.

الوطن والوطنية لأنها تؤدي إلى الهلاك الأكيد. وبفضل نضالات الساسة والزعماء ورجال الإصلاح، أصبح الناس يصدعون بمطالب وطنية تخص الوطن والشعب والهوية والحرية والاستقلال. وقد أعلن ابن باديس مبكرا على رأس جريدة المنتقد شعاره: (الحق فوق كل أحد والوطن قبل كل شيء)، وأكد أن الوطنية الحقة هي التي تحافظ على الأسرة بجميع مكوناتها، وعلى الأمة بجميع مقوماتها، وتحترم الإنسانية في جميع أجناسها وأدياتها[1]. ومن درس أقوال ابن باديس – شعرا ونثرا – منذ سنة 1937م، تيقن أنه كان مؤمنا بالثورة، عاملا لها موعزا بها حيث يقول: **(والله لا تسلمنا المماطلة إلى الضجر الذي يقعدنا عن العمل، وإنما تدفعنا إلى اليأس الذي يدفعنا إلى المغامرة والتضحية، فما المغامرة في ميدان الكفاح إلا الثورة المسلحة، وأي تضحية ينوه بها ابن باديس ويهدد بها إن لم تكن التضحية بالنفوس)** [2].

وقد قدمت المدرسة الإصلاحية قوافل من الشهداء منهم: العربي التبسي، وأحمد بوشمال، ومحمد الزاهي ومحمد العدوي، وأحمد رضا حوحو وغيرهم كثير . . . ومن رواد الحركة الإصلاحية أيضا من قضى أغلب أيام الثورة في جحيم المعتقلات والسجون أمثال: محمد الشبوكي، ومحمد صالح بن عتيق، وعبد القادر اليجوري، والشيخ مصباح، وأحمد حماني، والسعيد الزموشي وغيرهم . . . [3] وفي هذا المضمار ظل محمد مساس والزغداني ينافحان عن الوطن ويعملان لصالح مواطنيه، استجابة لنداء جبهة التحرير الوطني الداعي إلى تكثيف الجهود وتوحيد الصفوف لرفض الاستعمار ومقاومته بكل الوسائل المتاحة. فانخرط المصلحان في العمل لتغيير الواقع ورفض الهيمنة الاستعمارية. فكانا يعملان بجد واجتهاد لصالح الثورة بمشاركة المخلصين من أبناء هذا الوطن. وأما الزغداني فقد ضيق عليه الاستعمار، فكان يحصي عليه أنفاسه، وظلت عيونه تترصده إلى حين التأكد من ثوريته ووطنيته، حيث كان يلتقي بالشباب ويحثهم على نبذ الاستعمار، ويقوم بالتوعية والتحسيس في صفوف القادرين على العمل لصالح الجبهة، فنفي إلى تونس، وانتقل إليها مكرها –كما سلف الذكر- وهناك فجر كل طاقاته في خدمة بني وطنه

(1) الشهاب، ج7، م13: سبتمبر 1937م، ص. 306.
(2) أحمد حماني: "صراع بين السنة والبدعة"، ج2، مصدر سابق، ص. 262 .
(3) المصدر نفسه، ص. 275.

اللاجئين في التعليم ومحو الأمية والإرشاد والتوجيه والإفتاء. ولم يسع إلى الحصول على شهادة العضوية في الثورة بل أثر عنه قوله أن ما قام به ما هو إلا واجب وطني قدمه في سبيل الله ولا يرجو إلا الجزاء والمثوبة منه [1]. وأما محمد مساس الإبراهيمي، فنظرا لنشاطه المكثف الذي عاينه الاستعمار بادر إلى غلق مدرسة العرفان التي يشرف عليها في عين مليلة، وضيق عليه الخناق هو الآخر، ولكنه داوم على العمل الوطني، ولم يكترث لذلك وبقي على صلة مباشرة وغير مباشرة بالمجاهدين والثوار -كما سبقت الإشارة- فكان يتشاور معهم في كل ما يطرح عليه من انشغالات وقضايا واستشارات شرعية وفتاوى، وينسق العمل مع عامة الشعب ممن يتوسم فيهم السرية والانضباط والإخلاص، وكان يقوم بعمل تحسيسي جواري تعبوي، يسهم في توعية الناس بضرورة التجنيد والمساهمة في تحرير الوطن، ورفع الغبن عن الشعب وتحرير الدين من استبداد "الحاكم الكافر"؛ ليعود إلى أيدي المسلمين الجزائريين، ولتعود أوقافهم الإسلامية لتصرف على مساجدهم ومؤسساتهم التعليمية والاجتماعية، وعلى مشاريعهم الخيرية لصالح الفئات الهشة في المجتمع [2]. وهكذا نلاحظ أن الوطن يتطلب التضحيات الجسام لتحريره من ربقة المحتل الأجنبي، ولا يضطلع بتلك المهام الجليلة إلا الوطنيون المخلصون المتشبعون بالوطنية الصادقة المنبثقة عن عقيدة سليمة تسعى دوما إلى تحرير النفوس والعقول من التبعية والهيمنة. وقد استرخص الأحرار من هذه الأمة أنفسهم في سبيل عزة الوطن وسيادته، مصداقا لقول الشاعر:

إنا لنرخص يوم الروع أنفسنا *** ولو نسام بها في الأمن أغلينا

(1) السيدة النعيمي فريدة، محادثة سابقة.

(2) حسان بارش، محادثة سابقة.

الخاتمـــــة:

لقد كانت فلسفة التغيير عند العلماء المصلحين الجزائريين ترتكز على أن صلاح التعليم هو أساس الإصلاح الاجتماعي والاقتصادي والثقافي والسياسي، لأن التعليم هو الذي يشكل عقلية الإنسان، ويطبعها بميزات تربوية واجتماعية خاصة. فالإصلاح إذاً يوجه إلى تنقية العقائد من كل الشوائب، وبث الأخلاق الحميدة في النفوس، لتتوسع الفضائل والقيم الإنسانية بين بني البشر. ومن ثم يمكن الحديث عن مجتمع صالح تتفاعل فيه شبكة من العلاقات الاجتماعية التي لا غنى عنها لأي تجمع بشري يتوق إلى التطور والرقي. وعلى خطى الإمام عبد الحميد بن باديس سار الشيخان محمد مساس الإبراهيمي وأبو القاسم الزغداني فكان لهما منهج واضح بيّن اتخذا له الوسائل الكفيلة بتنفيذه ميدانيا، تمثل في بناء المدارس والمساجد والكتاتيب القرآنية والنوادي الثقافية، والتي أسهمت في نشر التربية والتعليم ومكافحة الأمية ومقاومة البدع والخرافات، وبث الوعي الديني والوطني، وكشف أساليب الاستعمار وعملائه المحليين، الهادفة إلى طمس معالم الشخصية الدينية والوطنية للأمة الجزائرية. وكان الرجلان يتجاوزان حدود الإصلاح الشكلي إلى الميدان العملي وعمق قضايا المجتمع المختلفة، ولم يكونا مجرد مصلحين دينيين همهما إصلاح العقيدة وما يتصل بها فحسب، وإن كانا يوليانها ما تستحق من الرعاية والترشيد، ينطلقان منها لتنقية النفوس وتنوير العقول، وإعادة الثقة إلى مواطنيهم أمام الهجمة الاستعمارية التي أثرت على الفرد الجزائري، وكادت أن تقضي على شخصيته كإنسان صاحب هوية في وطنه؛ وإنما كانا يجمعان بين الإصلاح الديني والاجتماعي، والكفاح الوطني والسياسي، فضلا عن اضطلاعهما بنشر العلم والثقافة في ربوع منطقة أم البواقي. وهذا يفيد أنهما أديا أكثر من دور في أكثر من ميدان، وأنهما كافحا في أكثر من جبهة، مما يجعلهما جديرين بأن يتبوآ مكانة متميزة في الحركة الوطنية.

وبعد هذه القراءة المتأنية لنصوص المصلحين، وبعد استعراض جهودهما في المجالات الدينية والأخلاقية والتربوية والعلمية والوطنية، يمكن استخلاص النتائج الآتية:

أولا. على المستوى الديني والتربوي:

- ترسيخ العقيدة في نفوس الناس، وتعليمهم أحكام الشريعة الإسلامية وما يتصل بها من علاقات

اجتماعية واقتصادية وسياسية، وتبيين الحلال والحرام للناس، ومقاومة البدع والخرافات التي لحقت بالعقيدة بفعل سلوك بعض الطرق الصوفية الفاسدة.

- إلقاء دروس الوعظ والإرشاد بالمساجد لعامة المواطنين ليلا بعد صلاة المغرب والعشاء، وأيام الجمعة من كل أسبوع، واستغلال شهر رمضان في قراءة القرآن وإحياء المناسبات الدينية المختلفة.

- تنشيط عمل المدارس الحرة، وتنظيم دروس ليلية ونهارية للكبار والصغار والنساء والرجال في أم البواقي وعين البيضاء وعين مليلة ومسكيانة، وذلك بغية توسيع نطاق نشر التعليم ومكافحة الأمية والجهل.

- نشر اللغة العربية باعتبارها أهم المقومات الأساسية للشخصية الجزائرية في المدارس والمساجد والنوادي الثقافية.

- تربية الشباب تربية خلقية ودينية ووطنية بحيث تجعلهم حراصا على مقومات شخصية وطنهم العربية الإسلامية وهي اللغة والدين والوطنية الجزائرية، وحماية الجيل الصاعد من عوامل الانحراف السياسي والفساد الأخلاقي.

- تربية المجتمع على التعاون والتضامن والتآخي، ونبذ الفرقة والشحناء بين الناس والدعوة إلى احترام الجار وإغاثة الملهوف ومساعدة المعوزين والمساكين الذين يعانون من ويلات الفقر والحرمان بسبب السياسة الاستعمارية الجائرة.

ثانيا. على المستوى القومي والوطني:

- إحياء الثقافة العربية ومحاولة بعثها في ثوب جديد يتلاءم مع تطور العصر، وذلك عن طريق توجيه الشباب إلى العناية بالتراث العربي الإسلامي في جوانبه اللغوية والأدبية والدينية.

- تعليم الأطفال الأناشيد الوطنية التي كتبها بعض المصلحين الجزائريين أو التي جيئ بها من المشرق وتلقينها للأطفال وحثهم على إنشادها كل صباح. ومن أمثلة ذلك:

يقول ابن باديس: شعب الجزائر مسلـــــــم وإلى العروبة ينتســـــب

من قال حاد عن أصـــــله أو قال مات فقد كذب

ويقول مفدي زكريا:	فداء الجـــزائر روحي ومالي	ألا في سبيل الحريـــــــــة
	فليحيا حزب الشعب الغالي	ونجم شمال إفريقيـــــــة
ويقول محمد العيد	من جبالنا طلع صوت الأحرار	يناديا للاستقـــــــــلال
آل خليفة:	يناديا للاستقـــــــــلال	لاستقـــلال وطنـــــــنا
ويقول بشارة الخوري:	كشاف هيـــــــــــــا	طلق المحـــــــــــــيا
	أدّ إلى الهـــــــــــدى	رسالة الفـــــــــــدا

- تدريس التاريخ الوطني، وترسيخ مفهوم الوطنية للأطفال من أقدم العصور حتى عصرهم، وتدريس التاريخ العربي والإسلامي لشحن ذاكرة الأطفال بالماضي المجيد للأمة، وتفنيد النظرية الاستعمارية التي تفيد بأن أصل الجزائريين –عرقيا– ينحدرون من بلاد الغال (La Gaulle) بجنوب فرنسا، وتأكيد الانتماء إلى الأصل العربي من شبه الجزيرة العربية، كما هو رأي معظم المؤرخين الثقاة. وقد كانت مادة الجغرافيا تتعاون تعاونا وثيقا مع مادة التاريخ الوطني، ومع مادة الأناشيد الوطنية في غرس عاطفة حب الوطن وسكانه ولغته ودينه وثقافته، وكان التركيز ينصب على أن الجزائر بلاد عربية إسلامية وليست جزءا من فرنسا كما يزعم قادة الاحتلال. وظل شعار المصلحين: الإسلام ديننا والجزائر وطننا والعربية لغتنا، وعمل على تطبيقه ميدانيا كوادر المدرسة الإصلاحية وعلى رأسهم محمد مساس الإبراهيمي وأبو القاسم الزغداني.

- إيقاظ وبعث الوعي الوطني والقومي للجزائريين من خلال النشاطات التربوية المختلفة، وبث روح المقاومة الصلبة في النفوس ضد كل ما يمس العقيدة واللغة والشخصية الوطنية.

ثالثا: شكّل اهتمام الرجلين بقضايا المجتمع الفكرية والدينية والعلمية والفقهية السمة البارزة في منهجهما، فكانا لصيقين بالواقع يعبران عنه أصدق تعبير، ويمثلان نبض أحاسيسه ومشاعره. وإذا كان الزغداني أقرب إلى الناحية الفكرية منها إلى الناحية الفقهية، نلحظ هذا من خلال نصوصه ومقالاته، فإن

محمد مساس الإبراهيمي طغى عليه الجنوح إلى البحث الفقهي إلى درجة الإفتاء في بعض القضايا الجديدة المطروحة حينئذ مثل التأمينات والقروض البنكية وأكل اللحوم المستوردة من الخارج، ومسألة الاعتداء والسطو على ممتلكات الغير من المخالفين في الدين وما إلى ذلك من مسائل وأقضية فرضها الواقع الاجتماعي والسياسي، فكان متصديا لها برصيده العلمي والفقهي، و لم يتردد في عرض اجتهاده وطلب آراء الآخرين من باب التشاور بين علماء المسلمين وفقهائهم.

رابعا: إذا كان الشيخ محمد مساس قد سكن واستقر في محيطه الحضري والمسجدي، وما نتج عن ذلك من مجهود ثري في مجال الوعظ والإرشاد والتربية والتعليم والاهتمام بقضايا المجتمع، فإن الشيخ أبا القاسم الزغداني كانت آفاقه أرحب، وفضاؤه الذي يتحرك فيه أوسع، بحيث كان يتميز بنشاطه وحيويته يطوي المسافات ويتنقل من إقليم إلى آخر تحقيقا للمصلحة العليا للأمة.

خامسا: ظل إصلاح المجتمع في النواحي المختلفة من الحياة الإنسانية، وتحريره من التبعية السياسية والتخلف الحضاري في فكر المصلحين محمد مساس والزغداني هاجسهما وهمهما السياسي والوطني المشترك، حيث ذادا عن الوطن بكل ما أوتيا من طاقة علمية ومعنوية، إذ دفع محمد مساس بفلذتي كبده نجليه عبد الله ومحمد علي إلى ميدان الشرف حيث انخرطا في صفوف جيش التحرير الوطني، وأبليا البلاء الحسن في ذلك إلى أن تكلل الجهاد بالنصر المؤزر على أبشع استعمار استيطاني.

سادسا: من خلال هذا العمل العلمي، تمكنت من الاطلاع على معظم أعمال الرجلين بواسطة أقاربهما وأقرانهما وتلامذتهما، بالإضافة إلى إنتاجهما المخطوط والمنشور. وبذلك تتأكد أهمية البحث في الأعلام ودراسة سير الرجال وجهودهم الإصلاحية وتأثيرها في تاريخ الأمة .

فالمرجو من المؤسسات المختصة العلمية منها والثقافية والسياسية أن تحفز على البحث في الأعلام لاستخلاص التجارب الناجحة والمناهج المفيدة من خلال الدراسات التراثية والبيوغرافية المتخصصة لتسترشد بهم الأجيال الصاعدة والقادمة ضمانا للتواصل الحضاري بين الأجيال.

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾(*)

(*) سورة يوسف، الآية 111.

ملاحق البحث

الملحق الأول: تراث محمد مساس الإبراهيمي

ويتضمن المخطوطات التي كتبها بخط يده، وهي عبارة عن دروس ومواعظ دينية، وشجرة النسب ووصف رحلته إلى بيت الله الحرام، بالإضافة إلى مراسلات واردة إليه من شخصيات وطنية. وقد وجدت كل هذه المخطوطات بحوزة نجله الصادق مساس، ولا زال يحتفظ بها في محل إقامته بمدينة عين مليلة ولاية أم البواقي. ويحتوي هذا الملحق أيضا على مقالتين مطبوعتين بصحيفة الشهاب.

الملحق الثاني: تراث أبي القاسم الزغداني

ويتضمن إجازة التحصيل وشهادات خبرة. وهي بحوزة نجله عبد الحميد الزغداني، الذي يقيم بحي عبد الحفيظ بوالصوف بمدينة قسنطينة. كما يحتوي هذا الملحق على مجموعة من المقالات المطبوعة بصحف جمعية العلماء المسلمين.

الملحق الثالث: الخرائط والصور العامة والشخصية

ويتضمن الخريطة الإدارية لولاية أم البواقي، وصور شخصية للمصلحين محمد مساس والزغداني وأقاربهما وتلامذتهما، وصورة جماعية لأقرانهما في الحركة الإصلاحية.

الملحق الأول: تراث محمد مساس الإبراهيمي

ملحق I - رقم 1 - شجرة النسب

ملحق I - رقم 2 – رحلة الحج

الحمد لله وحده ... وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم

هذا رحلتي إلى أداء واجب الحج بعثة الكرمة

هذا أضبط لمن يريد الحج ذهابا وإيابا. فقد سافرت إلى الحجاز في شهر ذي القعدة يوم ... سنة ... وفي شهر ... بعد المسيح يوم ... سنة ١٣٣٨ هجرية يوم الثلاثاء بعد الظهر وعشرينا البابور بعد الغروب وبات يسيرنا على البحر إلى الصباح وسرنا بسرعة على السباحة الذاهبة صباحا للركوب حجاج تونس فضل بركب وعشية قبل الغروب بيسير قرا منشر فالحجاز ووصل إلى برج سعيد صباح يوم الأحد قبل هذا وبات وصباح يوم الاثنين دخل القمة ليجتازها إلى البحر الأحمر وسار فيها مائة وثمانون ميل ويقصر ... بعد ثمان ساعات وعندها رسى في السويس في يوم الاثنين ووقف القمر وباشر في البحر الأحمر وصباح يوم الثلاثاء وصلنا إلى يوم الأربعاء بعد الزوال وما خرجنا في الفلك الأربعاء العصر جاء سفر خفيف الجو وبعد مضي أربع ساعات ليلا خرجنا منها في السيارات الكبيرة إلى محطة العشر ملجأ وفيها صلاة الصبح يوم الخميس في الجملة. وفي آخر المسيح ملكنا بمكة أربعة أيام وكل يوم نطوف فيه ونسعى وفي الثالث هجرنا إلى منا فوقفنا بها ويوم الأربعاء صلاتنا وقوفا بعرفة إلى الغروب الشمس يوم الأربعاء وافى وبتنا جزء من ليلة الخميس ثم رجعنا إلى المزدلفة بعد ما بتنا ثلثي الليل وفي الثالث الخير ركبنا في السيارات مع عسكر ابن السعود إلى منا ووصلنا هذا قبل الفجر وبعد ما طلع الفجر يوم العيد رجعنا جزء الفقيد واحد نا ونحرنا وتحللنا ثم رجعنا إلى مكة للصوان الواقعة فيها

1

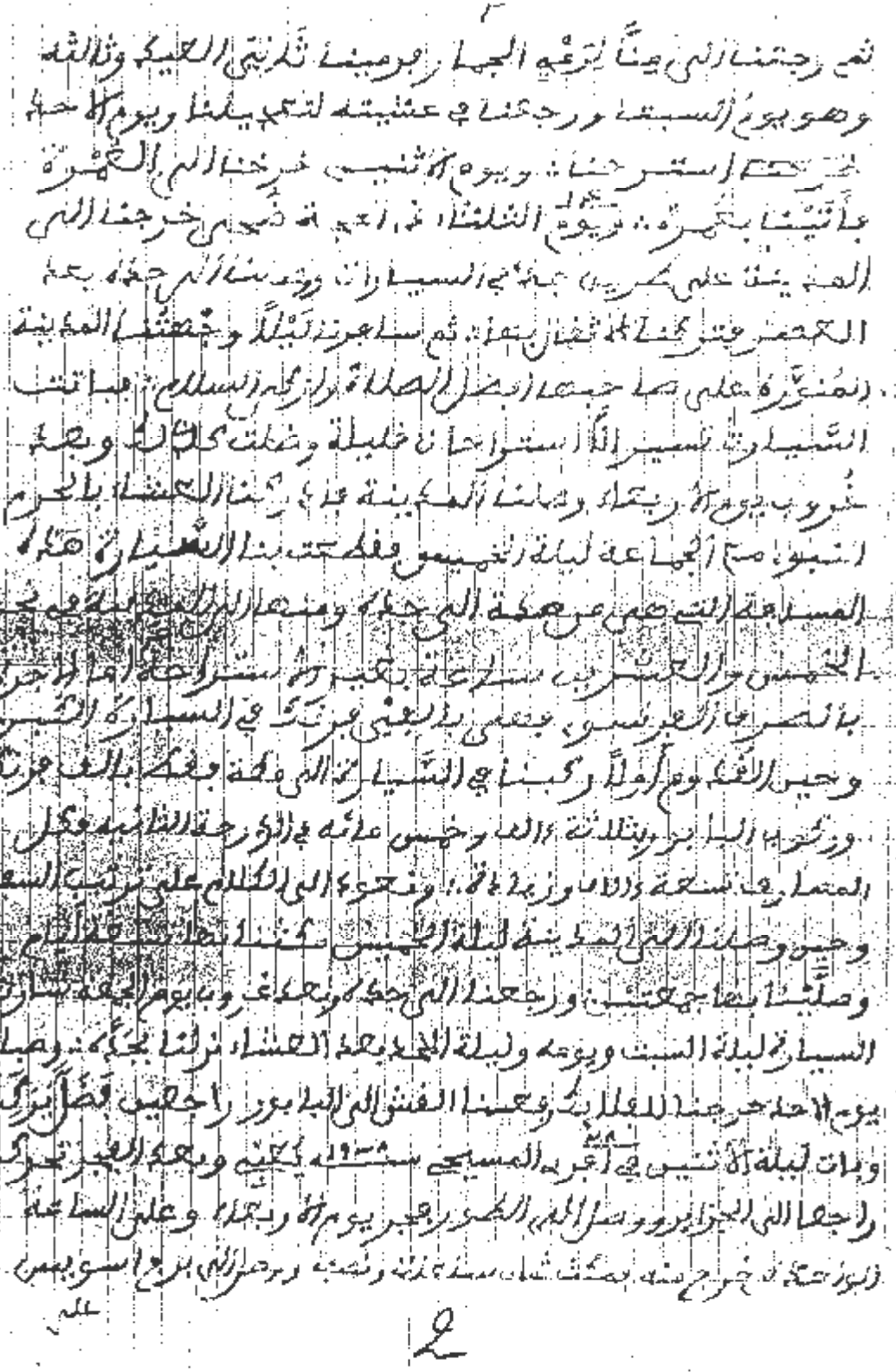

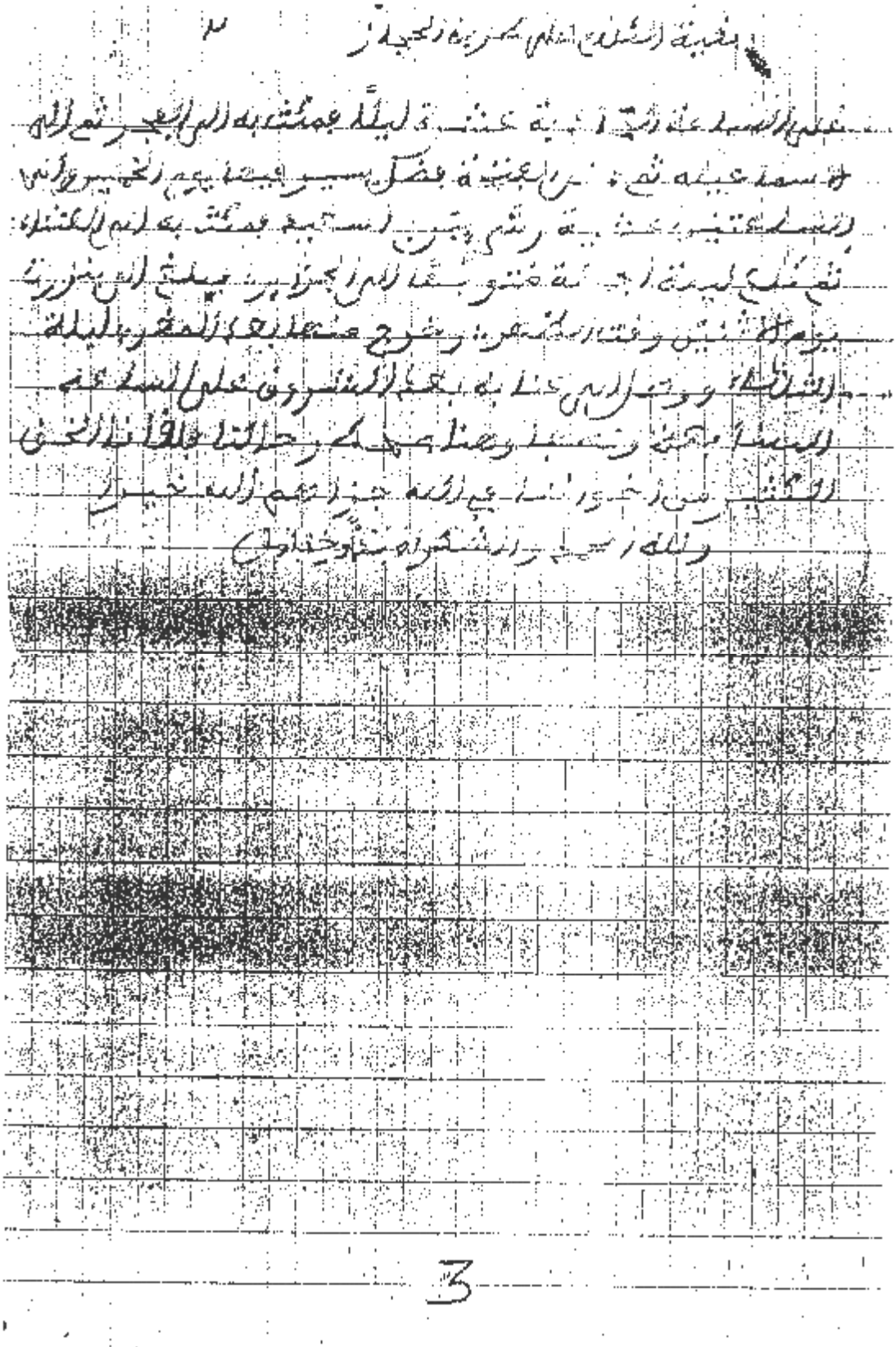

ملحق I - رقم 3 – رد الشيخ البشير الإبراهيمي على محمد مساس

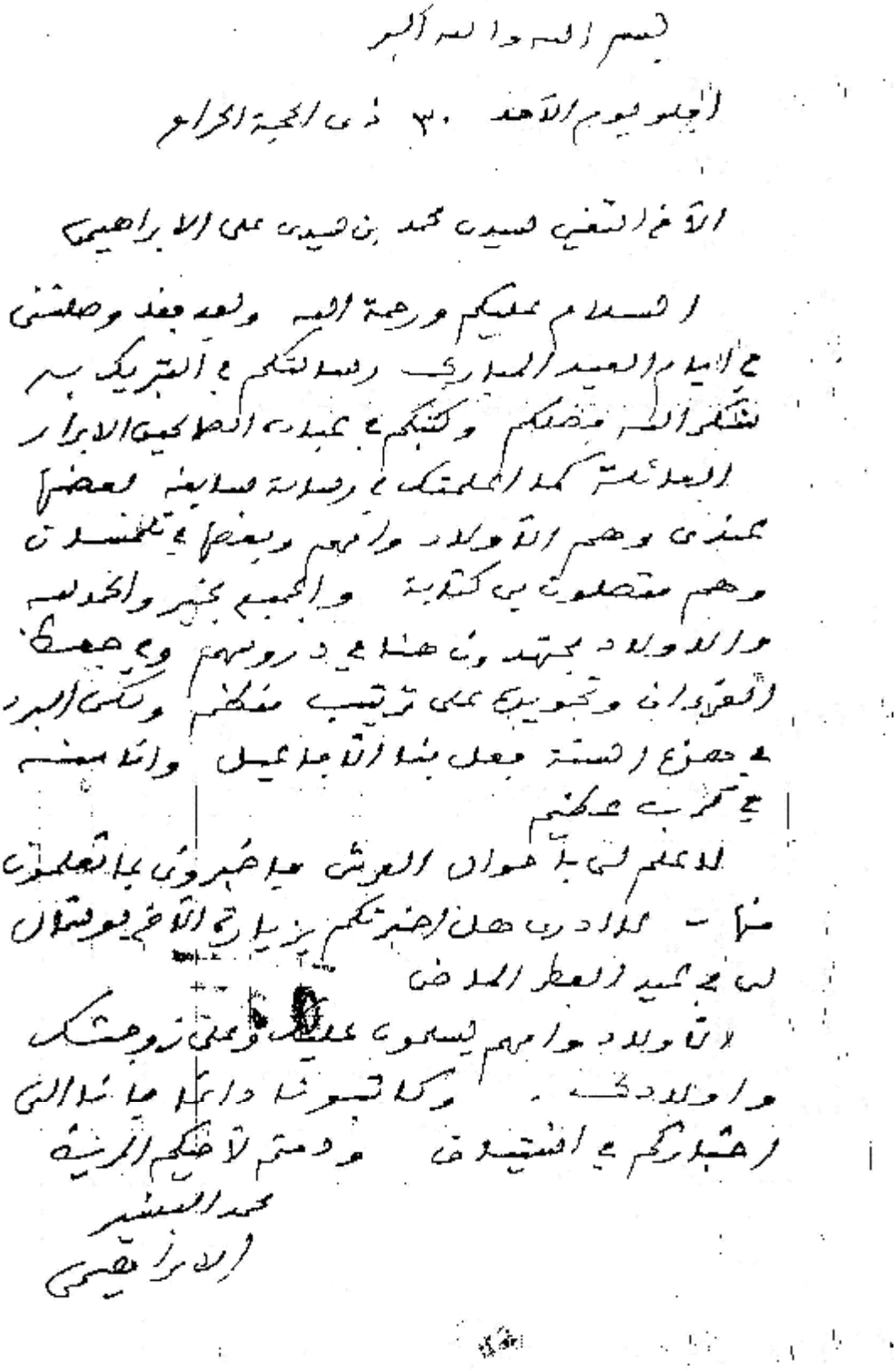

بسم الله والله أكبر

الجزائر يوم الأحد ٣٠ ذي الحجة الحرام

الأخ المتفضل السيد محمد بن السيد علي الإبراهيمي

السلام عليكم ورحمة الله وبعد فقد وصلتني من الأيام البعيد البياري رسالتكم و التبريك بهم تتكرر الله مقصدكم وكتبكم و عبده الصالحين الأبرار العلماء تحمد الله على ذلك و رسالة صاحبه بعضها بعضاً وهم الأولاد وأمهم وبعضها تلتمسان وهم متصلون بي كتابة والجميع بخير والحمد لله والأولاد يجتهدون هذا العام في دروسهم وفي حفظ القرآن وتجويده على ترتيب معلمهم ونسأل الله بفضل الله أن يجعل بنا الأولاد وإنا بهم قرة أعين لنا ولكم

لا علم لي بأحوال العرش هناك فاسألوا عنها من يعلمون

س ١ – الأولاد هل أخبرتكم بزيارة الأخ فيوقتان لم يجد أحمد الخط الماضي

الأولاد وأمهم يسلمون عليك وعلى زوجتك وأولادك . وكل تبعاتنا دائما ما نسأل الله أن يجعلها في اعتدال وسلام لأخيكم البشير

محمد البشير

الإبراهيمي

ملحق I - رقم 4 – رد الشيخ البشير الإبراهيمي على محمد مساس

بسم الله الرحمن الرحيم

محمد البشير الإبراهيمي
٣٣ شارع مراد بك
مصر الجديدة – القاهرة
٦٥٣٤٠

القاهرة في ٦ أكتوبر سنة ١٩٦١

ولدنا الأديب الشيخ محمد الأمين المدعو جامع عليه سلام
السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

وصلتني رسالتك على يد قرابتي بارك الله فيكم وفيهم
عن القرابة ووصلة الرحم خير ! فقد قمتم بالواجب كما ترام
فكنتم تزورون العائلة لما كانت بالجزائر ثم أصبحتم
تزورون البعض بعد ذلك - مباركة وبنانة وأحمد
ولا أعرف من كان يبلغني كل ذلك في حينه فلذلك لم
أوجه بعوقكم ثم بلغني من أحمد أنكم لم تجدوني
في غربتي وهو يثني على هذه الزيارة كثيرا.

والآن وقد بدأ الشتاء يجتمع فنحن نحدد لكم ولكم
ولتتعاون لتقريب الفرج. ومحمد زارنا هنا في باريس ثم زارنا
بعضا عندكم في الدار البيضاء يوما ورجع الى باريس وحجب
أرقامه إلينا وعاد بها فأخذت كثيرا بها، ثم رجع محمد الى
الرباط مؤذنا زوجته وأولاده بسفرهم الى هناك
في انتظارهم. سهل الله لقاءنا بكم وبكم جميعا
بسلام الأهل وزينب وأهلكم وأبنائكم وبناتكم مرسلين
وتحياتي الى جميع الأقارب والأصدقاء.

والدكم
محمد البشير

ملحق I - رقم 5 – تعضيد ودعم عمل الجمعية الدينية

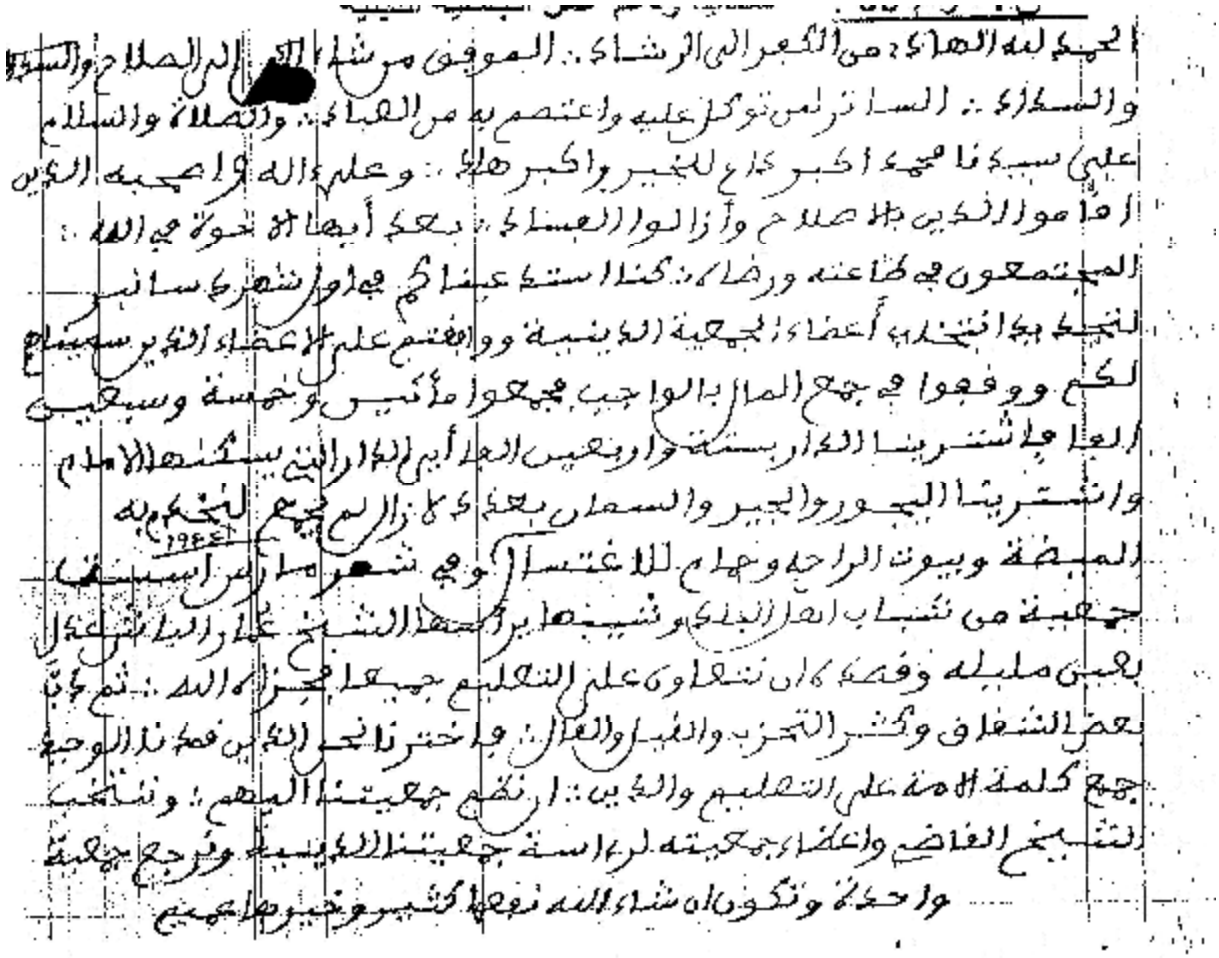

ملحق I - رقم 6 – رد على التشكيك في نزاهة الجمعية الدينية

ملحق I - رقم 7 – التكافل الاجتماعي

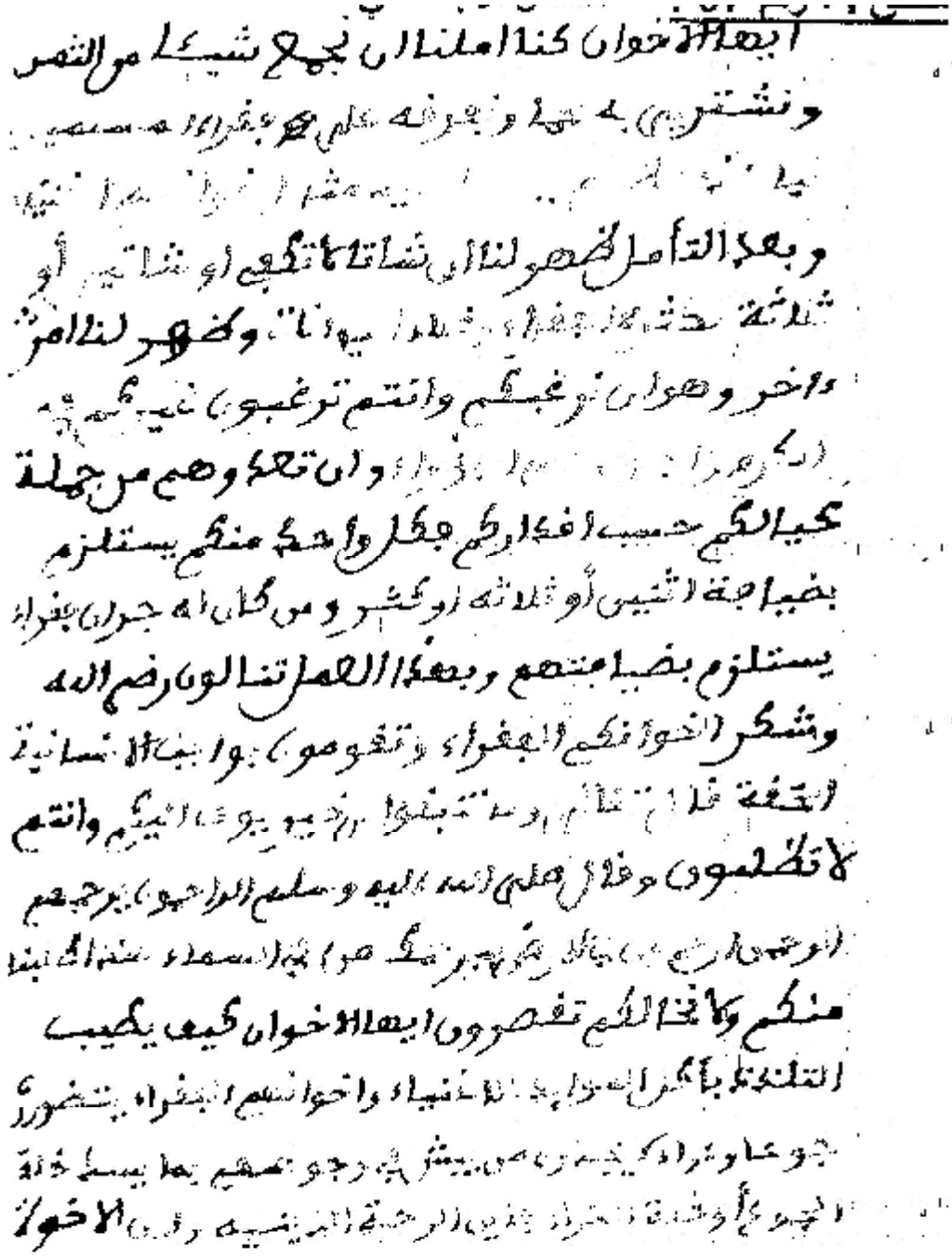

..I..

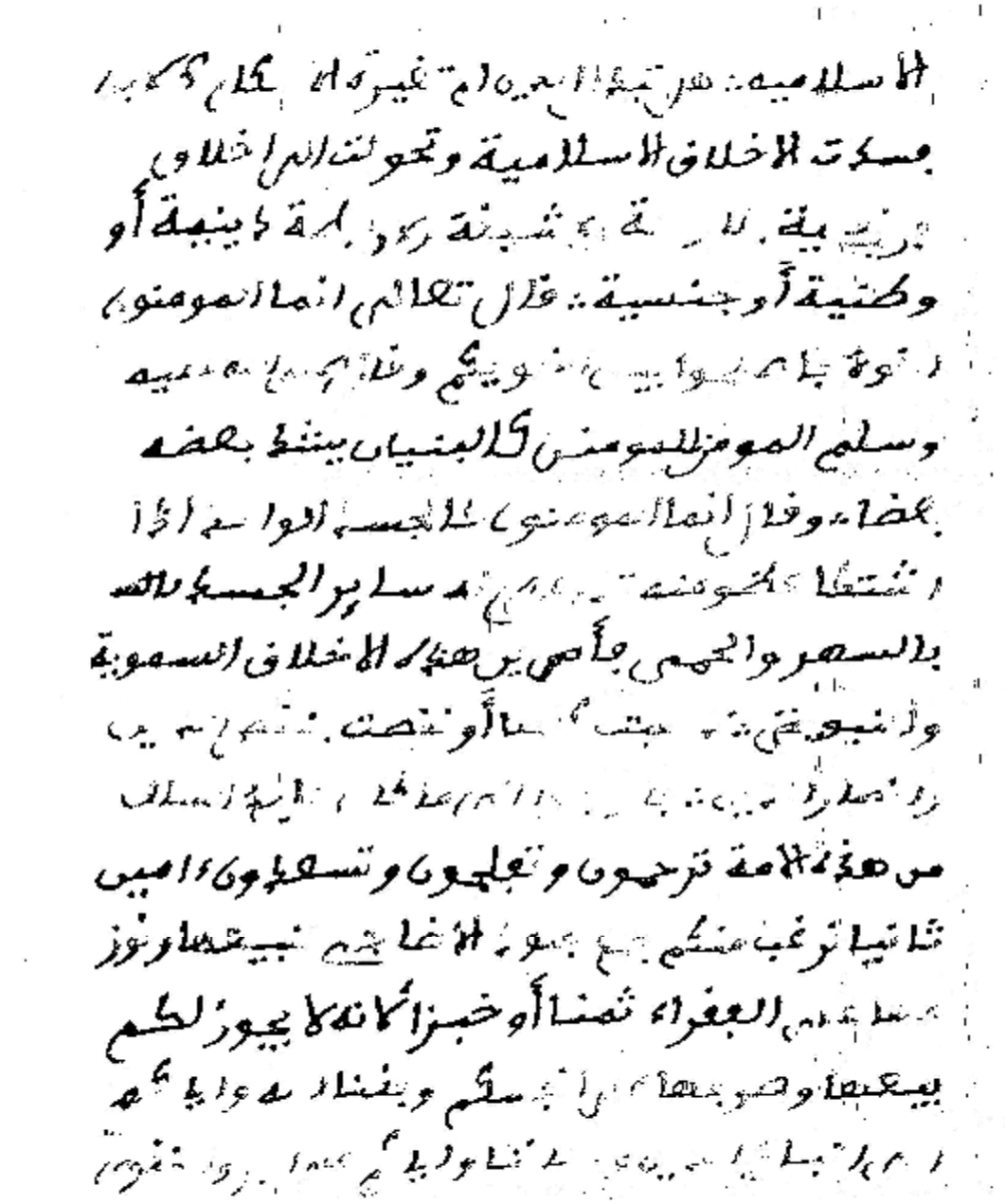

ملحق I - رقم 8 – فضل العلم والتعلم

قوله تعالى إنما يخشى الله من عباده العلماء الى أن قال ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير جنات عدن يدخلونها يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير وهدوا الى الطيب من القول وهدوا الى صراط الحميد: وقال هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون انما يتذكر أولوا الالباب: وقال هل يستوي الاعمى والبصير أم هل تستوي الظلمات والنور: وروى انس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال من تعلم كسلان افضل عنه الله من سبعين أنه عابد مجتهد: وقال صلى الله عليه وسلم من طلب العلم وادركه جاز له كجلاد من الاجر وان لم يدركه كان له كجل واحد من الاجر واحد: وقال عليه الصلاة والسلام من كانت له همة في طلب العلم سمي في السماء نبيا وكتب الله له بكل شعرة في جسده ثواب نبي وكلما أعتق بكل قدم رقبة: وبنى الله له بكل حرف في جسده مدينة في الجنة ويدخل الجميع بغير حساب: قال تعالى فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء قال المفسرون الهدى والتوحيد من اعظم أسباب شرح الصدور: والشرك والضلال من اعظم أسباب ضيق الله الصدور وانحراجها: ومنها النور الذي يقذفه الله في قلب العبد وهو مفتاح الانجاز فانه يشرح الصدر ويوسعه ويفرح القلب: فاذا وقع هذا النور في قلب الفسيح انفتح وانشرح وصار قلبا آخر غير القلب الضيق الحرج الصغير المنضغط: وفي الترمذي في جامعه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اذا دخل النور القلب انفسح وانشرح: قالوا وما علامة ذلك يا رسول الله قال الانابة الى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل نزوله فيطيب العبد من انشراح صدره بحسب نصيبه من هذا النور وكذلك النور الحسي والظلمة الحسية هذا انشراح الصدر وهذا ضيقه: ومنها العلم فانه يشرح الصدر ويوسعه حتى يكون أوسع من الدنيا

ملحق I - رقم 9 – المواظبة على حضور اجتماعات الجمعية الدينية

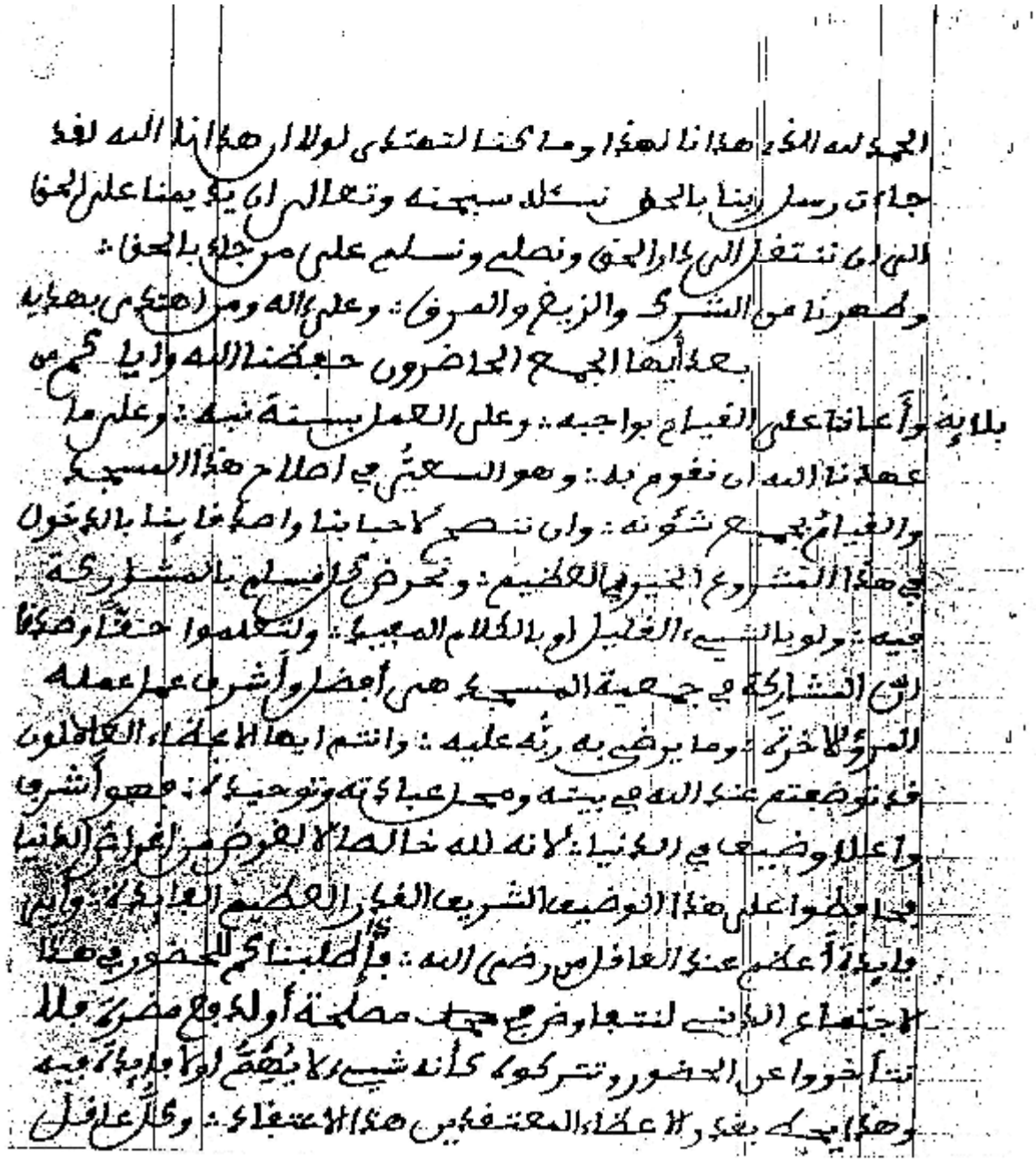

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله لقد
جاءت رسل ربنا بالحق نسأله سبحانه وتعالى أن يديمنا على الحق
إلى أن ننتقل إلى دار الحق ونصلي ونسلم على من جاء بالحق:
ونطهرنا من الشرك والزيغ والعرف: وعلى آله ومن اهتدى بهداه
بعد أيها الجمع الحاضرون حفظنا الله وإياكم من
بلائه وأعاننا على القيام بواجبه: وعلى العمل بسنة نبيه: وعلى ما
عهد نا الله أن نقوم به: وهو السعي في إصلاح هذا المسجد
والقيام بجميع شئونه: وأن ننصح لأحبابنا وأصحابنا بالدخول
في هذا المشروع الجليل العظيم: ونحرض كل مسلم بالمشاركة
فيه: ولو بالشيء القليل أو بالكلام الطيب: ولتعلموا حقاً وصدقاً
أن المشاركة في جمعية المسجد هي أفضل وأشرف عمل عمله
المرء في آخر حياته: وما يرضى به ربه عليه: وأنتم أيها الأعضاء الكاملون
فقد وضعتم عند الله في بيته ومحل عبادته وتوحيده: فهو أشرف
وأعلى وضيع في الدنيا: لأنه لله خالصاً لوجهه من أغراض الدنيا
فحافظوا على هذا الوضع الشريف الفخر العظيم العائد: وأنتم
وإياه أعلم عند العاقل من رضى الله: فإن طلبنا كم للحضور في هذا
الاجتماع الذي لتتباوض في جلب مصلحة أولى دفع مضرة فلا
تتأخروا عن الحضور وتتركوه كأنه شيء لا يهتم لوا وإياه وجيه
وهذا يحق بقية الأعضاء المعتنين بهذا الاجتماع: وكل عاقل

../..

ملحق I - رقم 10 – رفض الاندماج والذوبان في شخصية المستعمر

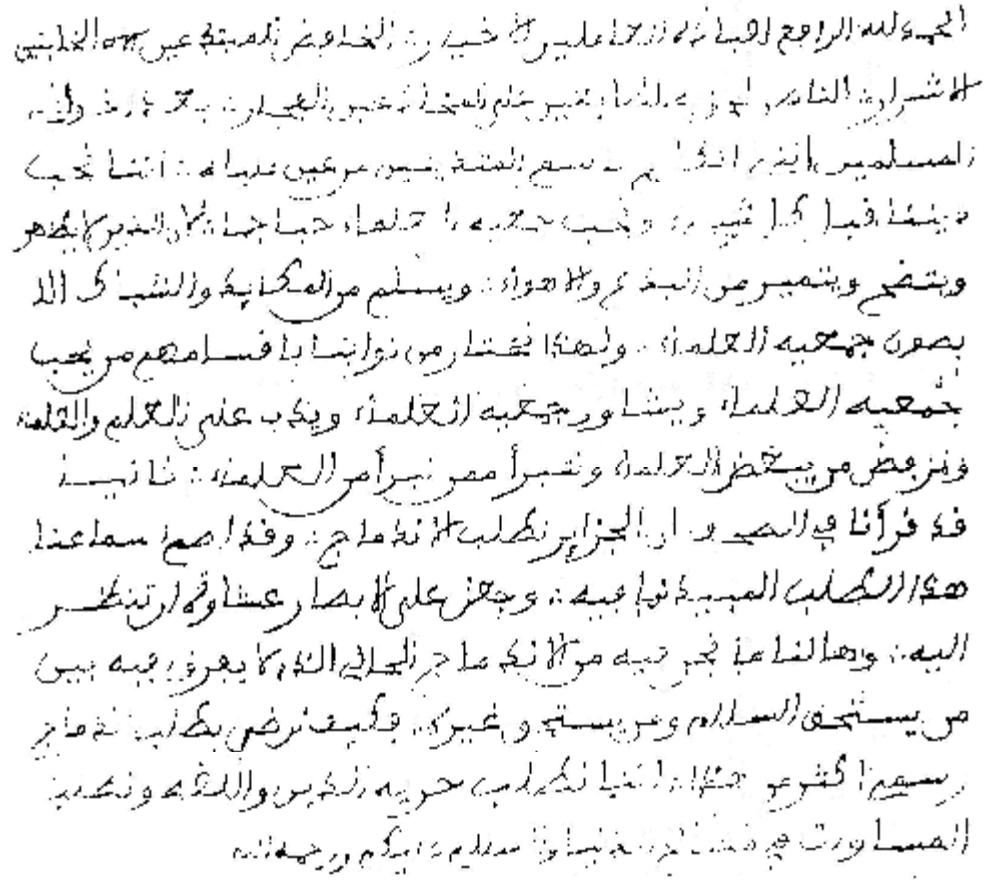

ملحق I - رقم 11 – النهي عن الاعتداء على أملاك المخالفين في الدين

فقد علمتم أن هذا الجند الذي ركبتم إنما نزاعكم بفوته وسلاحه وعتاده
يمكنه أن يهلككم ويهلك فرقكم ويصيبكم بأنواع من الإهانة والمذلة بين
الحمد لله الذي كفاكم بأسهم عنكم وهم قادرون على أن ينالوكم في الأموال
والأولاد والحريم وبين لكم بعد أن أحسنوا إلى بعض العرايا جنسهم
وسيلصوا البعض ويحتمون منهم ويحتمي منهم ولو كنتم صادقين
في المعاملة ولم تسرفوا ولم تخلعوا وهم ينكرون لكان بينكم
الإنصاف والمعاملة والعدل ولكنكم تجاوزتم الحدود حيث
ضربتم تلك البيوت ليلا وتسرفون لهم حتى الفواحش والسلاح
وإن كرهوكم إنما الكراهة وكلبوا منكم التباعد عنهم
وتركه ما عندكم من متاعهم وإلا انتفعوا منكم بما يزجركم من
سبي وقتل فكونوا أحرازا وكفوا أيديكم وأرجلكم عليهم
خيرا من أن تروا وتسمعوا ما يسوءكم ويزعجكم وتندموا حيث
لا ينفعكم الندم وأنتم تعلمون في الماضي كيف أوذي إخوانكم
بجنود السلطان وغيرهم أيرضيكم أن تعود تلك المآسي
والمظالم لا عادها الله: فكونوا أحرازا وكونوا عقلاء وتأملوا
عواقب الأمور وتذكروا الأمر قبل وقوعه وإن أعلم أن هذا الخطاب
ليس موجها إليكم بل لإخوانكم وجيرانكم واصدقائكم: فانصحوهم
وقولوا لهم إن دينكم العزيز ينهيكم عن جلب العار والفضيحة إلى
النفس وإلى إخوانكم وانتهوا خيرا لكم فمن انزجر فقد اعتذر
وانتفى اجتنابه التعيير الذي يلحق من خلصة بالوجاء
منكم أن تقبلوا هذه النصيحة والعاقل من اتعظ بغيره والجاهل
من اتعظ بنفسه.

ملحق I - رقم 12 – حكم القتل الخطأ

سئل فتى سائل عن رجل له نحل ورعاه، وقد احتاج إلى اللقاء
إلى العولة في أواخر العام يطلب منه أن يعامله بشيء، من العسل
فقال له هاهي المكسور جا خرج منها ما يكفيك وكانت
المكسور قد بقيت قبل بأربعة أيام وما عليها إلا غربال التصفية
فذهب الرجل ومعه من يساعده على إخراج العسل ولم يذهب
معهم صاحب المكسور وحين دخل ذلك الرجل إلى المكسور
لم يجاوب أبدا الضيف نفسه من سعادة المكسور فلمس
به ثاني فوقع له مثل الأول وثالث فوقع له مثل الثاني ثم جاء
صاحب المكسور وأراد أن يلمس بالثلاثة فمنعه بعض الحاضر
الحاضرين ونبههم إلى صب الماء في المكسور فصب فيها
الماء وبعدها بدأ شرعوا في إخراج المغشيين عليهم منها
فأخرج اثنان أحياء وأخرج الثالث ميتا وهو الأول الذي طلب
إخراج العسل من صاحب المكسور وبعدها جاء وليه الدية
من صاحب المكسور فأجيبت بلزام وجوب الدية عليه لأنه لم
يتسبب في موته أصلا. فطلبوا مني النص فذكرت لهم حديث
النبي صلى الله عليه وسلم في الموطأ: العجماء جبار
والبير جبار والمعدن جبار. قال مالك وتفسير الجبار أنه
لا دية فيه. والمكسور كالبير سواء والله أعلم

محمد الأبراهيمي

ملحق I - رقم 13 – تأبين الإمام عبد الحميد بن باديس

الحمد لله هو الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا الله أكبر
الله أكبر ولا إله إلا الله والله أكبر اليوم خمدت أنفاس تلك الروح الطاهرة
الزكية، وروح الأستاذ عبد الحميد بن محمد المكي بن باديس في شهر
ربيع الأول سنة 1359 وأعاده الأجل من مستوى الخمسين سنة وأربعة أشهر
فقضى رحمه الله الخمس والخمسين سنة إلا في جهاد الفرد والعلم
بقسنطينة وتونس وبها أخذ شهادة التكوين وشهادة الفرد أن
السبع وعلم ستتين بالزيتونة وحج بيت الله الحرام وزار قبر المصطفى
صلى الله عليه وسلم ثم رجع إلى بلاده فسقطينة وهو ابن خمس وعشرين
ونصب نفسه للتدريس وبث العلوم في صدور الكاليين بجد واجتهاد
وعزم يقوق النظير والإحصاء بحيث أنه يعلم في اثنتي عشرة ساعة
في اليوم وعشرين ساعة وفي بعض الأحيان يترك غداءه أو عشاءه
وهاكذا ربى نفسه على الحرص في الدرس حتى صار عادته وسجاياه
وهاكذا أتم الخمس والعشرين الثانية من عمره إلى أن بقي إلى الجملة خمسة أيام
جعل يستراح في المولد الشريف حسبما جرت به العادة لكن قبل
المولد وقبل الرجوع إلى التدريس نادى أهله وذوي الأحياء المقربين يا أيتها
النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي
جنتي. واجابه أبي أعني الله. الله أكبر مات عبد الحميد الذي كان يغير
في ثلاثمائة تلميذ وتلميذة بشتى العلوم والمعارف الله أكبر مات العلم
والعمل والشجاعة والاعتصام بالله. الله أكبر مات مؤسس النوادي والجمعيات
الله أكبر مات الخطيب المفوه لكل الجموع والجمعيات فاز الكاتب
البارع في الجرائد والمجلات. الله أكبر مات مشجع العلم الذي كان
يضيء سناه على الجزائر والإسلام كله الله أكبر ركن من أعظم
الأركان تهدم. الله أكبر مات مربي الطلبة ومهذب الأخلاق ومصلح العقائد

← ../..

ملحق I - رقم 14 – مراسلة ابن باديس لمحمد مساس

BUREAU DE LA PRESIDENCE
DE
l'Association des savants musulmans
ALGERIENS
Mosquée Sidi-Lakhdar
Rue Sidi Lakhdar CONSTANTINE
(Algérie)

مكتب رئاسة
جمعية العلماء المسلمين الجزائريين
بالجامع الاخضر
نهج سيدي الاخضر قسنطينة (الجزائر)

بسم الله الرحمن الرحيم

قسنطينة في ... ذو القعدة الحرام ١٣٥٠

السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته

وبعد فإننا نطلب من شعبتكم الموقرة أن تقوم بواجبها التعليمي نحو مراد قال الاعضاء العاملين وهم كل عالم او متعلم او مريد للتعلم وصولا، واجب اشتراكهم للسنة عشر ريالات يوافوا زائهم مما نرسله اليكم مرارا وراء العضوية هي الاولى وراء الصعب مراد قال الاعضاء المؤيدون وهم الاعضاء غير العاملين والمتعلمين واجب اشتراكهم خمسة وعشرون ريالا وأوراقهم مما نرسله اليكم هي الزرق ومذكرتنا كلم او راء الكتابة امامه الاوراق وتنظم الوصل بالعمل التأييدي وذكر مقدار اشتراكهم وتبعثوها الينا اولا ثم ارسلوها الينا والمنصرف من حاصل ما يمكن من المشتركين يرسل الينا الحاصل التاسع عشر الاول والله هو الموفق

هذا وان لقب مراقب من الشعب عوض بامين المال

باعلوا والسلام يبقى بخيله وكرمه

والسلام [illegible] باديس

ملحق I، رقم 15: جواب عن سؤال الشحوم [1]

وقفت على سؤال مستفت عن الشحوم التي ترد من فرنسا في مجلة الشهاب عدد82 وانتظرت إجابته في الأعداد التالية فلم أر من إجابة فقلت لعلي أقوم بهذا الواجب عن شهابنا الأغر. فأقول وبالله أستعين: اعلم أيها السائل أن الشحوم التي استفهمت عنها كلها ترد من مرسيليا وفرنسا وأهلهما كلهم مسيحيون أو إسرائيليون ولا مجوس هناك فهم أهل كتاب تحل لنا ذكاتهم بقطع النظر عن كيفيتها بالموسى أو بالشفور لأن الله لم يكلفنا بالبحث عن ذلك فقال: (وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم)[*] وهي صريحة في ذكاتهم والمفسرون كلهم على هذا. يخرج من جملة طعامهم الدم ولحم الخنزير فإنه مصرح بتحريمه مع الخمر في آيات أخر. فإن قيل إنهم غيروا وبدلوا فنقول: ذلك من قبل اليوم. قد قص الله علينا في القرآن تحريفهم وتبديلهم وسماهم أهل كتاب ونص الآية صادق عليهم. وإذا نظرنا إلى التبديل والتغيير فها نحن بدلنا وغيرنا وتركنا معظم شريعتنا وهي الصلاة والزكاة وغيرهما واعتصمنا بالمخلوق وتركنا الخالق ولماذا لم نحرم ذبائح من اتصف بهذه الأوصاف منا؟

وهل يقال فينا ليسوا بأهل كتاب أو شريعة؟ لا ! وإن قيل إن أهل الكتاب يأكلون ذلك فها هو الإمام الشافعي يجيز أكلها مع الكراهة في الآخرين ومالك بالكراهة في الأول والحرمة والكراهة في الأخيرين وأظن هذا كافيا والله أعلم.

---

(1) الشهاب، العدد 87: 1927م، ص. 17.

(*) سورة المائدة، الآية 5.

ملحق I، رقم 16: حول مسألة الشحوم [1]

الحمد لله ابتداء وانتهاء إلى مدير الشهاب الثاقب السلام عليكم ورحمة الله وبعد فالمرجو من فضلكم إدراج هذه المقالة قبل فوات أوانها رأيت ما رد به الكاتب سليمان بونوح على فتواي التي أدرجت بمجلة الشهاب عدد 87 على الشحوم لكن رده هذا خال عن الحجة والدليل ولا يسلم له فأردت إجابته عنه والعلماء ينظرون ويرجحون الموافق إلى الشرع وإنني مبتهج بهذا الكاتب المعارض لأن البحث في المسائل الشرعية يصفيها ويزيل عنها كل غش ودخيل قال هذا الكاتب بعد ما ذكر جملة من مقالتي – هلمّوا يا معشر المسلمين تسمعوا وتنظروا ما تطرق إلى دينكم الشريف من الأغلاط فأقول له اللهم أهدنا جميعا وأرشدنا إلى الصواب والسداد، وقال لا يا حضرة الكاتب لقد غلطت فكدت تغلط خير أمة أخرجت للناس كيف تحكم على كل من في مرسيليا وفرنسا بأنهم كلهم مسيحيون أو إسرائيليون ولا مجوس هناك مع كونك لم ترهم أو رأيتهم و لم تستقص إلى آخر جملته. فأقول له نعم لا مجوس هناك عن تحقيق من العارفين المطلعين فأخبرني أنت إن كنت ذا علم ودراية هل سمعت أو رأيت أن هناك نحلة مجوسية مستقلة بأحكامها ومعابدها وذبائحها منحازة بتقاليدها عن الكتابيين، فيلزمنا التحرز من مذابحها أو نحرم من أجلها ذكاة أهل الكتاب – جوابك يكون لا، أما احتجاجك بمن تجنس بنكاح المحارم فإن ذلك من الأفراد القليلين والحكم للكل لا للفرد فانظر إلى المسلمين منهم من تجنس ولا نحكم على الأمة كلها بالتجنيس ولا يحرم من أجل الأفراد ذكاة أمم كثيرة لأن ذلك من التنطع في الدين والتقول على الشارع ما لم يقله نعوذ بالله من ذلك.

وقال ما ألجأك إلى هذه الفتوى الغرارة التي أغريت بها الأمة على أكل الحرام فأصبحت تبيح لهم أكل ذكاة المجوس وما الذي حملك على هذا التشنيع والمبالغة والكذب علي وأنا بقيد الحياة ومقالتي لا زالت بأيدي القراء وأنت ذكرت في الجملة التي كتبت احترازي عليهم ولا مجوس هناك. ولا غرابة فإنك كذبت على الله فضلا على غيره. فالآن يحق لي أن أقول مثل ما قلت لي غلطت. وأنت خلطت وخبطت خبط عشواء وما شعرت. ثم قال هب إنهم كتابيون كلهم فهل ذبحوا مواشيهم التي منها هذه

(1) "حول مسألة الشحوم"، الشهاب، العدد 97: 1927، ص. ص. 16-18.

الشحوم بحضورك فشاهدتهم كيف صنعوا في أثناء ذك وهل غسلوا مذابح كل ذبيحة لهم أم تيقنت إنهم ذبحوا ذبحا شرعيا إلى آخره. فأقول له من أين لك هذه الشروط الشاذة ومن أين أخذتها أمن الكتاب أم من السنة أم من الفراغ. أما الكتاب فها هو بين أيدينا فلم يشترط علينا في أكل ذكاتهم الحضور لها حالة الذبح وكذلك السنة فقد كان النبي ﷺ وأصحابه يأكلون طعام أهل الكتاب بدون حضور لحالة الذبح وأكلوا قديدهم ولا يمكن الحضور له ثم زاد شرطا ثانيا أشد من الأول وأغرب منه وهو غسل المذبح فيا للفضيحة والعار وهل هذا شرط عند المسلمين يحرم بتركه كل المذكى.

فاضحك يا من بلغت إلى هنا أو أبك على أحكام الشرع العزيز، وزاد ثالثا وهو هل ذبحوا ذبحا شرعيا. فأقول له وما فائدة الكتابي إذا لم يذك بأحكام كتابه فيا للعجب منك وأمثالك المشددين. ولنقل الآن مثل قولك هلمّوا، تعالوا أيها المسلمون تنظروا وتتعجبوا من هذا التشديد النهائي والتعصب المذهبي والتقليد الأعمى لا لا يا حضرة الكاتب إن كنت تريد المناظرة فاطرح عنك هذا الغلو كله واتق الله فإنه ينهاك عن الزيادة والاقتداء بقوله عز وجل: (ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون متاع قليل ولهم عذاب أليم)(*) وقال: (يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين)(**) وقال ﷺ: (ما بال أقوام يشترطون شروطا ليست في كتاب الله)، وقال: (من شدد شدد الله عليه) فيلزمك أن لا تحرم بالتعصب والشكوك والأوهام وتترك صريح السنة والكتاب. أما الطريفة وذوات الظفر وشحوم اليهود التي حرموها على أنفسهم استنكافا فحرمها الله عليهم جزاء لبغيهم. فإن الإمام ابن رشد الحفيد ذكر في البداية الخلاف الوارد في ذلك كله وبعده قال فذبائحهم والله جائزة لنا على الإطلاق وإلا ارتفع حكم آية التحليل جملة فتأمل هذا فإنه بين. ولنقتصر للكاتب على هذا فإن اكتفى به كفاه وإن طلب الزيادة زدناه !

(*) سورة النحل، الآية 116.

(**) سورة المائدة، الآية 87.

الملحق الثاني: تراث أبي القاسم الزغداني

ملحق II ، رقم 01 ــ إجازة التحصيل

ملحق II ، رقم 02 ــ شهادة خبرة

ASSOCIATION DES OULAMAS D'ALGERIE

Commission de l'Enseignement

12, Rue Pompée - ALGER

Téléphone : 278-17

جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

لجنة التعليم

١٢ نهج بومبي الجزائر

الهاتف ١٧ - ٢٧٨

رسالة رقم 41

الجزائر في ١٣٧٠ / ١٩٥٠ 69/7/30

شهادة عمل بمدارس الجمعية

بدأ الشيخ بلقاسم الزغراني التعليم
مع الشيخ محمد الطيب بادیس سنة ١٩٢٧
حتى سنة ١٩٣٦ حيث انضم للثورة
بتونس.

ملحق II ، رقم 03 ــ شهادة خبرة

ASSOCIATION DES OULAMAS D'ALGERIE
SIEGE SOCIAL
* ue Pompée - ALGER
T61.[illegible]7 C.C.P. 480-06

جمعية العلماء المسلمين الجزائريين
مركزها : ١٢ نهج بومبي
الجزائر
الهاتف: ٢٧٨-١٧ الحساب الجاري ٤٨٠-٠٦

ALGER ..... 195....

الجزائر في ٢٢ رمضان ١٣٨٢
١٩٦٣/٢/١٦

بسم الله الرحمن الرحيم

يشهد الممضي أسفله محمد البشير الابراهيمي رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين أن ولدنا الاستاذ الشيخ بلقاسم بحداتي قد زاول تعلمه أولا على المرحوم الاستاذ الامام الشيخ عبد الحميد ابن باديس في دروسه الخاصة والعامة بالجامع الأخضر بقسنطينة . ثم التحق باشارته وتوجيهه الى إتمام معلوماته بجامع الزيتونة المعمور من غير أن يتقيد بنظامه الرسمي ولذلك لم يتحصل على شهادته العلمية ولكنه تخرج منه بملكة " التحصيل " ورجع الى مدينة قسنطينة فعينه الشيخ ابن باديس مدرسا بمدرسة التربية والتعليم ثم اخذ يعلم معه في المعهد الذي كان يديره رحمه الله وبقي ملازما لذلك المذكور حتى توفاه الله .

هذا والاستاذ المزغداني من أحسن الناس سلوكا وأخلصهم للعروبة والاسلام والجزائر .

رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

ملحق II رقم 04: من أسباب نكبتنا ضعف تفكيرنا [1]

لو كنا مفكرين، وكانت لنا عقول تزن الأشياء بميزان الذهب كما يقولون وكانت لنا ملكة التبصر، والتعقل لقلت أخطاؤنا في هذه الحياة ولكان فهمنا لها وحكمنا عليها صحيحين، ولكانت خطانا إذًا نحو الهدف الذي نسعى إليه سديدة ومقربة، إن لم تكن موصلة. فأنت إذا جلست في مقهى أو حمام أو ركبت قطارا أو سيارة أو جلست في بستان عام أو أممت أماكن اللهو، والمتنزهات وأماكن التجارة، والاجتماع، وأصغيت بأذنيك إلى حديث الناس العام في شؤون هذه الحياة وتشعباتها الكثيرة ومشاكلها المتنوعة في التجارة، في الصناعة، في الفلاحة، في التربية، في السياسة، في العلم، في الأخلاق، في الآداب، في تكوين الأسر، في كيفية المقابلات، والمعاملات، تتأسف وتتألم، وتتعجب كثيرا وتشفق، وتحزن على هذه الأمة، وكيف لا تعتريك الغمرات والحسرات إن كان لك قلب، وشعبك لا يعرف كيف يختار الصالح من هذه الحياة ولا يعرف كيف يجتمع، وكيف يبدأ الكلام، وكيف ينتهي منه، وكيف يفكر، ويعلل، وينطق، وكيف يوجه نفسه، وأسرته، ومستنصحيه إلى الحياة الحقة: ضعف في التفكير، ومنطق خشن بسيط ساذج معرج ورطانة في التعبير عن مراميه، فتقطيب في الوجه، وخشونة في الخلق، ووحشية في النفس -عياذا بالله- منعت التفاهم والوفاق، وكانت سدا منيعا مما تنعم به الشعوب الأخرى من نعيم المحبة وصفاء القلوب، وتبادل الثقة بين أفرادها، وجمال الخلق، وفصاحة اللسان، وسحر البيان وحسن التفكير، وما إلى ذلك مما تشعر به الأمم من الارتباطات والمؤاخاة، والضمان الحيوي العام، فلأجل هاتيك الصفات التي تحلى بها شعبنا، ساءت أحواله اليوم فانفصمت العرى وانحلت الروابط وحل محلها البغض والحقد، والحسد، وكثرة الخصام والتلدد فيه وقلة المفاهمة، وفقد الثقة، وعاطفة التعاون، فخسر التجار والفلاحون والصناع، وعم الفقر والبطالة جميع أنحاء هذا الوطن، فاكفهرت الوجوه وغيمت الآمال، وكره الناس بعضهم بعضا.

ترى ما السبب في هذا كله؟ السبب في هذا أيها السادة، هو ذلك العدو القاسي القلب الذي لا رحمة فيه ولا شفقة (الجهل) لا غيره، فهذا العدو المدمر للبيوت، والمخرب لكيان الشعوب، هو الذي

(1) البصائر، العدد 71: 1949م، ص. 2.

سبقت جمعية العلماء غيرها في إدراكه فهبت إلى محاربته هبة جريئة منذ ست عشرة سنة تستأصل داءه بالعلم، وتقتلع جذوره به، فأسست له المدارس والمعاهد وجمعت عليهما الأمة، وقاست في سبيل الوصول إلى مرماها ما الله به عليم، ولعمري إنه لا دواء لهذا الداء العضال، إلا ما تهيئه له جمعية العلماء في معاملها العلمية ومصانعها التهذيبية، فخلوا بورك فيكم بين هذه الجمعية وبين عدوها المتعجرف، علها تخرج لكم في مستقبل الأيام جيلا جديدا يدرك معنى العزة والكرامة، ذا لطف في الخطاب وبسط في المحيا، وذا جمال في الخلق، ولين في الجوار والمعاملة، تعتز به القومية، وتفتخر به العربية ويرفع رأس هذا الشعب عاليا بين الأمم والشعوب، فدعوا بالله عليكم هذه النمرة الحقود تفترس لكم فريستكم فتستريحوا منها، وأعينوها إن كنتم تعقلون.

ملحق II رقم 05: الأهلية والإخلاص [1]

الأهلية والإخلاص هما الصفتان الوحيدتان اللتان تثبت بهما جميع المشاريع العامة وتنمو وتزدهر وتونع وتؤتي أكلها للآكلين وهما الأكثر أهمية، من جميع الصفات في إنجاح المقصد، وبلوغ الغاية، وبدونهما فلا ثبات ولا نمو ولا ثمرة.

ومن المعلوم أن الأهلية هي صلاحية في الإنسان، واستعداد فيه يجعلانه أهلا للقيام بذلك المشروع بما له من خصائص وصفات ملائمة فلا يصلح هذا الشخص لغير هذا المشروع ولا ينمو ولا يثمر هذا المشروع إلا بهذا الشخص. والإخلاص هو الصفاء العام في ذات الإنسان بما فيها من قلب وعقل وروح ولسان وشعور، وبذلك الصفاء العام يصفو التوجيه والتصميم والعزم للوصول إلى الغاية من ذلك المشروع ويخلص ذلك المشروع من الهلاك. ويتحتم إنقاذه والوصول به إلى ساحل النجاة رغم العراقيل والمثبطات التي تعترضه في طريقه ورغم الزوابع والأعاصير الهزهازة التي اعتاد الاستعمار الأرعن والوشاة من جهال هذه الأمة أن يحيطوه بها، وفي معنى هذه الحقيقة صنع الله أرواح الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، وهيأها لتبليغ رسالاتهم فلولا ما وفره الله فيهم من الأهليات والاستعدادات لما وصلوا إلى غاياتهم في تبليغ الرسالات. وعليه ففقد الأهلية والإخلاص في مديري مشاريعنا ومؤسساتنا الاجتماعية هو السبب في أن نرى في أنحاء الوطن من حين إلى آخر مشاريع تنهض وتسقط وتبنى ثم تنهار، ثم تعاد ثم ترسب وهكذا دواليك فأين هي جمعياتنا الفلاحية والتجارية والصناعية، وأين هي جمعية الكشافة والتمثيل والموسيقى وأين هي نقابات العمال التي يلتجئ إليها العمال لبث شكواهم وأحزانهم وآلامهم التي يقاسونها من فراعنة هذه الأرض أصحاب الشركات والبنوك وأين وأين. . . فقد قرأنا على لسان الجرائد، وسمعنا بتأسيس هذه التشكيلات من آونة إلى أخرى في كثر من البلدان الجزائرية وطربنا لها. وقلنا إن الشعب تحرك إلى الحياة ولكن يا للأسف قد أفل نجم هذه الجمعيات وما كدنا نسمع عنها شيئا أليس بالله عليكم يا سادة: أن السبب في كل هذا هو فقد الأهلية والإخلاص للمديرين المسيرين؟ أليس السبب في هذا هو توسيد الأمر لغير أهله؟ فلو كان الشعب يدرك معنى قوله ﷺ: (كل ميسر لما خلق

(1) البصائر، العدد 75: 11 أفريل 1949م، ص. 7.

له)، ولو كان الشعب حينما يجتمع ليؤسس، يجرد نفسه من كل عاطفة، يجردها من الحقد والبغض والعصبية، ولا ينظر إلى تلك المؤسسة إلا بمنظار الصالح العام، قاتلا في نفسه حظ المصلحة الشخصية، لانتخب لنا ساعتئذ رجالا أكفاء لذلك المشروع، يغذونه من أرواحهم وعقولهم وحكمتهم ومن صفاتهم التي خلقها الله لذلك المشروع، ولسار هذا في طريق النمو والإخصاب والإثمار ولو كان أيضا أولئك المنتخَبون من أشد أعداء المنتخِبين. —الناخبين- لكن الأمر سار على غير طبيعته، فالانتخاب عاطفي، والنظر إلى الغاية من ذلك المشروع نظر مصلحي شخصي، فكانت النتيجة أن تولى على مشاريعنا، وترأس عليها من ليست فيه أهلية ولا إخلاص. وتقدم هو إليها من غير أن يعرف حقيقة أمره، وحقيقة هذا المشروع في غير حياء فدجل وغش الأمة في حقيقته، واستعمل جميع ما عنده من خبث ليتوصل إلى هذه الرئاسة المزيفة، وراج خبثه ونفاقه وحيله فترأس.

وهو الآن جاثم عليها جثوم الفيل الضخم البليد على فريسته، فلا تركها تستنشق أريج الحياة ولا هو مستريح من ضغط جؤجئه الثقيل عليها، ولا هو قام عليها وتركها لأهلها، فويل لجهل هذه الأمة وويل لها من هؤلاء.

الملحق الثالث: الخرائط والصور العامة والشخصية

ملحق III ــ رقم 1 ــ الخريطة الإدارية لولاية أم البواقي

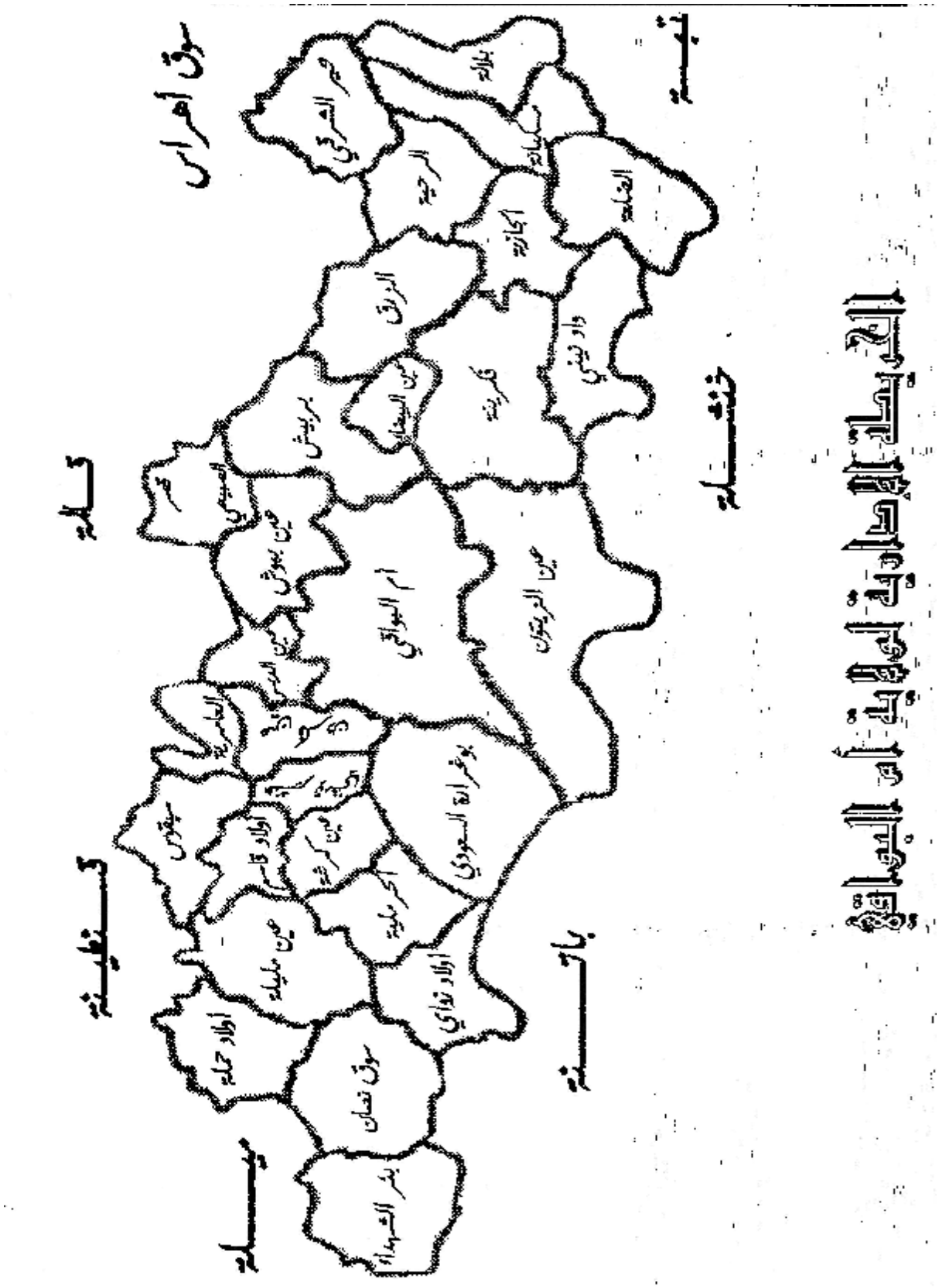

ملحق III ــ رقم 2 ــ صورة محمد مساس الإبراهيمي

ملحق III ــ رقم 3 ــ صورة محمد مساس وشقيق فرحات عباس أثناء العلاج بفرنسا

ملحق III ــ رقم 4 ــ صورة لحسان بارش (تلميذ محمد مساس)، والصادق (نجل محمد مساس)

حسان بارش

الصادق مساس

ملحق III ــ رقم 5 ــ صورة لأبي القاسم الزغداني

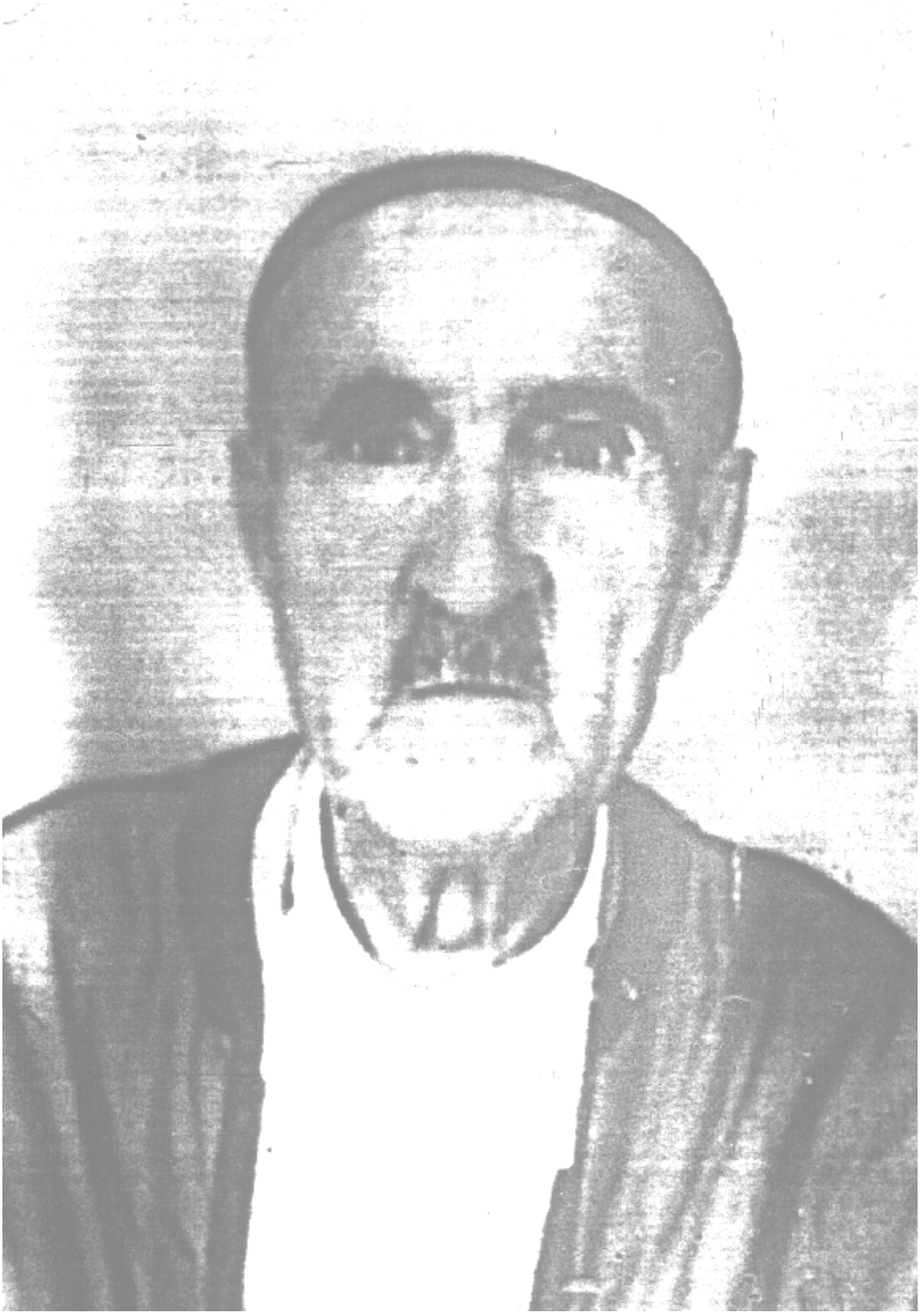

ملحق III ــ رقم 6 ــ صورة لابن باديس يتوسط فيها كبار تلامذته، ومنهم أبو القاسم الزغدالي

المعنون من اليمين : عيسى الدراجي ، محمد الدراجي ، محمد المليلي ، الفضيل الورتلاني ، القاسم الزغدالي

الجالس في الوسط الاستاذ عبد الحميد بن باديس

ملحق III ــ رقم 7 ــ صورة لأبي القاسم الزغداني رفقة والده وأخويه

بيبليوغرافية البحث

أولا. المصادر والمراجع العربية

1- المصادر:

أ. المخطوطات:

1- خليفي عمار : "**رجال في صفحات التاريخ: دراسة حياة الشيخ أبي القاسم الزغداني**"، نظارة الشؤون الدينية، أم البواقي: 1993م .

2- فحلة حسن رمضان : "**دراسة واقعية لحياة الإمام الشيخ محمد مساس الإبراهيمي**"، نظارة الشؤون الدينية، أم البواقي: 1993م.

3- مساس محمد علي الإبراهيمي: "**حياة الشيخ محمد بن سي علي الإبراهيمي**"، حي المنظر الجميل – قسنطينة : د.ت .

4- مساس محمد الإبراهيمي : "**ضبط طريقي إلى الحج**"

5- مساس محمد الإبراهيمي [*]: "**دعوة لتعضيد ودعم عمل الجمعية الدينية**".

6- مساس محمد الإبراهيمي : "**رد على الكائدين المندسين ومناصرة الإمام ابن باديس**".

7- مساس محمد الإبراهيمي : "**رد على افتراءات المفسدين حول نزاهة الجمعية**".

8- مساس محمد الإبراهيمي : "**التكافل الاجتماعي**".

9- مساس محمد الإبراهيمي : "**فضل العلم والتعلم**".

10- مساس محمد الإبراهيمي : "**الدعوة إلى الإنفاق لبناء مدرسة**".

11- مساس محمد الإبراهيمي : "**في الترحيب بأهل العلم**".

---

[*] مجموعة خطب ودروس دينية وكلمات بمناسبات مختلفة، ألقاها مترجمنا الشيخ محمد مساس الإبراهيمي في المسجد، وُجدت بحوزة نجله الأصغر الصادق الساكن بمدينة عين مليلة .

12- مساس محمد الإبراهيمي : **"في الحث على جمع المال لبناء المسجد".**

13- مساس محمد الإبراهيمي : **"حث أعضاء جمعية المسجد على حضور الاجتماعات".**

14- مساس محمد الإبراهيمي : **"الحث على اجتناب السلطان الجائر".**

15- مساس محمد الإبراهيمي : **"الحث على العلم ومناصرة العلماء المصلحين".**

16- مساس محمد الإبراهيمي : **"الحث على تعليم الناشئة".**

17- مساس محمد الإبراهيمي : **"مناصرة جمعية العلماء ورجالها".**

18- مساس محمد الإبراهيمي : **"الترحيب بأهل العلم"**-الترحيب بالشيخ عبد الحميد بن باديس-.

19- مساس محمد الإبراهيمي : **"فضل القرآن".**

20- مساس محمد الإبراهيمي : **"توجيهات إلى الشباب".**

21- مساس محمد الإبراهيمي : **"استفتاء حول مجموعة مسائل".**

22- مساس محمد الإبراهيمي : **"العقيدة الصحيحة هي ما أمر الله الناس بها".**

ب. الكتب:

1- الإبراهيمي محمد البشير: "آثار محمد البشير الإبراهيمي"، جمع وتقديم أحمد طالب الإبراهيمي، ج1، ج2، ج3، ج4، ج5، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت - لبنان: 1997م .

2- بن بلة أحمد : " مذكرات أحمد بن بلة"، ترجمة العفيف الأخضر، ط3، دار الأدب، بيروت –لبنان: 1981 م .

3- حماني أحمد: "صراع بين السنة والبدعة"، ج2 ،ط1، دار البعث للطباعة والنشر، قسنطينة- الجزائر: 1405 هـ/1984 م .

4- طالب أحمد الإبراهيمي: "من تصفية الاستعمار إلى الثورة الثقافية 1962-1972م"، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر: د.ت .

5- عباس فرحات: "حرب الجزائر وثورتها(ليل الاستعمار)"، تعريب أبو بكر رحال، مطبعة المحمدية، المغرب: د.ت .

6- فضلاء محمد الحسن : "من أعلام الإصلاح في الجزائر"، ج2، دار هومة، الجزائر: 2000م.

7- المدني أحمد توفيق: "كتاب الجزائر"، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر: 1984م .

8- الميلي مبارك : "رسالة الشرك ومظاهره"، شركة الشهاب، الجزائر: د.ت .

9- الميلي محمد: "ابن باديس وعروبة الجزائر"، ط2، المؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر: 1973م.

ج. المقابلات الشخصية:

أولا. المقابلات الخاصة بالشيخ محمد مساس الإبراهيمي

1- بارش حسّان (تلميذ محمد مساس)، من مواليد 1918م، بأولاد ونداج – عين مليلة – أم البواقي، إمام متقاعد، بمنزله الكائن بـــ عين مليلة، يوم: 2007/03/14م.

2- بن خضرة موسى (تلميذ محمد مساس)، من مواليد 1926/06/04م بأولاد براهم بمنزله الكائن برأس الواد-برج بوعريريج، يوم: 2007/03/08م.

3- سعدودي عبد المجيد، من مواليد 1935م، مجاهد متقاعد بمنزله الكائن برأس الواد-برج بوعريريج، يوم: 2007/03/08م.

4- قرابصي رابح، من مواليد 1930/01/01م، بأولاد ونداج – عين مليلة – أم البواقي، مناضل متقاعد، بمنزله الكائن بـــ عين مليلة، يوم: 2007/03/24م.

5- مساس الصادق (نجل محمد مساس)، من مواليد 1945/10/19م، بـــ عين مليلة، عامل متقاعد، بمنزله الكائن بـــ عين مليلة، يوم: 2007/03/13م.

6- مساس محمد علي (نجل محمد مساس)، من مواليد 1939/11/21م عين مليلة – أم البواقي، بمنزله الكائن بحي المنظر الجميل-قسنطينة، مجاهد متقاعد، يوم: 2007/03/14م.

ثانيا: المقابلات الخاصة بالشيخ أبي القاسم الزغداني

1- دردور عمر، من مواليد 1913م بـــ أريس-باتنة، مدير الشؤون الدينية، متقاعد، بمنزله الكائن بـــ تازولت-باتنة، يوم: 2007/03/25م.

2- الزغداني عبد الحميد (نجل أبي القاسم الزغداني)، من مواليد 1947/01/26م، بأم البواقي، عامل متقاعد، بمنزله الكائن بحي عبد الحفيظ بوالصوف – قسنطينة، يوم: 2007/03/25م.

3- الساسي علي، من مواليد 1926م بالكويف ولاية تبسة، شغل منصب مدير الشؤون الدينية لولاية أم البواقي سابقا، مجاهد متقاعد بمنزله الكائن بـــ الخروب ولاية قسنطينة: 2007/03/23م.

4- شرفي أحمد الرفاعي، من مواليد 1934م، بـــ بوحمامة – خنشلة، أستاذ جامعي متقاعد، بمنزله الكائن بحي الدقسي – قسنطينة، يوم: 2007/04/10 م.

5- عزوز الشريف، من مواليد 1933م، بـــ عين البيضاء – أم البواقي، مدير ثانوية، متقاعد، بمنزله الكائن بـــ عين البيضاء، يوم: 2007/03/31م.

6- مصدق نوار (صهر أبي القاسم الزغداني)، من مواليد 1952م بمسكيانة – أم البواقي، بمنزله الكائن بمسكيانة، يوم: 2007/03/23م.

7- النعيمي بلقاسم (صهر أبي القاسم الزغداني)، من مواليد 1930 بأولاد جلال – بسكرة، مفتش عام للإدارة، متقاعد، بمنزله الكائن بحي 864 مسكنا، بالمدينة الجديدة: علي منجلي، قسنطينة : يوم 2007/03/22م.

8- النعيمي فريدة (بنت أبي القاسم الزغداني)، من مواليد 1938م، معلمة متقاعدة، بمنزلها الكائن بالمدينة الجديدة علي منجلي، قسنطينة، يوم: 2008/07/21م.

2- المراجع

1- الأشرف مصطفى: "الجزائر: الأمة والمجتمع"، ترجمة: حنفي بن عيسى، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر: 1983م .

2- بو صفصاف عبد الكريم: "جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وعلاقاتها بالحركات الجزائرية الأخرى 1931-1945م"، المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والإشهار، الرويبة-الجزائر: 1996م .

3- بو صفصاف عبد الكريم: "الفكر العربي الحديث و المعاصر"، محمد عبده وعبد الحميد بن باديس نموذجا، ج1، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة–الجزائر: 2005م.

4- بوصفصاف عبد الكريم و آخرون: "معجم أعلام الجزائر في القرنين: التاسع عشر والعشرين"، ج2، دار الهدى، عين مليلة – الجزائر: ربيع الأول 1425 هـ/ ماي 2004 م.

5- بلغيث محمد الأمين: "تاريخ الجزائر المعاصر"، ط1، دار البلاغ للنشر والتوزيع، الجزائر: 2001م.

6- بوعزيز يحي: "كفاح الجزائر من خلال الوثائق"، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر: 1986م.

7- خضير شعبان: "مصطلحات في الإعلام والاتصال"، دار اللسان العربي-الجزائر: 1422هـ

8- دبوز محمد علي : "أعلام الإصلاح في الجزائر (من عام 1921 – 1975)م"، ج1، مطبعة البعث، قسنطينة – الجزائر : 1974م.

9- سعد الله أبو القاسم: "الحركة الوطنية الجزائرية"، ج3، ط4، دار الغرب الإسلامي، بيروت-لبنان: 1992م .

10- سعد الله أبو القاسم : "تاريخ الجزائر الثقافي"، ج3، ج5، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت-لبنان: 1998م.

11- شترة خير الدين: "الطلبة الجزائريون بجامع الزيتونة (1900-1956)م"، ج3، دكتوراه العلوم في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر، قسم التاريخ، كلية الآداب و العلوم الإنسانية، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، الجزائر: 2007 - 2008م. (رسالة غير منشورة) .

12- صاري الجيلالي، قداش محفوظ: "المقاومة السياسية 1900-1954 م"، ترجمة : عبد القادر بن حراث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر: 1987م.

13- عمامرة تركي رابح: "التعليم القومي والشخصية الوطنية"، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر:1975م .

14- عمامرة تركي رابح: "جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التاريخية (1931-1956م)"، ط1، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر : 2004 م.

15- فركوس صالح: "تاريخ الجزائر من ما قبل التاريخ إلى غاية الاستقلال"، دار العلوم للنشر والتوزيع، عنابة – الجزائر: 2005م .

16- قاسم محمود: "الإمام عبد الحميد بن باديس الزعيم الروحي لحرب التحرير الجزائرية"، دار المعارف، مصر: 1979م.

17- محدة محمد: "مختصر علم أصول الفقه الإسلامي"، دار الشهاب للطباعة والنشر، باتنة- الجزائر: د.ت .

ثانيا. المصادر والمراجع باللغة الأجنبية

1- المصادر:

1- L'administrateur de la commune mixte d'Oum El Bouaghi: "monographie administrative", archives historiques de la wilaya de Constantine, Canrobert : 5 Septembre 1941.

2- L'administrateur de la commune de plein –exercice d'Ain Beida: "monographie administrative", archives historiques de la wilaya de Constantine, Ain Beida: 6 septembre 1954.

3- L'administrateur de la commune mixte d'Oum El Bouaghi: "monographie administrative", archives historiques de la wilaya de Constantine, Canrobert: s.d .

4- Autorités locales en Algérie: "l'Algérie du demi-siècle", janvier: 1954.

5- Police française: "rapport mensuel", archives historiques, Wilaya de Constantine: Mai 1940 .

2- المراجع:

1- André Noushi: "la naissance de certains chiffres d'études Magrébines" , presses universitaires de France, Paris: 1964.
2- Ben Habyles Cherif: "L'Algérie Française vue par un indigène", édition orientale, Alger: 1914.

3- Charles Robert Ageron: "histoire de l'Algérie contemporaine 1830-1973", série: que sais-je, p.u.f: 1974 .
2- Henry Banazet: "l'Afrique Française en danger" , Paris: 1947 .

4- Kaddache Mahfoud: "histoire du Nationalisme Algérien", tome I, S.N.E.D, Alger: 1980.

5- Marthe et Gouvien: "Kiteb ayem el Maghariba", livre des notables maghrébins, Alger: 1920.
6- Merad Ali: "le réformisme musulman en Algérie de 1925 à 1940", Paris: 1967.

ثالثا. الدوريات العربية

1- البصائر، العدد 47، الجزائر: 1936م.

2- البصائر، العدد 109، السنة الثالثة: 21 صفر 1357هـ/22 أفريل 1938م.

3- البصائر، العدد 71، الجزائر: 1949م .

4- البصائر، عدد 75: 1949/04/11م .

6- الزهرة، تونس: 1924م.

7- الزيتونة (المجلة): 1945-1956م.

8- السُّـــنَّة، العدد 05، السنة الأولى: 1352 هـ / 1933 م .

9- الشريعة المحمدية، العدد 4، قسنطينة- الجزائر: 1933م .

10- الشعب، الحلقة الثانية، الجزائر: 22 سبتمبر 1986 م.

11- الشهاب، العدد 15، السنة الأولى: 1926م .

12- الشهاب، ج9، م5، قسنطينة- الجزائر: أكتوبر 1929م .

13- الشهاب، ج8، م11، قسنطينة– الجزائر: غرة شعبان 1354هـ / نوفمبر 1935م .

14- الشهاب، ج1، م 12، قسنطينة-الجزائر:غرة محرم 1355 هـ / أفريل 1936م.

15- الشهاب، ج11، م12، قسنطينة-الجزائر: جانفي 1937م .

16- الشهاب، ج5، م 13، قسنطينة-الجزائر: جمادى الأولى 1356هـ/ 10 جويلية 1937م.

17- الصباح، تونس: /

18- الصراط، العدد 16، السنة الأولى: 08 جانفي 1934 م.

19- الفكر، تونس: 1946-1962م.

20- المنتقد، قسنطينة، السنة: 1925م.

21- الميدان، العدد 19، قسنطينة– الجزائر، السنة الأولى: 1937م .

22- النصر: 1972/04/15م.

23- النهضة، تونس: 1925م.

24- ولاية أم البواقي، نشرية تاريخية: 2006 م .

25- ولاية أم البواقي، نشرية تاريخية: 2007 م .

فهارس البحث

أولا . فهرس الأعلام

ثانيا. فهرس الأماكن والبلدان

ثالثا . فهرس التنظيمات: (الجمعيات - النوادي - الأحزاب - الدول - القبائل)

رابعا. فهرس الجرائد والمجلات

خامسا . فهرس الآيات والأحاديث

أولا. فهرس الأعلام

-F-

Fialar: 13

-G-

Glaplace: 6

-V-

Vallois: 6

-أ-

إبراهيم، حافظ: 75

الإبراهيمي، البشير: 2-20-28-30-31-37-38-40-42- 51- 61- 62- 70-80-92-97-99

الإبراهيمي، القريشي: 31

الإبراهيمي، مبارك: 31

الإبراهيمي، محمد الشريف العماري: 31

الإبراهيمي، محمد مكي: 30

ابن السايح، الصادق ابن عبد الله: 61

ابن باديس، مكي: 16

ابن باديس، عبد الحميد: 2-16-22-31-32-36-37-38-40-42-44-46-47-
49-51-52-61-62-63-72-73-79-80-86-88-95-97-102

ابن حلوش، مصطفى: 63-70-72

ابن دراجي، محمد: 9

ابن زاوي، الحركاتي: 9

ابن عاشور، محمد الطاهر: 95

ابن مالك: 93

ابن مختار، الباش عدل محمد: 62

ابن معطي، الزواوي: 22

ابن مهيدي، العربي: 9

ابن نبي، مالك: 23

ابن يحيى، إبراهيم ابن مساهل: 28

ابن أحمد، البشير: 73

الأخضري، عبد العلي: 47

أرسلان، شكيب: 21

الأشموني: 39

-ب-

بارش، حسان: 33

بودشيشة، عبد العزيز: 62

بوشمال، أحمد: 99-100

بوكوشة، حمزة: 47-73

بولحبال، حسن: 60-22

-ت-

التبسي، العربي: 79-81-97-100

-ج-

الجرموني، عيسى: 24

الجنان، عبد الحفيظ: 47

-ح-

حامدي، الحاج علي: 9

حساني، رمضان: 23

حيرش، عبد المجيد: 47-73-97

- خ -

خليفي، عمار: 39

-د-

دامرجي: 64

دردور، عمر: 73

-ر-

راجعي، عمار: 9

-ز-

زرداني، السعيد: 55

الزغداني، عبد الحميد: 64

الزغداني، محمد الطاهر: 28

الزموشي، محمد السعيد: 22-23-100

الزهري، ابن شهاب: 77

زيناي، أبو القاسم البيضاوي: 23

-س-

ساحلي، محمد الطاهر: 57

الساسي، علي: 57

سعد الله، أبو القاسم: 22

سيغة، الهادي: 54

-ش-

الشريف الحسني، بلحسن النجار: 46

شلتوت، محمود: 62

الشوكاني: 62

-ع-

العابد، محمد: 47

عبد القادر، الأمير: 90

-ف-

فارنيي: 17

فاضلي، علي: 9

فرنسوا، مارسلان كانروبير: 7

فنتازي، محمد: 9

-ق-

القنطري، محمد بن خير الدين: 62

-ك-

كارد، فيوليت: 13

الكاهنة: 6

-ل-

لغرور، شعبان: 9

لوز، الحاج شعبان: 54

لونيسي، حمدان: 22

لونيسي، عبود: 22

-م-

ماسينيسا: 6

المدني، توفيق: 11

مساس، محمد علي: 45-53-54-105

المقراني، محمد: 10-16

الميلي، عبد الله: 47

الميلي، مبارك: 58-79-81

-ن-

النعيمي، فريدة: 64

-و-

ويليام، سبنسر: 10

ثانيا. فهرس الأماكن والبلدان

-آ-

آقبو: 2

-أ-

أم البواقي: 3-4-6-7-10-8-11-12-14-15-17-18-19-21-23-24-28-38-46-48-49-51-55-88-89-91-102-103

الأوراس: 2-3-6

أولاد أبراهم: 2-28-42

أولاد سي أحمد: 30

أولاد ونداج: 42

-ب-

باب جديد: 56

باتنة: 5

برج بوعريريج: 2-28

بغاي: 6-7

بوهجة بوالصوف: 53

-ت-

تبسة: 5-6-8-44

تلمسان: 7-13-15-44

توزلين: 18

تونس: 37-38-40-46-47-55-56-57-71-100

-ج-

الجزائر:3-10-12-14-15-20-21-22-33-40-44-46-51-54-57-58-59-63-67-68-69-71-72-74-78-79-80-81-82-85-89-91-98

-ح-

الحضنة: 2

-خ-

خنشلة: 4-5-6-53

-د-

دوار الحاسي: 18

-ر-

راس الواد: 2

-ز-

زيغود يوسف: 49

-س-

سطيف: 7-30-93

سوق أهراس: 5-8-49

سوق نعمان: 6

سيدي بلعباس: 13

سيدي ارغيس: 4-18

سيقوس: 6

-ض-

الضلعة: 6

-ط-

الطارف: 4-8

-ع-

عين عبيد: 4

عين البرج: 6

عين البيضاء: 11-12-21-22-23-24-48-49-72-88-103

عين الزيتون: 2-6-18

عين القصر: 4

عين أولمان: 30

عين ببوش: 18

عين لجلج: 18

عين مليلة: 2-4-23-24-35-36-42-44-45-46-52-53-54-62-88-89-98-101-103

-غ-

غليزان: 16

-ف-

الفجوج: 4-18

فرنسا: 3-12-13-17-20-79-84-89-97-104

-ق-

قالمة: 3-5

قرطاجة: 6

قسنطينة: 2-3-5-6-7-13-15-16-31-32-36-37-41-44-47-49-54-57-63-64-74-90-91

قصر الصبيحي: 6

قليف: 4

-م-

ماكومداس: 6

مدفون: 18

المرسى: 56

المسيلة: 2-94

المغرب العربي: 7

مليانة: 18

المنظر الجميل: 54

ميلة: 5

-ن-

نفطة (تونس): 22

نوميديا: 6

-و-

واد الزناتي: 4

واد الشارف: 4

واد الواسعة: 4

واد دحمان: 4

واد سيبوس: 4

واد مبدوعة: 4

واد ملوك: 4

وهران: 2-16

ثالثا ــ فهرس التنظيمات: (الجمعيات - النوادي - الأحزاب - الدول - القبائل)

-ب-

البربر: 6-11

البيزنطيون: 6

-ج-

الجامع الأخضر: 2-31-32-36-37-46-70

جامع الأزهر: 62-72-97

الجامع الأعظم (الزيتونة): 22-37-38-39-40-64-72-73-95-97

جمعية الإصلاح والإرشاد: 24

جمعية البصائر: 24-49-63-89-91-92

جمعية العلماء المسلمين الجزائريين: 7-39-66-88-97

جمعية الفرقان: 24

جمعية صناع الحياة: 24

-ح-

الحراكتة: 3-10-12

حركة النهضة: 24

حركة مجتمع السلم: 24

حزب التجمع الوطني الديمقراطي: 24

حزب جبهة التحرير الوطني: 24

-ز-

زاوية أحمد ابن عروس: 22

زاوية أحمد التيجاني: 21

زاوية الشيخ لخضر بوكفة: 21

زاوية سيدي الحواس: 30

زاوية شلاطة: 2-30

-س-

سلاوة: 3-4-10

-ع-

العثمانيون: 7

-ف-

فرقة تيقيار: 24

-م-

مجلس الجماعة: 3

مدرسة العرفان: 24-36-53-89-101

المستشرقون: 58

الموحدون: 7

-هـ-

الهلاليون: 7

-و-

الوندال: 6

-ي-

اليهود: 12-16-83-99

رابعا. فهرس الجرائد والمجلات

-ب-

البصائر: 49-63-89-91-92

-ز-

الزهرة: 56

-س-

السنة: 34

-ش-

الشريعة: 49-63-91

الشعب: 63

الشهاب: 38-44-49-59-60-62-63-74-89-91-92

-ص-

الصباح: 56

صدى الحراكتة: 23-91

-ف-

الفكر: 56

-م-

المنتقد: 23

الميدان: 49-63-80

-ن-

النصر: 63

النهضة: 56

خامسا ــ فهرس الآيات والأحاديث

1/ فهرس الآيات

﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ سورة الحشر، الآية 9..... 35

﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ سورة البقرة، الآية 272..... 35

﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ﴾ سورة هود، الآية 88 42

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾

سورة الأنفال، الآية 24 43

﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ سورة يونس، الآية 62 48

﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ سورة الرعد، الآية 11 84

﴿وَجَادِلْهُمْ بِالتِي هِيَ أَحْسَن﴾ سورة النحل، الآية 125 92

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ سورة يوسف، الآية 111 105

2/ فهرس الأحاديث

﴿وَالعَرَبِيَةُ لِسَانٌ وَمَنْ تَكَلَّمَ العَرَبِيَةَ فَهُوَ عَرَبِيٌّ﴾ رواه ابن عساكر عن أبي سلمة بن عبد الرحمن مرسلا (كما في: كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال لمؤلفه: علي بن حسام الدين المتقي الهندي: ج12 ص47)، ونص الحديث كاملا: (يا أيها الناس ! إن الرب رب واحد وإن الأب أب واحد وإن الدين دين واحد، وليست العربية بأحدكم من أب ولا أم فإنما هي اللسان، فمن تكلم العربية فهو عربي) 11

﴿الرَّاحِمُونَ يَرْحَمْهُمُ الرَّحْمَنُ﴾ رواه أبو داود برقم : 4941 , والترمذي برقم : 1569 , والحاكم 4 / 175 والبيهقي في الشعب برقم: 11048 , وأحمد في المسند : 2 / 160 , وقال الترمذي: حسن صحيح , وصححه الحاكم 36

﴿الحِكْمَةُ ضَالَةُ المُؤْمِنِ أنىَّ وَجَدَهَا فَهُوَ أَحَقُّ بِهَا﴾ رواه ابن ماجة (4169) والتِّرمِذي (3687) وقال: هذا حديثٌ غريبٌ، لا نعرفهَ إلا من هذا الوجه، وإبراهيم بن الفضل المدني المخزومي، يُضَعَّفُ في الحديث من قبل حفظه 82

فهرس الموضوعات

مقدمة البحث وخطته..... أ

الفصل الأول: بيئتا المصلحين 1

المبحث الأول: الموقع الجغرافي وتضاريس المنطقة 2

المبحث الثاني: الحياة السياسية..... 6

المبحث الثالث: التطور الاجتماعي..... 10

المبحث الرابع: التطور الاقتصادي..... 15

المبحث الخامس: التطور الثقافي..... 20

الفصل الثاني: حياة المصلحين وآثارهما 26

المبحث الأول: المولد والنشأة: 28

المطلب الأول: محمد مساس الإبراهيمي 28

المطلب الثاني: أبو القاسم الزغداني 28

المبحث الثاني: التعلم والرحلة في طلب العلم..... 30

المطلب الأول: محمد مساس الإبراهيمي: 30

المطلب الثاني: أبو القاسم الزغداني: 36

المبحث الثالث: جهود المصلحين في ميدان التربية والتعليم 42

المطلب الأول: محمد مساس الإبراهيمي 42

المطلب الثاني: أبو القاسم الزغداني **..... 46**

المبحث الرابع: نشاط المصلحين السياسي والوطني..... 52

المطلب الأول: محمد مساس الإبراهيمي **52**

المطلب الثاني: أبو القاسم الزغداني **55**

المبحث الخامس: آثار المصلحين 58

المطلب الأول: تراث محمد مساس الإبراهيمي..... **60**

المطلب الثاني: تراث أبي القاسم الزغداني **62**

الفصل الثالث: المقارنة بين المصلحين..... 65

المبحث الأول: المقاربة الفكرية والعلمية والتربوية بين الرجلين 67

المطلب الأول: تشخيص الواقع 67

المطلب الثاني: رعاية النشء وتربية الأجيال..... 71

المطلب الثالث: مقاومة البدع والخرافات..... 76

المطلب الرابع: الجمع بين الأصالة والمعاصرة في الأخذ بأسباب القوة والرقي 82

المطلب الخامس: إشراك فعاليات المجتمع الجزائري المسلم في المشاريع الوطنية الكبرى .. 84

المبحث الثاني: المجال السياسي والوطني 88

المطلب الأول: الرؤية السياسية..... 88

المطلب الثاني: أساليب التغيير 90

المطلب الثالث: دور الكفاءة والأهلية في خدمة قضايا الأمة 90

المطلب الرابع: التضحية في سبيل الوطن..... 99

الخاتمـــــة: 102

ملاحق البحث 106

الملحق الأول: تراث محمد مساس الإبراهيمي.....107

الملحق الثاني: تراث أبي القاسم الزغداني.....130

الملحق الثالث: الخرائط والصور العامة والشخصية.....141

بيبليوغرافية البحث.....148

فهارس البحث 158

أولا. فهرس الأعلام.....159

ثانيا. فهرس الأماكن والبلدان.....165

ثالثا. فهرس التنظيمات: (الجمعيات - النوادي - الأحزاب - الدول - القبائل) 171

رابعا. فهرس الجرائد والمجلات.....174

خامسا . فهرس الآيات والأحاديث.....176

فهرس الموضوعات 178